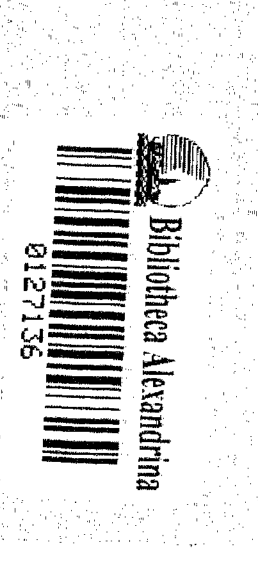




اسلاميات احمد شوقي

دراسة نقدية

دكتورة

سعاد عبد الوهاب عبد الكريم

تقديم ومراجعة د. سهير القلماوى



تقـــــــــــديم

بقلم : سهير القلماوى

لم يحظ شاعر قديم أو حديث بما حظى به شوقى من اهتمام الدارسين مؤرخين ونقاداً . فقد درس فى إطار الشعر الحديث بعامة وأفردت له دراسات عديدة وحده وبالمقارنة مع شاعر آخر . لقد ملأ شوقى فعلا السمع والبصر فى حياته وبعد مماته ، ولم يخفت الإهتمام به إلا لما خفت الاهتمام بالشعر بعامة فى هذا العصر .

وإذا كانت الدراسات قد تدفقت أكثر بعد وفاته ، فما ذلك إلا لأنه تربع على عرش إمارة الشعر قبيل وفاته . وأخذ الدارسون لشعره أو الناقدون له يتعددون على نطاق الوطن العربى كله . فلم يبايع شوقى أميراً على الشعر فى مصر أو فى حفل تكريم خاص به ، وإنما كانت المناسبة مهرجاناً للشعر العربى الحديث بعامة ، اجتمع فيه أبرز شعراء هذه الفترة لتكريم الشعر والشعراء فى دمشق .

وما من كتاب تخصصى أو مدرسى تعرض للشعر الحديث أو الأدب بعامة استطاع أن يعبر على شعر شوقى عبوراً سريعاً ، ذلك أن كل دارس لابد له من وقفة خاصة به ، باعتباره أبرز شعراء العربية فى زمانه . ولكنه درس أيضاً دراسة خاصة به . منها ما تقرنه بشاعر آخر مثلما قرنه طه حسين بحافظ ابراهيم للمقابلة بينهما فنياً لتعاصرهما (حافظ وشوقى سنة ١٩٥٨) . كما درس مقروناً بالمتنبى مثلما درسه عباس حسن (المتنبى وشوقى سنة ١٩٦٤) أو مقارناً بابن زيدون فى نونيتهما مثلما درسه أبو القاسم محمد كرر .

ومن هذه الدراسات ما يفرد شوقى فى عرض شامل والتعريف به بشكل عام ، مثلما فعل شوقى ضيف (شوقى شاعر العصر الحديث سنة ١٩٥٣) ومنها ما عنى بشكل أدبى أسهم فيه شوقى بشكل واضح مثل دراسة المسرح عند شوقى بشكل عام (أحمد هيكل الأدب القصصى والمسرحى فى مصر) . أو بتركيز

على شوقى وحده مثلما فعل حامد شوكت و د . محمد مندور ، لأن اسهام شوقى فى بدايات المسرح فى الأدب العربى الحديث تستحق وقفة خاصة .

كذلك اتخذ الباحثون موضوعاً خاصاً ، لشوقى فيه شعر له سمة خاصة من موضوعه مثل (الدين والأخلاق فى شعر شوقى سنة ١٩٦٤ لعلى النجدى ناصف ، أو وطنية شوقى (لأحمد الحرفى سنة ١٩٥٥) . أو « أحمد شوقى شاعر الوطنية » (أحمد زكى سنة ١٩٥٨) و « أندلسيات شوقى » (صالح الأشتر ١٩٥٩) . و « شوقى وشعره الاسلامى » (ماهر حسن ١٩٥٩) . واستمرت العناية بمسرح شوقى إلى اليوم . فقد درسه منذ عامين « طه وادى » فى كتاب « شعر شوقى الغنائى والمسرحى » . كما استمرت العناية باسلاميات شوقى ومنها هذه الرسالة التى نقدمها للدارسين فى هذا الكتاب .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما زخرت به مقدمات مجموعات شعره مثل المقدمة الصافية التى صدّر بها د. محمد صبرى ما جمعه من شعر شوقى الذى لم ينشر وعنونه « الشوقيات المجهولة » ، وكذلك المقدمات التى كانت تتصدر مسرحياته .

ولعلنا لمجرد الدلالة على الاهتمام المتوسع بشعره بعد وفاته لا يفوتنا أن نذكر الدراسات التى كانت تقدم عنه فى حفلات تأبينه أو رثائه ، والأعداد الخاصة من مجلة « الهلال » و « أبولو » التى كانت تصدر احتفاء بذكراه .

ولا ننسى أن بعض الأشكال الشعرية التى توقف الانتاج على نسقها ؛ كمعارضات القصائد الخالدة فى الأدب القديم ، والتى دخل فى موضوعها شعر شوقى (وقد ذكر القصائد التى يعارضها) فكان طريفا عقد المقارنة بين القصيدة القديمة والمعارضة الحديثة عند شوقى مثل (معارضات شوقى فى الميزان) .

فإذا أضفنا إلى كل هذا ما زخرت به فترة هجوم الشعراء الجدد فرسان « مدرسة الديوان » على شعر الإحيائيين ، وأبرزهم شوقى ، بدت لنا خطورة اضافة جديد الى كل هذه الدراسات ؛ ما لم يكن الاتجاه اتجاهاً حديثاً يبرز

نواحي لم يستطع السابقون الوقوف بها لأن علوم « النبائية » و « الألسنيات » لم تكن قد عرفت على نطاق واسع كما هي معروفة اليوم .

وأبرز دراسة وأحدثها مما أفاد افادة علمية مما قد استحدث في نقدنا العربي من معلومات خول هذه الاتجاهات الحديثة هي دراسة محمد الهادي الطرابلسي (من تونس) « خصائص الأسلوب في شعر شوقي سنة ١٩٨١ » التي ظهرت والباحثة سعاد عبد الكريم (صاحبة هذه الدراسة التي نقدم لها) نقد هذا البحث ، فكانت فرصة لها أن تفيد من هذا البحث القيم بقدر ما يسمح به موضوعها .

فخصائص أسلوب شوقي عند الطرابلسي كانت وسيلة تطبيقية لهدفه الأصلي ، وهو دراسة خصائص التعبير في اللغة العربية ، وما تنفرد به اللغة العربية ، من دون سائر اللغات ، من ظواهر وسمات لها دلالالتها في علم اللغة وفي دراسات وسائل التعبير بالكلمة . أما هذه الدراسة فهي قد ضيقت دائرة البحث بهدف الوصول إلى نتائج معينة . فخصت شعر شوقي الذى كان الاسلام فيه المؤثر الأكبر وربما الأوحد .

لقد علق الطرابلسي أحدث النظريات في الدراسات « الأسلوبية » و « البنائية » بدقة علمية ممتازة . فخرجت الدراسة مملوءة بالاحصاءات المفيدة . كان يحصي أبيات شعر شوقي فيجد أن أبيات الديوان وحده تصل إلى سبعة عشر ألف وخمسمائة ، بينما أبيات شعر ابن الرومي الذى يضرب به المثل في الخصب وكثرة ما ألف من أبيات يتراوح عددها عنده بين ستة عشر ألفاً وسبعة عشر ألفاً . فإذا أضفنا إلى شوقي أبيات المسرحيات والشوقيات المجهولة لأصبح لشوقي أكثر من ثلاثة وعشرين ألفاً من الأبيات ، وبهذا يمكن بكل اطمئنان أن نعد شوقي أخصب شعراء العربية على الاطلاق قديماً وحديثاً .

ولذلك اتخذه الطرابلسي نموذجاً للتطبيق فاستطاع أن يصل إلى الكثير من الظواهر العلمية والسمات المؤدية إلى هدفه من دراسة نظام اللغة العربية ، ومدى الثبوت في قواعدها ومدى التحول ؛ مما يساعد على إبراز خصائص مميزة

تقودنا إلى رسم امكانات التحول أو التطور فيها كما تعودنا إلى وصف حياة اللغة العربية ومسيرة تطورها ومدى مساهمة النصوص الشعرية بهذه اللغة فى خلق الجو الشعرى ؛ أى التوفيق فى تحقيق أهداف الفن بعامة والفن القولى بخاصة .

لقد اتجهت سعاد عبد الكريم إلى دراسة الأثر الاسلامى (لفظاً وفكراً وقصصاً وصوراً .. الخ .) فى شعر شوقى الاسلامى . وشعره الاسلامى أن يكن موضوعاً من موضوعات شعر شوقى ولكنه حسب تعداد الأبيات يعد الموضوع الطاغى والأهم ، والأطوع فى دراسة التطور من القديم إلى الحديث . فالمقارنة بين البيت والآيات القرآنية التى استواحاها شوقى والمقارنة بين البيت وما سبق من شعر إسلامى ، وخاصة فى القصائد التى عارضها ، كل هذه المقارنة ، أبرزت أهم خصائص الفن الشعرى عند شوقى . لأن شعره الاسلامى ليس مجرد أكثر الموضوعات عدد أبيات فحسب ولكنه أخصب الموضوعات التى عكست أهم المؤثرات فى شعر شوقى وحياته .

لقد اعترف محمد الهادى الطرابلى ، بعلمية أمينة صادقة ، أنه لن يصل إلى كثير من التنظير والقواعد فى ما هية الشعر ، والأسلوب العربى فيه ، ولكنه كما يعترف أراد أن يسد هذا الفراغ ، الذى نحسه جميعاً ، من انعدام الإفادة من منجزات البحوث « اللسانية » التقنية فى نقدنا ، لتطويره من مجرد انفعالات أو سرت حقائق تاريخية إلى دراسة علمية لها نتائج يمكن أن تطور الأساليب العربية ، بل أن تطور اللغة نفسها ، فى إطار ثوابتها الأصيلة . لذلك اضطر أن يعر إلى بعض ما سبق من دراسات عن شوقى فوصفها (بتعميم صادق وأن يكن غير دقيق) بأن أكثرها سطحى أو انطباعى أو مدرسى ، ونضيف إلى ما ذكر الهادى الطرابلسى من دراسات قليلة كنماذج ، دراسة يتلامس موضوعها مع هذه الدراسة وهى دراسة ماهى حسن سنة ١٩٥٩ على أنها دراسة أعم من أن يكون بها ما يمكن أن تفيد من الباحثية (ولعلها فى زمان ظهورها كانت ظاهرة مبشرة) .

أما هذا البحث فقد توخى إلى حد بعيد الجمع بين آلدراسة الفنية الأدبية والدراسات الاخصائية الأسلوبية المتتبعة بدقة الألفاظ والتراكيب والصور .

ولقد أصابت الدارسة منذ أول الأمر بأن حادث مشكلة البحث الأولى بأنها هي المزاوجة بين النفس الجاهلي (الوثني) والمعنى الاسلامي ، في ظل تطور واضح ، ندرجه في تاريخ الأدب الحديث تحت عنوان حركة الإحياء . أي إحياء الشعر العربي القديم وما أكثره (فهو يشمل كل ما سبق العصر الحديث ، أي ستة عشر قرناً أو تزيد) وما أكثر الاختلاف فيه ، وما أكثر حركات التجديد واختلاف الشعراء أصولاً وديناً وربما طرائق تعبير خاصة بالموطن الجغرافي أو القبيلة إلى الخصائص الشخصية .

ومع ذلك فهناك نقصة ارتكاز ثابتة واضحة تنبع من أن العربية لغة عبقرية صانها القرآن الكريم من كل تحريف شاذ وثبت في وجدان أهلها أنها هي التي اختارها الله سبحانه وتعالى ليرسل بها رسالته لنبيه محمد (ص) ليبلغها بهذه الألفاظ إلى العالمين وعلى مدى الدهر .

ومجالات الالتقاء والاختلاف بين الشعر المعاصر وشعر العصور السابقة عديدة . فهي مجالات فكر وألفاظ وصور . منها ما قد درس منذ العصور الأولى في باب التجديد ومنها ما هو مبتدع في العصر الحديث ، وان كان لابد له من أن يرتكز ، أو على الأقل يحسب حساب ، هذه الدراسات القديمة عن ظاهرة التجديد كلما تجلت في تاريخ شعرنا الطويل .

لقد عاش شوقي تحت مظلة الامبراطورية العثمانية لذلك كان لزاما على الباحثة أن تطلع بالتفصيل على تاريخ العثمانيين في سنوات دولتهم الأخيرة فرجعت إلى مؤرخين مثل « المادتليين » عن « عبد الحميد ظل الله على الأرض (سنة ١٩٥٠) » وكتاب « توينبي » المعروف عن الخلافة (محاضرات سنة ١٩٦٤) ؛ وإلى العديد من التآليف العربية الحديثة التي تهاجم الدولة العثمانية أو تدافع عنها باعتبار أن سقوطها كان تدبيراً ذكياً محكماً من قوى الاستعمار المتربصة بهذه الدولة وبالاسلام والمسلمين بعامة .

ولقد أظهرت الباحثة كيف أن شوقي ، بوجدان مرهف وحسّ اسلامي ناضج ، أحس خطر المستعمرين ؛ وظهرت له نواياهم في تحريك الأحداث حتى تصل إلى سقوط الخلافة . ولقد عاني من سقوط الخلافة ألمين عبقريَّيْن عظيمين ألم النفي بعد خَلع السلطان ، وألم لعالم الحضارة الأندلسية السليبة التي برزت له في منفاه في أسبانيا . فتضاعف شعوره المتأجج حماساً للاسلام ولدولة المسلمين ، وكان له في هذا شعر رائع يفيض بالوجدان والأنين كما يزخر بالصور والأحداث .

لقد أحس شوقي بحق أن هدف الاستعمار من القضاء على الامبراطورية العثمانية استلزم من أدوات الاستعمار تخريب الدولة من الداخل والخارج ؛ فكان الفساد والظلم تنفيذاً لمخططات مدروسة . والمسلمون مطمئنون إلى دينهم لاهون عما يدبّر لهم . لقد فسدت الادارة وفسد الحكم في مقر الخلافة وفي كل دولايتها ووصلنا في مصر إلى احتلال عسكري بريطاني وكان شوقي مايزال في عنفوان شبابه وتوهج موهبته الشعرية .

وشوقي وهو شاعر مسلم يرى كل ذلك في وضوح فالتهب حماساً للدفاع عن الدولة العثمانية رغم فساد الادارة والحكم ، مخترقاً كل الصيحات التي تنادي بسقوطها واستبدالها إما بدولة عربية (صيحات القومية العربية الأولى) أو بدولة إسلامية (الوهابية ، السنوسية ، وحركة الشريف حسين أبان الحرب العالمية الأولى) .

وفي تقديس شوقي للخلافة أمدها بتصورات إسلامية ومن أنظمة الشورى في الاسلام وأنظمة الحكم الحديث المعاصر له في أوروبا وغيرها . نوصل نسب الخليفة بالنسب النبوي الشريف ووقف بالصور والأعلام والقيم والأحداث التي تذكر في القرآن الكريم عن الأنبياء بعامة ، ليربط بينهما وبين الخليفة العثماني . وفي كل مرة ينتقل ، كما ينتقل كثيراً وفي كل مناسبة ، إلى إبراز فضائل الاسلام (لا جنس لا دم لا أرض) رباط زوجي عقائدي بين البشر أجمعين بأعلى مراتب الفضائل .

لذلك وقفت الباحثة بهذه الفضائل التى أسبغها الشاعر على الخليفة العثمانى ، والتى ترددت بعد ذلك فى شعره فى مناسبات أخرى . كما وقفت بتاريخ المنطقة القديم (تاريخ الأمم الغابرة المذكورة فى القرآن الكريم) تاريخ الفراعنة ، والحديث وخاصة معارك انتصار المسلمين فى حروبهم ضد أعداء الاسلام ، فاستمد شوقى من كل هذا أفكاراً وقيماً وأحزاباً وأبطالا واستطاع أن يصبغ حتى التاريخ القديم بصبغة اسلامية واضحة .

لقد تتبعت الدراسة شعر شوقى ، بدقة علمية جادة ومثابرة ، ووقفت بالألفاظ لترى استعمالها القرآنى مقارناً باستعمال شوقى بها وصولا إلى تحديد معالم معجم شوقى القرآنى . كما وقفت أمام اقتباس الآيات أو أجزاء منها ، واقتباس الأحداث والتاريخ الاسطورى والمعاصر للعصور الاسلامية الأولى .

ثم عبرت إلى الدائرة الأعم فوقفت بشعر شوقى الذى يصف فيه العبادات ، ويفضل التمسك بأدائها وتمسك الخليفة الممدوح بهذه العبادات ومشاركته للمسلمين فى أدائها (الحج والصوم .. الخ) وفى قصائد الرثاء يذكر هذا الجانب ويضغط عليه بالنسبة للعظيم الذى يرثيه فهو عظيم فى بابه ولكنه مسلم أساساً . حتى من كانوا غير مسلمين فانه يقف بتقواهم وحميد سيرتهم من منطلق دينى عام .

وأفردت سعاد عبد الكريم للاقتباس من الموروث الشعرى العربى الاسلامى جزءاً هاماً من بحثها . تضغط فيه على التزام شوقى بالفصحى فى كل شعره وان يكن قد عمد الى فصحى مُيَسّرة عندما ترجم أو اقتبس فى الواقع قصص الحيوان من الأدب الفرنسى والعربى القديم ليتعلمها الأطفال ويتعظوا بها .

ودراسة الباحثة لمعجم شوقى الشعرى تبُرز أهم خصائص شعر شوقى وهى خصيصة المزاوجة بين الصوت والمعنى فى الألفاظ الشعرية . ولقد استوقفت موسيقية الألفاظ أو الأصوات فى شعر شوقى كل باحث جاد فى أسلوب شوقى .

هذا تقديم عام لهذه الدراسة القيمة التى أرى أنها ليست مجرد إضافة لهذه الدراسات العديدة التى سبق أن أشرت إلى أهمها أول هذه المقدمة وإنما هى

إضافة خليقة أن تثير حوارات ومناقشات لمزيد من التعمق فى دراسة العربية لغة وأسلوب شعر (ألفاظاً وفكراً وصوراً) من خلال التعامل بالوسائل العلمية التى أتيحت حديثاً للدارسين فى زماننا على نماذج رائعة من الشعر .

كما أرجو وألح أن تتابع سعاد عبدالكريم هذه الدراسات الأدبية الفنية والعلمية ، بمزيدمما تكسبه من اطلاعاتها ومعاملاتها مع نماذج الأدب الحديث الذى شاءت أن تتخصص فيه . وفقها الله ، وسدّد خطاها وأعانها على الصبر والمثابرة فهو سبحانه ولى التوفيق .



مقدمة

شوقي من أبرز شعراء مصر المعاصرين ، لا على مستوى مصر فحسب ولكن على مستوى العالم العربي والغربي ، فهو يمثل مرحلة فنية معينة في تاريخ الشعر العربي الحديث . وقد لعب شوقي دوراً هاماً ورئيسيا سائرا على نهج أستاذه (محمود سامي البارودي) في إحياء الحركة الأدبية بما اشتملت عليه من تراث عظيم ، هذه الحركة تعد بداية جديدة في حياة الشعر العربي خلفت فترة طويلة من الجمود لم تفد شيئاً .

عاش شوقي في الفترة من ١٨٦٨ ــ ١٩٣٢ م ، وشهد أحداثاً كثيرة مرت بها الأمة العربية أولا ، والأمة الاسلامية ثانياً . هذه الأحداث كان لها الأثر العظيم في حياته وشعره ، ففي مصر ــ بلده ــ أدرك ما كان قبل الاحتلال من شبه استقلال ، وعاصر الثورة العرابية ، وشهد الاحتلال الانجليزي لمصر ، ثم عاصر الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ونفى الى أسبانيا بعد قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م من قبل الانجليز ، بعد خلع الخديوي عباس . وأيد ثورة ١٩١٩ م التي قامت بمصر وأشاد بالمجاهدين وعاش يرقب الجهاد الوطني من منفاه ، ولا ييأس من النصر ، ثم عاد من المنفى ١٩٢٠ م .

وكان شوقي شاعر الوطنية ، سجل في شعره كثيراً من أحداث مصر ، وتغنى بحبها وتمجيد ماضيها العظيم وحاضرها المشرق ، وحزن لضعفها ، وحث أبناء مصر على مناصرتها .

وعاصر شوقي أيضاً الأحداث الجسام التي مرت بالعالم الاسلامي ، فقد كانت تركيا ــ دولة الخلافة العثمانية في ذلك الحين ــ تنحدر من عليائها وتفقد كثيراً من ولاياتها ، إذ تخلت عن الجزائر لفرنسا ١٨٣٠ م ، وتركت تونس لفرنسا ١٨٨١ م ، واحتلت انجلترا مصر والسودان ١٨٨٢ م ، واحتلت إيطاليا طرابلس ١٩١٢ م . وكانت الدول الاسلامية المستقلة كالأفغان وإيران لاتسلم من ألاعيب الاستعمار . واقترن هذا الضعف السياسي في الشعوب

الاسلامية بالجهل والتخلف الاجتماعي والاقتصادى ، وخضوع للأوهام ومجافاة لروح الاسلام . ولهذا هب دعاة الاصلاح ، ومنهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبدالرحمن الكواكبى وغيرهم ، يدعون الى تقليد النموذج (القرآن في أسلوبه ، والرسول في شخصيته وسلوكه ، والدين بعامة في قواعده وقوانينه) كقيم مقررة يؤكدون عليها في دعوتهم ، وهى دعوة إصلاحية للرجوع الى جوهر الدين .

وكانت هذه الدعوة الاصلاحية ينبوعاً ثراً يستقى منه شعراء الحركة الاحيائية (ومنهم أحمد شوقى) مادتهم ، ولم يكن الاسلام ثورة دينية فحسب وإنما كان ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية أيضاً ، وكان ــ مع هذا كله ــ ثورة أدبية غيرت من معالم الصورة القديمة التى استقرت فى المجتمعات الأدبية الجاهلية ، فشقت هذه الثورة الأدبية طريقها مؤذنة بظهور الأدب الاسلامى لأول مرة فى تاريخ الشعر العربى .

وقد تأثرت المدرسة الاحيائية بهذا التيار ، تيار إحياء الأدب القديم ، ولو اجتهدنا فى البحث عن بصمات شوقى فى (ديوانه) لعثرنا فيها على بصمات عمالقة الشعر العربى القديم . وهذه حقيقة لاتحط من شوقى ولا ترفع من حظ القدماء بصفة خاصة ، ولكنها تبين كيف أن الفنان الحق يستطيع أن يحرر فنه من قيدى المكان والزمان وأن يسمو بعطائه الشخصى إلى مستوى عطاء الأجيال .

وقد ظهرت النزعة الدينية واضحة فى شعر مدرسة الأحياء أو من يسمون (بالمدرسة الكلاسيكية الجديدة) البارودى وشوقى وحافظ وغيرهم ، وأخذت العناصر الإسلامية الجديدة تتداخل فى البناء الفنى مع الموروث القديم فى قصائد هؤلاء الشعراء ، وتبدأ عملية مزاوجة فنية بارعة بين هذين التيارين . أما شوقى فقد تفوق على أقرانه من الشعراء فى شعره الاسلامى ، وأصبح هذا التيار واضحاً فى صوره الشعرية ، وأصبحت هذه القيم الدينية فى قداستها ومعطياتها تشكل جانباً من وعيه الشعرى ، ووجد شوقى فى التيار الاسلامى معجماً ثرياً

يستمد منه مادته التعبيرية والتصويرية . والحقيقة التي تؤكدها النصوص ، والتي يحاول هذا البحث إثباتها ، هي أن هذا التيار الاسلامي الذي ظهر في شعر شوقي بهذه الوفرة لم يظهر عند غيره من شعراء عصره . وعلى هذا بدأ البحث طامحاً إلى الوقوف على تلك الملامح الدينية الكثيرة ومدى استجابة قصائده للمؤثرات الاسلامية التي طغت عليها وعلى العصر بصورة عامة . والبحث يبدأ من حيث انتهى من سبق إلى دراسة شعر شوقي الاسلامي ممن سعوا الى دراسة تراث الشعر الديني في مصر وغيرها ، فظهرت من هذه الدراسات (العامل الديني في الشعر المصري الحديث) للدكتور سعد الدين الجيزاوي ، و(شوقي شعره الاسلامي) للدكتور ماهر حسن فهمي ، و (التراث الروحي في شعر شوقي) للدكتور أحمد الحوفي .

ومن هذه الدراسات دراسة شاملة تناولت حياة شوقي قام بها الدكتور شوقي ضيف وهي (شوقي شاعر العصر الحديث) . الى جانب دراسات أخرى تناولت أحمد شوقي من جميع جوانب حياته . وهناك دراسة تتعلق بالناحية الأسلوبية وحدها عند شوقي قام بها محمد الهادي الطرابلسي وهي (خصائص الأسلوب في الشوقيات) ، وقد عمد الباحث فيها الى وصف نظام اللغة العربية في طور من أطوارها لتبين ما في قواعدها من ثبات أو تحول ، وتحديد وظائف اللغة في بلورة المستويات ، ومن ثم تركيز البحث على شاعر معين هو أحمد شوقي ليكون ذلك وسيلة الى إبراز دور الفرد في اللغة والطابع الذي تتسم به في شعره .

أما هذا البحث فهو دراسة أسلوبية نقدية للشعر الاسلامي عند شوقي تتكفل بالربط بين التناول اللغوي والتحليل الأدبي ربطاً ميدانياً ، فهو بحث يسعى الى تحليل النص فنياً للكشف عن آثار هذا التيار الاسلامي في الصورة العامة للقصائد الشوقية ، وما أحدثه هذا التيار من تعديل أو إضافة أو تراكم من خلال المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة .

ومن هنا بدت هذه الدراسة في حاجة الى أن تسلك نحو أهدافها مسارين : يمضى الأول نحو تبين الموقف العام عند شوقى ، وتحديد مسالكه من خلال هذا التيار الاسلامى الغالب فى شعره . ويمضى الآخر نحو الكشف عن الأدوات التى تعامل شوقى من خلالها مع هذا الموقف ، والعناصر التى شكلته ، والمعالم التى حددت مسالكه ، فيقف عند الجزئيات والتفاصيل التى تداخلت فى البناء الفني للشعر من خلال الروافد العديدة التى انبعثت عن هذا التيار .

أما الصورة التفصيلية لهذا المنهج فتضمنت خمسة فصول ومقدمة وخاتمة وثبتا بأسماء المصادر والمراجع وفهرست محتويات البحث .

تناول الفصل الأول منها الخلفية السياسية لشعر شوقى الاسلامي ، وتتمثل فى نشأة التيار الديني وتغلغله فى الحياة العامة ، ونشأة الجامعة الاسلامية وما تفرع منها من الدعوة إلى مناصرة الخلافة . وما قيام هذه الجامعة الاسلامية إلا صدى للدعوات الاصلاحية ، والتصدى للاستعمار . أما التيار الاسلامى فى قصائد الخلافة عنده فما هو إلا مجموعة قضايا متشابكة ظفرت بأهمية كبيرة فى هذه المرحلة التى عاشها شوقى . فمنها إعلان الدستور العثمانى ، وإعلان خلع السلطان عبدالحميد . ومن ثم موجات التجديد التى غمرت الشرق وكانت تحمل بين طياتها التهوين من شأن الروابط الدينية ورمى المسلمين بالتعصب . مما حدا بشوقى وأمثاله من الشعراء إلى التعبير على ضرورة المحافظة على تلك الروابط المقدسة بين مصر والخلافة . ثم يتعرض شوقى بعد اتساع نظرته الاجتماعية التى شملت العالم الاسلامى بأسره لبعض العيوب الاجتماعية التى كان يعانى منها المجتمع الاسلامى . ويقدم نصحه للمسلمين والأمة جمعاء ضارباً لهم المثل الأعلى بأسلافهم .

أما الفصل الثانى فيتركز حول دراسة أثر النزعة الاسلامية فى موضوعات شعر شوقى المختلفة ، ومدى ظهور النزعة الاسلامية فى موضوعات لا تتصل بالاسلام مباشرة مثل قصائده الفرعونية ، وكيف

اتسم شعره بهذا الجلال القرآني والديني ، وهذا يوضح مدى اهتمام شوقي بتاريخ مصر .

وقد استطاع شوقي المزاوجة بين القديم والحديث باضفاء الصبغة الاسلامية على الديانات القديمة وإبراز حقيقة التوحيد التي نادت بها الديانات منذ القدم . كما غلبت هذه النزعة على شعره المسرحي أيضاً ، مما يؤكد حقيقة فنية وموضوعية وهي حرص شوقي على صبغ معانيه وموضوعاته بالصبغة الاسلامية .

أما الفصل الثالث فهو دراسة للمحاور الأساسية للشعر الاسلامي عند شوقي ، تلك المحاور التي غلبت على معظم شعره وتتمثل في العبادات والشعائر ، كما تتمثل في المدائح النبوية وشعر المناسبات الدينية . ويرى شوقي أن يتخذ من هذه العبادات والمناسبات وأفكار العقيدة محوراً للحوار والجدل للدخول الى أمور أخرى .

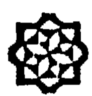
أما الفصل الرابع فيتركز حول الموروث الديني والتاريخي والأدبي في شعر شوقي ، وقد أدرك هو وغيره من الشعراء أن شعرنا العربي لن يستطيع أن يثبت وجوده ويحقق أصالته ، إلا إذا وقف على أرض صلبة من صلته بتراثه وارتباطه بماضيه . فالتراث الديني كان ولايزال في كل العصور ولدى كل الأمم مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الشعري وقد استمد منه شوقي نماذجه وصوره . وأهم مصادر هذا التراث الديني القرآن الكريم الذي عكف عليه شعراء الاحياء واستمدوا منه مادتهم الشعرية وعبروا من خلالها عن جوانب من تجاربهم . ويضاف الى ذلك شخصيات الأنبياء وما مروا به من تجارب استطاع الشعراء ربط تجاربهم الشخصية بها من هذا المنظور . واتخاذ الشخصيات الأخرى المنبوذة مثالا لقوى الشر التي تغزو البشرية . أما الموروث التاريخي فقد عمد شوقي الى الاقتباس من التاريخ بماضيه وحاضره ، وهذا يكشف عن ثقافة تاريخية واسعة وعن إدراك ووعي بالعمق التاريخي للأمة العربية والاسلامية والأمم التي سبقتهما . وقد ترك التاريخ أثراً في حياته فقام بعملية مزاوجة بين الماضي والحاضر ، واتخاذ النماذج التاريخية من

صور الأبطال وغيرهم ومقارنتها بممدوحية من آل عثمان . وهكذا نرى شعر شوقي التاريخي مليئاً بالأسماء : أحداثاً ، وأشخاصاً ، وأشياء ، وأضفى عليه صوره وأدواته الفنية ليستوعب الظاهرة الشعرية عنده وليضفي عليها مسحة من القداسة الاسلامية . أما الموروث الأدبي فقد عمد فيه شوقي الى رفد شاعريته بشعر التراث ، فما هو إلا مزاوجة بين القديم والحديث . ومن الطبيعي أن تكون شخصيات الشعراء ، من بين الشخصيات الأدبية ، هي الأقرب الى نفس الشاعر ووجدانه ، يتأثر بها ، ويستقي منها . فقد عارض شوقي الشعراء القدامى وقلد بعضهم ، حتى أصبح شعر المعارضات يشكل قسماً كبيراً من ديوانه . والى جانب استلهام شوقي من الشعراء ، فله جولات في تاريخ الأدب العربي اتصل خلالها بأمهات الكتب واستلهم منها مادته مثل كتاب الأغاني وغيره ، فهيأ له ذلك الاتصال بمصادر التاريخ الأدبي ، والقدرة على رسم جو متكامل من الحياة العربية والجاهلية والاسلامية والأموية بجوانبها الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية والحربية . وقد استلهم شوقي بعض مادته التعبيرية من الحكمة كجانب من جوانب الموروث الأدبي ، والحكمة شكلت الجزء الأكبر من ديوانه لما لها من أهمية .

أما الفصل الخامس والأخير فيتناول دراسة أثر الثقافة القرآنية والدينية في شعر شوقي دراسة فنية . وأول ما يلفت النظر استلهام شوقي معاني الآيات القرآنية والقصص الديني واستخدامها في جميع دوائر شعره في المدح والهجاء والرثاء ، وحتى في حكايات الحيوان . فهو يستمد معانيه وألفاظه من آيات القرآن الكريم . ومن القصص الديني يستمد مادة تعينه على الأداء التصويري فنجد إشارات سريعة أحياناً ، ومفصلة أحياناً أخرى ، كقصص الأمم الغابرة التي عصت أنبياءها فصب الله عليها عذابه : وقصة نوح مع قومه ، وعاد وثمود ، وقصص بني اسرائيل وأمثالها . ويتخذ من هذه الأمثال عبراً مواعظ لعصره الحاضر . أما الصور الدينية عند شوقي فيمكن أن نردها الى

الموروث الثقافى والنزوع نحو القديم ، وهذا النزوع نحو القديم يعد موقفاً حضارياً عاماً يشمل جميع مجالات الحياة ، إذ يعتبر نوعاً من التحدى أمام المد الاستعمارى ، الذى لم يكن غزواً عسكرياً فحسب وانما كان غزواً حضارياً وفكرياً . وقد أوجدت حساسيات الفترة وظروفها إزاء هذا الغزو مناخاً من نوع خاص ، جعل الردة الى الموروث القديم فى أعصر نقاوته دليل صحة ثقافية ونفسية وملاذاً يحمى الشخصية ويمسكها . وهذه الصور الدينية استقطاب كامل للتجربة العربية ، وتحقيق للذات القومية عند شوقى .

أما المعجم الدينى عنده فنتناوله من منظور لغوى ، أبعاده وخصائصه . وبقدر ما يبرع الشاعر فى تعامله مع الكلمات يكون حظه من الفن والشاعرية ،ويحكم له أو عليه على هذا الأساس ، ومن هنا تأتى أهمية المعجم الشعرى لديه .



وبعد .. فأنا أدرك اتساع الموضوع وتشعبه ، وأدرك أيضاً كثرة مصادره ومراجعه ، ولكن كثرة المصادر والمراجع التى تقف وراء موضوع من الموضوعات ــ كقلتها ــ تشكل مشكلة فى دراسته . فكثرتها تثير من حوله زحاماً فى الآراء على الباحث أن ينفذ من خلاله إلى رأيه الشخصى ، وقلتها تضعه فى شبه فراغ عليه أن يملأه من خلال رؤيته الشخصية ، وأمامى فى هذا الموقف أستاذتى الجليلة الدكتورة سهير القلماوى مثلا أعلى أتمثله ، ورائدة خبيرة سلكت الطريق من قبلى ، تمدنى بتوجيهاتها وتمنحنى خلاصة تجربتها العلمية الواسعة العميقة ، فلها منى أصدق عبارات الشكر ، وأعمق معانى التقدير ، وأطيب آيات الدعاء ، والله يجزيها عنى وعن العلم كفاء ما قدمته لى وله .

كما أسجل تقديرى وشكرى وأطيب آيات دعائى لأستاذى الفاضلين الدكتور محمود مكى والدكتور إبراهيم عبدالرحمن لتفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث وإبداء ملاحظاتهما السديدة ، فجزاهم الله خير جزاء .

والله الموفق

سعاد عبدالوهاب



الفصل الأول

الخلفية السياسية لشعر شوقى الاسلامى

- التيار الدينى والحياة العامة
- الجامعة الاسلامية
- التيار الإسلامى فى قصائد الخلافة
- شوقى والمجتمع الاسلامى

التيار الديني والحياة العامة

لا نؤرخ فى هذا الفصل للخلافة العثمانية ، ولا نتتبع أصولها البعيدة ، فقد أفاضت كتب التاريخ فى ذلك افاضة واسعة ، ولكن نريد هنا أن نقف بالخلافة فى سنواتها الأخيرة التى اشتدت فيها جهود الغرب للنيل منها ، ثم القضاء عليها ، وأن نعرف ما كان من أمر العرب معها ، وعلاقتهم بها ، لنستطيع أن نبين ما انعكس من كل هذا على شعر شوقي ، ولابد من الاشارة الى أن الخلافة الاسلامية كانت تنحصر فى العرب حتى أيام المتوكل على الله ـــ آخر خليفة عباسي [١] ـــ الذى تنازل ـــ كما قيل ـــ عن حقه فى الخلافة الى السلطان سليم الثانى . وقيل أيضاً ان مراداً الأول تسمى بعد فتح (أدرنة) .

ومعنى هذا أن لقب الخلافة لم ينحصر منذ آنئذ فى جنس العرب كما كنا نعهد من قبل [٢] (ولم يعد يتطلب الانحدار من آل العباس ولا الادعاء بالانتساب لقريش ، إذ أصبح العاهل المسلم الآن يستمد سلطته مباشرة من الله فهو وكيله وليس خلفاً مجرداً للنبى) .

ولا شك أن ذلك التطور فى أمر الخلافة صار يحسب له حسابه ، ومنذ ذلك الحين اهتم السلاطين العثمانيون باتخاذ الألقاب الفخمة التى لم نعهدها من قبل . فقد صار الخليفة العثمانى [٣] (ملجأ السلطة الذى ضاعف سلطنته ، وزاد من سنى حياته وخلافته الى يوم الدين ... وصاحب الجلالة ... وكرسى السلطنة وفخر سلاطين العالم الجالس على عرش الخلافة) .

وبقى الأمر على هذا النحو الى أواخر القرن التاسع عشر حين اهتز مركزها بسبب الفوضى الداخلية التى عمت الامبراطورية من أقصاها الى أدناها ، فلم يستطع خلفاء بنى عثمان أن يسيطروا على تلك الحدود الواسعة لامبراطوريتهم العظيمة ، لا بسبب تعدد الأجناس التى تكونت منها دولتهم الواسعة فحسب ، وإنما بسبب السياسة العقيمة التى استخدمها السلاطين ضد شعوب الامبراطورية كلها ، وما بدا من تعصبهم لجنسهم

(١) كارل بروكلمان ـــ تاريخ الشعوب الاسلامية ـــ ٣ / ٩٣ .
(٢) آرنولد توينبى ـــ الخلافة ـــ ص ٩٩ .
(٣) آرنولد توينبى ـــ الخلافة ـــ ص ١٠٠

التركى ، وإهمالهم للأجناس الأخرى التى تشكل جزءاً كبيراً من امبراطوريتهم ، فى وقت بدأ الشعور القومى فى أوربا يتحرك بسبب الوعى الذى خلفته الثورة الصناعية ثم الثورة الفكرية بعد ذلك .

ولقد كان من الممكن أن يعجل ذلك الأسلوب العقيم الذى عومل به العرب من قبل العثمانيين بنهاية العلاقة الوطيدة التى كانت تربط بين الجنسين المختلفين ، لولا ما كان يدور فى أذهان العرب من أفكار دينية مخلصة هى التى أبقت على العلاقة بين العرب والأتراك فى وقت بدا فيه أن أوربا المسيحية تحاول من جديد إثارة الحروب الصليبية التى نالوا فيها أعظم الهزائم على عهد القائد العظيم صلاح الدين .

ولاشك أن هذا سبب هام دفع العرب الى التضامن مع إخوانهم فى الدين للدفاع عن الاسلام الذى تتهدده الصليبية . ولذلك فان (التعليل الصحيح لخضوع العرب لحكم الأتراك ماثل فى الفكرة الدينية ، فقد سرى فى ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن فى تأييد السلطان .. تأييد للاسلام وهو خادمه وناصره ، وإعلاء لشأن الشريعة .. وهو حاميها ومؤيدها وجمعاً للكلمة وهو مما يأمر به الدين ويحض عليه فالتفوا حوله وساروا تحت علمه ، وبايعوه سيداً وإماماً) [١] .

ومن هنا كان الدين وحده عاملا قوياً يشد العرب الى الأتراك . والحق أن الأتراك أنفسهم كانوا شديدى الذكاء فى هذه الناحية ، فقد استغلوا هذا العامل أحسن استغلال ، كان عبدالحميد مثلا (يضفى على حياته الخاصة مظهراً من الزهد والتقشف وأخذ نفسه أخذاً شديداً بمزاولة الشعائر الدينية ، والتظاهر بأدائها يدل على حكمته ودهائه .. وأحاط نفسه بالفقهاء ورجال العلم والدين ، واستخدمهم لتوزيع الصدقات والوعظ والدعوة له . وأسس معهداً لتدريب الوعاظ) [٢]

ومن أسباب اللجوء الى العلماء الجهل بالدين وغياب اللغة العربية عنهم مما جعلهم يحسون الحاجة الى الارشاد إحساساً صادقاً الى جانب البصر بفوائد ذلك ووقعه على المسلمين ..

ومن هنا فقد صار السلطان العثمانى ، فى نظر الكثيرين ، مثلا للمسلمين وداعياً

---

(١) أمين سعيد ــ الثورة العرابية الكبرى ــ ص ١ .
(٢) جورج أنطونيوس ــ يقظة العالم العربى ــ ص ١٣٨

للاسلام ، وصار تأييده فى نظرهم واجباً يفرضه الدين ، وصار الالتفاف حول راية الخلافة أمراً ضرورياً تستوجبه طاعة الخليفة .

ومن هنا وقف العرب يؤيدون الدعوة الى الجامعة الاسلامية التى دعا إليها السلطان عبدالحميد ، فأيدها كبار المفكرين المسلمين أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهم .

وقد ساعدت على ظهورها الحملات المسعورة لأوربا الاستعمارية التى شنت حرباً شعواء على الاسلام بغية النيل منه . ولذلك فان عبدالحميد ، رغم ظلمه وجبروته وارهابه ، خليفة المسلمين فى نظر العرب وحامى كيان الاسلام ، ومنقذ دولته من شر الصليبيين .

كذلك أحسن العثمانيون استغلال هذا العامل حتى تقربوا من الناس على أنهم حماة الاسلام ، والواقع أن عبدالحميد كان من أذكى السلاطين العثمانيين فى استغلال شعار الجامعة الاسلامية وقد كان ، كما يقال ، يعرف أين يلقى شباكه . فإن استغلاله للقائمين على أمور الدين كان كافياً لأن يخضع له بقية المسلمين الذين كان الدين هو كل شىء فى حياتهم ، بل كانت طاعة السلطان فى نظرهم هى طاعة للاسلام نفسه .

وكانت كل كلمة تخرج من أفواه العلماء ورجال الدين كافية لأن توطد الأمن والاستقرار فى البلاد ، أو تدعو للالتفاف حول الخليفة . ومن هنا (بذل عبدالحميد جهوداً لاستمالتهم ــ العرب ــ فأغرق على معاهد التعليم العربية فيض عطاياه ، وأسبغ على زعماء العرب وكبرائهم مظاهر التكريم وحياهم بالمناصب ، وأنفق أموالا طائلة على إصلاح مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس وزخرفها ، وهى أماكن العبادة الرئيسية للمسلمين ، وجميعها فى حوزة العرب ، واختار جماعة من الجنود العرب وألف منهم فرقة كاملة من فرق حرسه الخاص ، وولى بعض العرب مناصب فى القصر ، وعهد إليهم بالاشراف على كبار موظفيه) [1] .

وفى كثير من الأحيان استغل هؤلاء السلاطين سذاجة التفكير الدينى (فشجعوا التكايا التى كان يلجأ إليها الدراويش لتأدية طقوسهم الدينية) [2] ، وهى لا تمثل الدين

---

(١) جورج أنطونيوس ــ يقظة العالم العربى ــ ص ١٣٩ .
(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ــ ص ١٣٢ .

فى شىء . ولذلك لم يكن فى صالح العثمانيين أن تقوم حركة الوهابيين التى دعت الى تطهير الاسلام مما علق به من شوائب ، لأن نجاح هذه الدعوة التى تدعو الى الرجوع الى صفاء الدين لايتيح لهؤلاء السلاطين استغلال الناس باسم الدين . ولم يحسن السلطان استغلال شىء كما أحسن استغلال موضوع (الجهاد) . فقد وقف السلطان العثمانى يعلن (بصفته خليفة للمسلمين وإمامهم الأعلى أن تركيا ـــ وهى أكبر دولة اسلامية ـــ وفيها مقر الخلافة تحارب دولا مسيحية تريد إخراجها ، وأن الأماكن المقدسة باتت فى خطر وأن واجب جميع المؤمنين .. يدعوهم الى الالتفاف حول راية الدين) (١) .

ومن هنا تظهر (بوضوح تام ، النزعة الدينية الشديدة التى كانت تلازم أعمال الدولة العثمانية وفتوحاتها ، كما تعطى فكرة صريحة عن مبلغ اهتمام سلاطينها بإذاعة أخبار انتصاراتهم على الكفار وفتوحاتهم فى بلاد الكفر . ولا شك أن ذلك يكسبها مكانة معنوية رفيعة ، ساعد على استيلاء العثمانيين على البلاد العربية وعلى دوام حكمهم لهذه البلاد مدة طويلة دون تعب كبير) (٢) .

وهى لا شك دعوة يسوقها المنطق ، وتقتضيها الظروف العصيبة التى يتعرض فيها الاسلام الى خطر الصليبية ، خاصة أن المسلمين لم ينسوا حتى آنئذ الحروب الصليبية التى لقن فيها صلاح الدين دروساً قاسية للصليبين ، فاذا كانت هذه هى الأساليب التى اتبعها العثمانيون من أجل الدعوة الى الجامعة الاسلامية وتأييد الخلافة ، فهى أسباب مقبولة فى الظاهر .

وليس هناك ما يدعو الى أن يرفض العرب تلك الدعوة ، وهم على ما هم عليه من إيمان بالاسلام ، وتقديس للدين والدعوة الاسلامية ، ولكن هل كان تأييد السلطان أو الوقوف بجانبه ، أو الجهادمعه من أجل شخص الخليفة أم من أجل دعوته التى كانت تتغلف بغلاف من الدين .

يقول (لوثرب) (فنال السلطان عبدالحميد ما ناله من التأييد ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل فى صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى) (٣) .

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العالم العربى ـــ ص ١٤٢ .
(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ـــ ص ٢١ .
(٣) لوثرب ـــ حاضر العالم الاسلامى ـــ ص ٢٦ .

فالمسلمون إذن كانت تراودهم أحلام الوحدة عن طريق هذه الجامعة التى يرون فيها ملاذهم الوحيد مما تستهدفهم به أوربا المسيحية ، بل كانوا يرون فى هذه الخلافة رمزاً لجمع الشمل وتوحيد القلوب والدفاع عن الدين وحفظ العقيدة ، وتحقيق سيادة الاسلام . وكانوا يعتقدون أن الدعوة أكثر أهمية فى هذا العصر من أى من العصور التى مرت على المسلمين .

يقول عبدالحميد سعيد : (فإذا كانت الخلافة الاسلامية فى الشرق الأول لازمة للاسلام والمسلمين ، فهى فى العصر الحاضر ألزم منها فى أى عصر مضى ، فإن حالة المسلمين الآن والتطورات الدولية تفرض علينا فرضاً أن نجمع شملنا ونوحد صفوفنا ونتعاون على ما فيه مجد الاسلام والبلاد الاسلامية . ولا يستطيع إنسان أن ينكر ما يجنيه الشرق الاسلامى من جمع الشمل وتوحيد الصفوف والتعاون تحت راية واحدة هى راية الخلافة الاسلامية . وقد تعلم أوربا تمام العلم أن فكرة الخلافة تهدد سياستها الاستعمارية وتقضى على أطماعها فى الأمم الاسلامية المستضعفة .. الذى يرعب أوربا حقاً أو يخيفها ، أن مقام الخلافة يؤدى الى اتحاد الأمم الاسلامية وتعاونها فى سبيل نهضتها . وهذه النهضة إذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت دونها مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية . ولا ريب أن روح الاسلام يحض على جمع الكلمة وعلى الاتحاد والتعاون والتشاور فى المصلحة العامة) (١)

ولا شك أن الخليفة العثمانى قد استطاع بأسلوب سياسته الذكية إقناع أمثال هؤلاء الدعاة بأن الجامعة الاسلامية وحدها هى الأمل الأول والأخير للمسلمين ، وهى ملاذهم من شرور المستعمرين المسيحيين ، حتى أن طغيان هذه العاطفة الدينية قد أنساهم فى كثير من الأحيان ماكانوا يلقون من عنف وإرهاب على أيدى السلطان العثمانى ، وأولهم عبدالحميد الذى اتسم حكمه بالظلم والاستبداد كما يروى المؤرخون .

بل إن كثيرين من العرب كانوا يشعرون بثقل وطأة هذا الحكم التركى ويرون فيه استبداداً وتحكما وظلماً وعسفاً ، ولكن مشاعرهم الدينية كانت تطغى على كل شىء .

وكل ما كان يعبر به هؤلاء العرب عن استيائهم ، كلمات من عتاب ، أو قصائد من شكوى الشعراء . وذلك ما سنجده ينعكس على شعر بعض الشعراء ومنهم (أحمد

---

(١) مجلة الهلال ــ ١٩٣٩ م ــ عدد خاص ــ ص ١٤ .

شوقى) . بل أننا وجدنا رواد هذه الفكرة يبكون على ماضاع من تلك الخلافة على أيدى الكماليين ، ويحنون الى عهدها الحميدى رغم ما كان يسوده من عنف وعسف .

ولم تكن تلك المشاعر الدينية تقتصر على الأفراد ، فقد وجدنا الجماعات أو الأحزاب هى الأخرى تدعم تلك الدعوة وتدعو الى التمسك بالخلافة العثمانية والجامعة الاسلامية .

وها هى إحدى الجمعيات القومية التى كان من أول أهدافها الدعوة إلى العروبة ، تدعو إلى التمسك بأهداف الخلافة العثمانية ، فقد ورد فى مادة من مواد برنامج جمعية العهد العربية ، أن الجمعية (ترى ضرورة بقاء الخلافة العثمانية وديعة مقدسة بأيدى آل عثمان) [1] . ولكن الجمعيات الأخرى دعت إلى الانفصال عن العثمانيين .

من ذلك كله يتبين أن علاقة العرب بالخلافة العثمانية ، لم تكن علاقة سلبية تضر بمركز الخليفة ، بل كانت علاقة إيجابية إلى حد بعيد ، وإن لم تؤثر فيها أساليب العثمانيين أنفسهم فى الضغط على العرب وإساءة معاملتهم .

لذلك وقف كثير من المفكرين وأولهم الشعراء يندبون نهاية الخلافة على أيدى الكماليين . وبقيت أصداؤها تتردد فى قصائدهم ، بل صار لها فى نفوسهم ذكريات عميقة لم تمحها الأيام والسنوات ولم تؤثر فيها التقلبات والأحداث .

ثم اتخذ الشعر فى الحديث عن الخلافة معانى كثيرة تقصد كلها الى الدعوة لدعم الاسلام والدفاع عنه ، باعتبار أن هذه الخلافة تجمع المسلمين حول راية الاسلام ، وباعتبار أن الخليفة رمز للاسلام وممثل لاتباعه .

والحديث عن الخلافة لايتعدى موضوع الخليفة إلا فى أنه يتجه إلى النظام ويتحدث عنه فيؤيده ويكون إلى جانبه ، ويقف من ورائه كل المسلمين ، يدعمونه باعتباره نظام الحكم الذى يقوم باسم الاسلام . وقد وقف معظم الشعراء الذين تحدثوا عن الخلافة يدعمونها باعتبارها أداة الحكم فى السلطتين الدينية والسياسية . ولم يقف الشعراء ضدها كنظام ، وإنما وقف بعضهم ضد من تولوا أمرها بعد أن رأوا الاساءة توجه عن طريقهم إلى العرب أو الى الاسلام نفسه .

لذلك فإن الخلافة على عهد السلطان عبدالحميد والسلطان محمد رشاد لم يكن فيها

---

(١) أمين سعيد : الثورة العرابية الكبرى ــ أوائل قيام الدعوة إلى القومية العربية

أى بأس مادامت تمثل فى رأيهم الاسلام ومادامت ترعى مصالح المسلمين ، وتدفاع عن بلادهم . ونستطيع أن نقول أن السمة البارزة فى السياسة والأدب هى الجنوح إلى موالات الخلافة العثمانية .

وشاعرنا (أحمد شوقى) شاعر من الشعراء الذين عرفوا البواعث الاسلامية والتركية فى شعرهم ، وليس من شك فى أن شوقى كان أكثر شعراء مصر تمجيداً للترك وإشادة بالخلافة ، وولاء للخليفة ، ولطالما مجد الترك إذ انتصروا ونوه ببطولتهم ، وضفر أكاليل الغار على هامات قادتهم ، وطالما رجع على الوتر الحزين إذا انزموا ، وبكى الأقاليم والمدن المقتطعة من الخلافة . وكثيراً ما حض على مؤزارتهم فى محنتهم ، كما حث على المسارعة إلى نجدتهم فى نكباتهم .

والواقع أن دفاع الشعراء فى مطلع هذا القرن عن نظام الخلافة ليس إلا استمراراً لما كانت عليه الحال فى القرن التاسع عشر كله . خاصة أن المسلمين لم ينسوا حتى آنئذ جراحات الحروب الصليبية التى شن فيها الغرب حرباً شعواء على الاسلام . فلم يكن أمام الشعراء إلا اللجوء إلى الخليفة العثمانى الذى استطاع أن يثأر هو الآخر من الصليبيين كما ثأر من قبله صلاح الدين . لذلك صارت الخلافة مقدسة فى نظرهم .

وشوقى كما أسلفنا كغيره من الشعراء الذين يرون أن المحافظة على الدولة العثمانية أمر هام بعد الايمان بالله والرسول (ص) ، فإنها وحدها (أى الدولة العثمانية) الحافظة لسلطان الدين . وأن الخلافة عز للاسلام وقوتها قوة للمسلمين . وشوقى قبل كل شيء مسلم معتز بالاسلام ، متعلق بأسباب قوته . وهو يجد هذه الخلافة رمزاً للدين وعلماً لجلاله . وأن ممثلى العالم الاسلامى فى ذلك الحين هم الترك الخلفاء على المسلمين منذ بضعة قرون ، وعاصمتهم رمز للرابطة الدينية الروحية ، لذلك تجب مناصرتهم . ولقد كانت الدولة الوحيدة فى كل أوربا التى لاتدين بشكل من أشكال المسيحية ، فالخطر يحيط بها من كل جانب . وما عاطفة شوقى التركية إلا صدى لعاطفته الدينية الاسلامية لأنه يناصر الترك حفاظاً على الاسلام وعلى المسلمين ، وعلى البلاد العربية والاسلامية .

وكانت الأحداث السياسية ، ومطامع الدول الأوربية فى العالم العربى والاسلامى تضطر شوقى إلى أن يربط بين الاسلام وتركيا هذا الربط . ولم يكن ليستطيع أن ينحاز عن الخلافة الاسلامية ، أو عن تركياوهو يعلم أنها الجامعة الاسلامية ، ويرى هو وغيره من الساسة والأدباء أن الدول الغربية تتلهف على تمزيقها واحتلال ولايتها .

وليس أدل على أن العاطفة الاسلامية كانت أوثق الأواصر التى تصل شوقى بالخلافة العثمانية من أنه ابتغى من مدحه السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٥ ثواباً من الله وزلفى إليه ، لا طمعاً فى عطايا السلطان وهباته :

وماذلت (حسان) المقام ولم تزل — تليني وتسرى منك لى النفحات (١)
زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى — جوائز عند الله مبتغيات
ومن كان مثلى أحمد الوقت لم تجز — عليه ولو من مثلك الصدقات

وقوله :

فلازلت كهف الدين والهادى الذى — الى الله بالزلفى له نتقرب (٢)

وقوله فى قصيدة أخرى أنه يدافع عن الخلافة حبا لله ولدينه وأنه سيقضى حياته كلها ذائدا عن الخلافة :

عهد الخلافة فى أول ذائد — عن حوضها بيراعه نضاح (٣)
حب لذات الله كان ولم يزل — وهو لذات الحق والاصلاح

وقد عبر شوقى عن حبه ومؤازرته للسلطان العثمانى نفسه ، باعتباره ممثلا للمسلمين ، وخليفة رسول العالمين ، وذلك مرضاة لله وطلباً للثواب :

يا واحد الإسلام غير مدافع — أنا فى زمانك واحد الأشعار (٤)
أخلصت حبى فى الامام ديانة — وجعلته حتى الممات شعارى
لم ألتمس عرض الحياة وإنما — أقرضته فى الله والمختار

ولما عزل السلطان محمد وحيد الدين عام ١٩٢١ ونقل مصطفى كمال مقر الحكم إلى أنقره تطلع شوقى إليه ليعز الخلافة والاسلام :

يا دولة الخلق التى تاهت على — ركن السماء بركتها المسموك (٥)
بينى وبينك ملة وكتابها — والشرق ينمينى كما ينميك

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٢
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٧
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠٨
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٩
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٨

قد ظنني اللاحي نطقت عن الهوى ... وركبت متن الجهل إذ أطريك
لم ينقذ الاسلام أو يرفع له ... رأساً سوى النفر الأولى رفعوك

نلاحظ فى عبارة (نطقت عن الهوى) ظلالا قرآنية استمدها شوقى من القرآن الكريم من قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) [١]

والذى يبرز لنا أيضاً عاطفة شوقى تجاه الخديوى الذى يتصل بتركيا اتصال نسب ودم وسياسة ، وشوقى هو شاعر القصر ، فلا عجب أن يهفو إلي ما يهفو إليه القصر .

(يعلل د . هيكل ذلك فى مقدمة ديوان شوقى بأنه من تعصب شوقى لجنسه ولصلته ببيت الامارة بمصر) [٢] ولكن الذى يتتبع اللون الدينى فى شعر شوقى بصفة عامة يرى أنه قد رزق الى جانب شاعريته الفذة شفافية دينية حساسة وإن لم يتخل عن التعصب للترك .

(وقد تبين فى حبه لمصر أنه كان كلفا بها بها أيما كلف ، وفى « فخره بمصر» أنه كان يجلجل بعظمتها وبنسبته إليها [٣] ، لم يكن فى زمان شوقى فصل حاد بين الأصول ترك وعرب . كل ما فى الأمر أن عرب الشام ثاروا بسوء الحكم لكثرة الحروب واتخذوا من تعصب الترك لتركيتهم سبيلا إلى التعصب لعروبتهم ، ولكن ذلك جاء أواخر القرن عندما دوت صيحة العرب ، فليس من المعقول أن تغلبه على وطنيته صلة قديمة بعيدة بالترك ، هذا الى فخاره الكثير بالعرب والعروبة .



(١) قرآن كريم ــ سورة النجم ــ آية (٣) .
(٢) مقدمة ديوان شوقى د . هيكل ١ / ١٤ .
(٣) أحمد الحوفى ــ وطنية شوقى ــ ص ١٨٠ .

الجامعة الاسلامية :

كانت النزعة الاسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية فى مصر الى أوائل القرن العشرين — ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركى . وحين ثار عرابى على فساد الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبى لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه ، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمدا منه السلطة فى كل مايفعل (١)

ويذكر (مستر بلانت) فى مقدمة برنامج الحزب الوطنى الاعتراف بسلطة الباب العالى وبأن (جلالة السلطان عبدالحميد مولاهم وخليفة الله فى أرضه وامام المسلمين) (٢) ، وقرار الجمعية العمومية الذى صدر بتأييد عرابى عندما عزل الخديوى توفيق يختم بالاعتراف بالولاء للسلطان ، اذ ينص على وجوب (عرض القرار على الأعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات) (٣) .

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة بلون دينى يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبى فى العصور الوسطى — وقد ساعد على تجمع الشعوب الاسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوربية فى هذه الشعوب جميعاً ،فكانت روسيا لا تنقطع عن اثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين (٤) وكانت العرائض تنهال على الملكة فيكتوريا طالبة انقاذ المسيحين من مذابح المسلمين (٥)

وحين تضطر تركيا الى محاربة روسيا تنهال عليها الامدادات بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الاسلامية ، وينبث الدعاة فى كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الاسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين .

ويغذى هذه الفتنة الدينية ما يتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة فى البلقان ، التى لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم (٦)

---

(١) مذكرات عرابى — ١ — ص ٧١ : ٢٢٢ .
(٢) المرجع السابق — ص ١١٧ .
(٣) الثورة العرابية — ص ٣٩٠ .
(٤) تاريخ الدولة العلية — ص ٣٤١ .
(٥) عبدالحميد ظل الله على الأرض — ص ٧٤ .
(٦) عبدالحميد ظل الله على الأرض — ص ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ — والدولة العلية — ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

ويجيب السلطان عبدالحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها فى اخماد ثورة الأرض سنة ١٨٩٤ [١] ، ويكتشف السلطان عبدالحميد فى مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التى يستطيع بواسطتها أن يحفظ الامبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانفراط وذلك بالاتجاه الى تقوية فكرة الجامعة الاسلامية ونشر شعاره المعروف (يا مسلمى العالم اتحدوا) .

كل هذه الأحداث ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية وتغذية الاحساس بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام شبح الاستعمار الغربى المتربص بها ، فيدعوها الى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والمتأمل لأدب هذه الفترة فى مصر ، شعراً ونثراً يجد ذلك واضحاً كل الوضوح فجريدة العروة الوثقى مثلا تكتب فى سنة ١٨٨٤ مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين .

ونستطيع وبشكل محدد أن نتتبع النزعة الاسلامية فى الشعر فى تلك الفترة فنجدها واضحة كل الوضوح . وليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك ، على اختلافهم وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر فى مدح الخليفة التركى ، والاشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على اعلاء كلمة الدين . وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره فى حروب تركيا وأحداثها الجسام ، مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان ، ومثل اعلان الدستور العثمانى وسقوط عبدالحميد . وهم يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين وانه حين يحارب فهو انما يحارب دفاعاً عن الاسلام وتمسكاً باعلاء كلمته بين الدول التى تتربص به . وهم يدعون الى اتحاد كلمة المسلمين تحت ظل راية الخلافة محذرين من الاصغاء الى دعوة التفرقة التى لا تصيب الأمم الاسلامية جميعاً الا بالشر .

يقول شوقى :

رضى المسلمون والاسلام ... فرع عثمان . دم فداك الدوام [٢]
كيف نحصى على علاك ثناء ؟ ... لك منك الثناء والاكرام

---

(١) عبدالحميد ظل الله على الأرض ـــ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٢) ديوان شوقى ـــ جـ ١ ـــ ص ٣٤٠،٣٣٩ .

هل كلام العباد فى الشمس الا ... أنها الشمس ليس فيها كلام ؟
ايه عبد الحميد جل زمان ... أنت فيه خليفة وامام

وشوقى من الشعراء الذين علقوا آمالا جساماً على تركيا فى تلك الفترة . فهو من الذين أعلنوا ولاءهم لخليفة المسلمين فى شتى المناسبات ، شاكين اليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لانقاذهم . بل انهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذى نيطت بعنقه رعاية شؤونهم وحماية دولهم ، يعاتبونه — ان تخلف عنه يقول :

عالى الباب هز بابك منا ... فسعينا وفى النفوس مرام [1]
وتجليت ، فاستلمنا ، كما للنبر ... ـاس بالركن ذى الجلال استلام
نستميح الامام نصراً لمصر ... مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر — وانت بالحب أدرى — ... بك — يا حامى الحمى — استعصام
يشهد الله للنفوس بهذا ... وكفانا أن يشهد العلام

ويقول فى ختام قصيدته الطويلة فى الوقائع العثمانية اليونانية :

وانى لطير النيل لا طير غيره ... وما النيل الا من رياضك يحسب
فلا زلت كهف الدين والهادى الذى ... الى الله بالزلفى له نتقرب [2]

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب اليه كثرة المصريين من أن الدول الأوربية حين تتذرع بالدين فى طلب حماية الأقليات المسيحية فى البلقان ، فتثير فيها الفتن التى لاتنقطع ، انما تفعل ذلك طمعاً فى اقتسام الامبراطورية العثمانية ، فهم يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين .

يقول شوقى من قصيدة له فى الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م :

هب النسيم على مقدونيا برداً ... من بعد ما عصفت جمراً سواقيها [3]
تغلى بساكنها ضغناً وناثرة ... على الصدور اذا ثارت دواعيها
عاشت عصائب فيها كالذئاب عدت ... على الأقاطيع لما نام راعيها
خلا لها من رسوم الحكم دارسها ... وغرها من طلول الملك باليها

---

(١) زديوان شوقى — جـ ١ — ص ٢٤٣ —
(٢) ديوان شوقى — جـ ١ — ص ٦٨
(٢) ديوان شوقى — جـ ١ — ص ٢٨٩ .

فسامر الشر فى الأجيال رائحها ... وصبح السهل بالعدوان غاديها
مظلومة فى جواد الخوف ، ظالمة ... والنفس مؤذية من راح يؤذيها

ويقول شوقى من قصيدة (ضج الحجيج) التى رفعها الى السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكياً فيها اضطراب الأمن فى ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة ، مما أدى الى تهديد الحجاج ، طالباً اليه عدم التهاون فى تأديب الثائرين :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها فى مكة الأمم (١)
قد مسها فى حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله ، أنت السيد الحكم
لك الربوع التى ربع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العلم

وكان الشعراء يثورون على كل ما يمس شعباً اسلامياً حيثما كان ، ويرتفع صوتهم فى كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

وينتصر الترك فى حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقى بملحمته الحماسية الرائعة التى تفيض قوة ، والتى جاوزت مائتين وخمسين بيتاً .

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان تضرب (٢)

يشيد الشاعر فيها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الاسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رؤوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلا :

رفعنا الى نجم الرؤوس بنصركم ... وكنا بحكم الحادثات نصوب (٣)
ومن كان منسوباً الى دولة القنا ... فليس الى شىء سوى العز ينسب

وقد ردت هذه الحرب الى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون ــ تحت تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم ــ أنها قد صارت الى حال من الضعف والانحلال ، لاتستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد غالى بعضهم بعد هذا النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدويخ أية دولة أوربية .(٤)

ويعلن السلطان عبد الحميد الدستور ، الذى سوى بين الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ ، فيرتفع صوت شوقى بقصيدته :

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٦٣ : ٢٦٦ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٧٥ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٠ .
(٤) تاريخ الاستاذ الامام ــ ج ١ ــ ص ٩١١ ــ محمد رشيد ــ مصر ١٩٣١ م .

بشرى البرية قاصيها ودانيها   حاط الخلافة بالدستور حاميها[1]

وفيها يبين ما أفاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ، وما كان له من أثر فى اطفاء الفتن التى لم تنقطع . بعد أن سكنت اليه الشعوب العثمانية على اختلاف أديانها وأجناسها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها فى المجلس النيابى . ويختم قصيدته بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لا ينبغى أن يكون داعياً الى الخصام بل يدعو الى الله ، ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

ثم يلغى عبدالحميد الدستور الذى أصدره كارهاً ، بعد حملة صحفية شنعت على زعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم . ويلجأ زعماء الاتحاديين فى الجيش الى العنف ، فيتتحمون الأستانة ويحاصرون (يلدز) ، ويشتبكون مع رجال عبدالحميد فى معركة كبيرة تنتهى بالتسليم . ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عدداً كبيراً يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية — وكان الاتحاديون هم المسيطرين عليها — فتقرر عزل السلطان عبدالحميد وتولية السلطان محمد رشاد فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ . وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء فى مصر بين مشنق على عدبالحميد يرثى له فى بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التى انتهت به الى هذا المصير ، وشامت به يشنع بما لقى خصومه على يديه من نكال .

وللشاعر أحمد شوقى قصيدة مشهورة فى هذا المجال :

سل يلدزا ذات القصور   هل جاءها نبأ البدور[2]

وهو يرى فيها أن السلطان عبدالحميد فى موقفه أجدر بالرثاء ، لما آل اليه من ذل بعد عز ، فهو يعطف عليه فى محنته ، ويحله من نفسه محلا كبيراً بين شماتة الشامتين ، ولوم اللائمين :

شيخ الملوك وإن تضعضع   فى الفؤاد وفى الضمير[3]
نستغفر المولى له   والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه   أولى بباك أو عذير

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٥٨ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٣٦ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٣٨ .

ولكن ذلك لا يمنعه من أن يلوه « لتمسكه بالحكم الفردى ، ومحاربته نظام الشورى الذى :

هو حكمة الملك الرشيد وعصمة الملك الغرير

كما لا يمنعه من الاشادة بالثوار الذين هبوا ـ كما يقول ـ لنصرة الحق ، وعرضوا أنفسهم فى سبيله للهلاك :

يا أيها الجيش الذى لا يالدعى ولا الفخور [1]
يخفى فان ريع الحمى لفت البرية بالظهور

ويضطرب البلقان أواخر عام ١٩١٢ ، حين تقوم بلغاريا والعرب والجبل الأسود مطالبة باستقلالها الادارى عن تركيا ، مهاجمة أساليبها الادارية فى الحكم ، وتقوم اليونان مطالبة بجزر الارخبيل . وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ . فتنشأ اللجان والجمعيات فى مصر لجمع التبرعات وينعقد مؤتمر لندن أوائل ديسمبر للنظر فى المسألة البلقانية ، ويظل يوالى جلساته حتى ٢٣ يناير . وينتهى الى قرارات تقبلها الوزارة التركية القائمة وقتذاك ، أهمها التنازل عن أدرنة وعن جزر الأرخبيل . ويثور حزب الاتحاد على الوزارة فيسقطها ويستأنف القتال . وترد الأخبار الأولى الى مصر بانتصارهم ، فتقوم مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها ، ولكن هذا الفرح لايلبث أن يتحول سريعاً الى وجوم ، حين ترد الأنباء بتقهقر الجيوش وسقوط أدرنة بعد حصار دام خمسة شهور ، أبلت فيه حاميتها أروع بلاء . ويفزع المسلمون حين تتوالى الأنباء بتقدم جيوش البلقان ، وقد انفتح أمامهم الطريق الى الأستانة بعد سقوط أدرنة حتى أصبحوا على أبوابها . ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة في الانتقام من السكان .

عند ذلك يرتفع صوت الشعب بمواويل فى رثاء أدرنة والبكاء عليها مع ارتفاع صوت الشاعر شوقى بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت . يندب فيها مجد الاسلام الزائل ، وقد ذكره تقلص ظله عن شرق أوربا وقتذاك بضياع سلطانه فى غربها حين طرد العرب من الأندلس ولذلك سمى قصيدته (الأندلس الجديدة) :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام [2]

---

(١) نفس المرجع السابق

(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٣٠ : ٢٣١ .

نزل الهلال عن السماء فليتها ... طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه ... قدر يحط البدر وهو تمام
جرحان تمضى الأمتان عليهما ... هذا يسيل ، وذلك لا يلتام

ويخاطب شوقى فى هذه القصيدة دعاة الهزيمة من ساسة الترك ــ وهم من الاتحاديين ــ الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير فى أن تتخلى عنه وتكفى نفسها هذه المتاعب التى لا قبل لها بها . تلك هى سؤات القوم ، أو هذا بيت الداء ، التخاذل وهم المسئولون عن بلاد المسلمين ، والتفاخر بالماضى ، وهم لايعلمون طبيعة الزمن . وأقبح من هذا كله ، أن يزيف عليهم آراءهم فى سياسة الدولة ، وأن يسفه تعريف أمور الحرب والسلام .

يقول شوقى :

زعموك هما للخلافة ناصبا ... وهل الممالك راحة ومنام [1]
ويقول قوم : كنت أشأم مورد ... وأراك سائغة عليك زحام
ويراك داء الملك ناس جهالة ... بالملك منهم علة وسقام

ويريد شوقى إن يقول إن السلاطين العثمانيين أقل من أن يضطلعوا بميراث الأجداد لأنهم يفتقرون الى ما يقتضيه الملك من العزائم ، وأقبح من هذه الصفات أنهم يعتذرون عن الضعف وسقوط الهمة بمعاذير يأنف منها العقل ويندى لها الجبين ، فكل ذلك وهم ، زينة لهم التهافت والخذلان ، لأن فيه ضياع الخلافة وانفراط عقد المسلمين .

ويندد شوقى بالذين استغلوا الدين فى الانتقام من المسلمين الآمنين والتنكيل بالابرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكاً للدماء ، ولا كان داعياً لاباحة الحرمات ، وانما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاماً ، يقول :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... فى العالمين وعصمة وسلام [2]
ما كنت سفاك الدماء ولا امرءا ... هان الضعاف عليه والأيتام
انت الذى جعل العباد جميعهم ... رحماً وباسمك تقطع الأرحام
واليوم يهتف بالصليب عصائب ... هم للاله وروحه ظلام

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٣١ : ٢٣٢
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٣٤ .

خلطوا صليبك والخناجر والمدى ‏ ‏ كـل أداة لـلأذى وحـمـام

ثم يقدم صورا من الجرائم المنكرة التى دفع اليها التعصب الذميم الذى يبرأ منه كل دين فيقول :

كم مرضع فى حجر نعمته غدا ‏ ‏ وله على حد السيوف فطام [1]
وصبية هتكت خميلة طهرها ‏ ‏ وتناثرت من نورها الأكمام
وأخى ثمانين أستبيح وقاره ‏ ‏ لم يغن عنه الضعف والأعوام

ويحمل الشاعر الترك فى ختام القصيدة تبعة تفريطهم فى هذا الملك الذى أسسه أجدادهم فضيعوه بتفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور وبتفريطهم فى نشر العلم وإقامة العدل .

وترد الأنباء بعد هذه الكوارث المتلاحقة ، المثبطة للهمم ، والداعية الى اليأس بقدوم طيارين تركيين الى مصر سنة ١٩١٤ . قبيل الحرب العالمية الأولى وتسقط بهما طائرتهما فى الطريق ويموتان ، فيعاود المحاولة زميلان آخران يصلان سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ فى نفوسهم الأمل بصعود نجم الاسلام وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد مهنئين ومعزين ، يقول شوقى :

يا راكب الريح حى النيل والهرما ‏ ‏ وعظم السفح فى سيناء والحرما [2]
عاد الزمان فأعطى بعدما حرما ‏ ‏ وتاب فى اذن المحزون فابتسما
فيارعى الله وفدا بين أعيننا ‏ ‏ ويرحم الله ذاك الوفد ما رحما
هم أقسمو لتدنين السماء لهم ‏ ‏ واليوم قد صدقوا فى برهم قسما

كانت العاطفة الدينية اذن غالبة مسيطرة على المسلمين فى مصر خاصة ، وكان الدين والوطنية توأمين ملازمين ، كما قال مصطفى كامل فى خطبة له سنة ١٩٠٠ [3] وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الاسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين فى بعض تقاريره وفى كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر (مصر الحديثة) و (عباس الثانى) [4] . وتصويرهم فى صورة المتخلفين ، ومهاجمته للاسلام وتصويره ديناً رجعياً لايصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق . كما أعان على تقوية فكرة الجامعة

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٣٤ : ٢٣٥ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٦٧ .
(٣) مصطفى كامل — ص ١٢٢ .
(٤) Modern Egypt ٢ — ١٢٩ — ١٥٤ — عباس الثانى — ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩ .

الاسلامية مهاجمة الدول الأوربية للامبراطورية العثمانية باسم الدين حمية لدول البلقان المسيحية [1] . مما أثار شعور العطف على تركيا ودعا الى الالتفاف حول الخلافة ، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع الى مد يد المعونة لها فى كل حروبها ومحنها ، بالمال وبالرجال ، وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين .

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الاسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر . فمن بين هؤلاء الترك المستعربون أمثال الشاعر شوقى الذين تدفعهم الى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين الى الأصل ، والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين .

إذ يقول شوقى فى مقدمة ديوانه الأول : « أنا اذن عربى تركى يونانى جركسي » ، وهو الذى يقول فى الحرب العثمانية اليونانية :

وزينب ان تاهت وان هى فخرت فما قومها الا العشير المحبب [2]
يؤلف ايلام الحوادث بيننا ويجمعنا فى الله دين ومذهب

وشعره بعد هذا يفيض بالحنين والحماسة الحارة لكل ما يمت الى الترك بسبب .



(١) تاريخ الدولة العلية — ص ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ .
(٢) الشوقيات — طبعة ١٩١٢ — ص ١٥ .

التيار الاسلامي في قصائد الخلافة :

لم يكن موقف الشعراء فى مصر بعد الاحتلال ازاء الخلافة ، كما كان من قبله وذلك لأن سيطرة الاحتلال ومحاولة فصم العرى بين الخلافة ومصر وغيرها من الأمم التى تظلها الراية الاسلامية الموحدة لها تحت سلطان الخليفة ، ثم الفتن التى كانت تحدث بين حين وحين فى ممتلكات الخلافة بأوربا من الأرمن واليونان (١) ، ثم ما وقع فى دار الخلافة من أحداث جسام مثل اعلان الدستور العثمانى (٢) ، ثم اعلان خلع السلطان عبدالحميد (٣) ، وتولية السلطان محمد رشاد ، ثم موجات التجديد التى غمرت الشرق وكانت تحمل بين طياتها التهوين من شأن الروابط الدينية ودمى المسلمين بالتعصب ... كل ذلك وأمثاله جعل الترابط الروحى يزداد بين المسلمين فى مختلف البقاع وأنطق ألسن شعرائنا بالتعبير عن ضرورة المحافظة على تلك الروابط المقدسة بين مصر والخلافة لأن الروابط قوة للاسلام والمسلمين ولا نكاد نجد شاعراً واحداً من شعرائنا خلا شعره من الاشارة الى مركز الخلافة سواء بالتغنى والاشادة أم بالأنين والألم .

ولقد كان شاعرنا شوقى فى مقدمة أولئك الشعراء الذين تغنوا بالخلافة وتألموا لما كان يصيبها من كوارث .

وكيفما كانت الدوافع عند شوقى فى الاكثار من الحديث عن الخلافة ، فانه ترك لنا تراثاً ضخماً سجل فيه كثيراً من مظاهر الصراع ، أفرغ فيه عبقريته الشعرية وصو لنا نماذج حية عن أحوال الخلافة فى فترة من الزمن طويلة .

ولقد سجل شوقى فى آخر قصيدة له عن الخلافة (٤) الدوافع التى حفزته طوال حياته الى التجاوب مع حوادث الخلافة فى مختلف أطوارها ، ونلمس فيها الصراحة والقوة والوضوح الذى امتاز به شوقى .

وفى الجزء الأول من ديوان شوقى ثمانى عشرة قصيدة تتحدث عن الخلافة ، وفى الجزء الثانى أربع قصائد ، وفى الثالث قصيدة واحدة . ولم يكن حديث شوقى عن الخلافة مقصوراً على تلك القصائد وانما كان يلتمس كل مناسبة يستطيع النفاذ منها الى

---

(١) سنة ١٨٩٦ وما بعدها .
(٢) يوليو سنة ١٩٠٨ .
(٣) سنة ١٩٠٩ .
(٤) هذه القصيدة لم تنشر بالديوان وهى منشورة بجريدة عكاظ بالعدد ١٢١ ، فى يونيه سنة ١٩٢٦ م .

الحديث عن الرابطة المقدسة التى تربطه بالخلافة ، هذا غير ما جاء فى مدائحه للخديويين ، وفى حديثه عن صدى حوادث أملاك الخلافة كنكبة بيروت سنة ١٩١٢

ولابد من الاشارة هنا الى أن الخلافة الاسلامية كانت تنحصر فى العرب حتى أيام المتوكل على الله ــ آخر خليفة عباسي (١) ــ الذى تنازل كما قيل عن حقه فى الخلافة الى السلطان سليم الثانى . وقيل أيضاً أن مرادا الأول تسمى بعد فتح أدرنذ بلقب خليفة الله .

ومعنى هذا أن لقب الخلافة لم ينحصر آنئذ فى جنس العرب كما كنا نعهد من قبل ولم يعد يتطلب الانحدار من آل العباس ولا الادعاء بالانتساب لقريش ، اذا أصبح العاهل المسلم الآن يستمد سلطته مباشرة من الله فهو وكيله وليس خلفاً مجرداً للنبى) (٢) . ولاشك أن هذا التطور فى أمر الخلافة صار يحسب له أمره .

ومنذ ذلك الحين أهتم السلاطين العثمانيون باتخاذ الألقاب الفخمة التى لم نعهدها من قبل . فقد صار الخليفة العثمانى (ملجأ السلطة الذى ضاعف الله سلطنته ، وزاد من سنى حياته وخلافته الى يوم الدين .. وصاحب الجلالة .. وكرسى السلطنة وفخر سلاطين العالم الجالس على عرش الخلافة) (٣) .

وإذن فان (التعليل الصحيح لخضوع العرب لحكم الأتراك ماثل فى الفكرة الدينية ، فقد سرى فى ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن فى تأييد السلطان .. تأييداً للاسلام وهو خادمه وناصره ، واعلاء لشأن الشريعة .. وهو حاميها ومؤيدها وجمعاً للكلمة وهو مما يأمر به الدين ويحض عليه فالتفوا حوله وساروا تحت علمه ، وبايعوه سيداً وإماماً) (٤) .

ومن هنا ينبغى التعرف على هذا التيار الاسلامى فى دائرة السياسة العثمانية (الخلافة) كما انتهت اليه صورته عند الخلفاء العثمانيين من خلال شعر شوقى ، وأول ما يستوقف النظر فى الموضوع اسناد الخلافة دائماً الى الله ، وهو موقف يبشر بأن ثمة رؤية دينية مقدسة لنظام الحكم ، فللخليفة صلة بالسماء لأنه مسؤول عن الرعية ، وهو خليفة الله فى الأرض ، يحكم بأمره ويستند اليه حكمه ، مما يؤذن بعد ذلك بكثير من ملامح

---

(١) كارل بروكلمان ــ تاريخ الشعوب الاسلامية ــ ٣ ــ ص ٤٣ .
(٢) أرنولد ــ الخلافة ــ ص ٩٦ .
(٣) لمصدر السابق ــ ص ١٠٠ .
(٤) أمين سعيد ــ الثورة العربية الكبرى ــ ص ١

القداسة التى انتهت الى فكرة الوراثة ، فتجاوزت المستوى الدينى الى مستوى التأثر بنظم الحكم فى حضارات أخرى امتزجت بالحضارة العربية وتفاعلت معها أخذاً وعطاء .

ومن الصور الواضحة الدلالة على هذا الاسناد الالهى للخلافة قول شوقى يهنىء الخديوى توفيق بقدوم ولديه من السفر :

يا كافى الناس بعد الله أمرهم — النصر الا على أيديك خذلان [1]
ويامنيل المعالى والندى كرما — الريح من غير هذا الباب خسران
مولاى ، هل لفتى بالباب معذرة — فعقله فى جلال الملك حيران

ويقول :

بحمد الله رب العالمينا — وحمدك يا أمير المؤمنينا [2]
لقينا فى عدوك ما لقينا — لقينا الفتح والنصر المبينا

فالشاعر شوقى يبنى نتائجه على مقدمات يسلم بها فى سياسة الحاكم أو منصب الخلافة ، إذ يرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أحله دار الخلافة فقام بأمره ، فهى منحة الهية ، ونتيجة لذلك يحق لنا أن نتصور ما يحق للشاعر أن يطرحه فى شخص الخليفة من صور أهمها ، وراثة الخلافة فى أسرته ولأنه اكتسب تلك الهبة الالهية وهو قادر من خلال هذا كله على توجيه الرعية وحمايتها وهزيمة أعدائها والدفاع عن الاسلام ، مادام قد ملك هذا الأمر المقدس . ولذا يبدو الشاعر مطمئنا الى موقفه بعد التسليم بتلك النتائج .

يقول :

صدقوا الخليفة طاعة ومحبة — وتمسكوا بالطهر من أذياله [3]
يجدون دولتك التى سعدوا بها — من رحمة المولى ، ومن أفضاله

ويقول :

الملك بين يديك فى اقباله — عوذت ملكك بالنبى وآله [4]
... ... — ... ...

---

(١) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٢٠٧ : ٢٠٧ .
(٢) نفس المصدر السابق — ج ١ — ص ٢٨٠ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٩ .
(٤) نفس المصدر — ص ١٦٩ .

أما الخلافة فهي حائط بيتكم حتى يبين الحشر عن أهواله[١]

ولنستمع الى نداء شوقى المثير اذ يقول :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم واستصرخت ربها فى مكة الأمم[٢]
قد مسها فى حماك الضر فاقض لها خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التى ربع الحجيج بها ألـلشريف عليها أم لك العلم

هنا يقول شوقى : (خليفة الله) يدعو الخليفة بالصفة العظمى ، والولاية على المسلمين فى أمور الدين والدنيا ، خليفة عن الله رب العالمين ، ويشكو الشاعر شريف مكة الى السلطان عبدالحميد خليفة الله على الأرض ، ويسأله أن ينتقم منه للحجاج ، بما أساء اليهم وأنزل بهم من أذى .

على هذا النحو تكررت عند شوقى فكرة (العطاء الالهى) فى الخلافة ، لذا نجد الصورة عنده متشابهة والصياغة مكررة تبعاً لتشابه المواقف ، وانعكاساً لاتفاق الرؤى فيما يتعلق (بالخلافة) بأنها هبة من الله تعالى للخليفة ، وللرعية بعد هذا أن تتصور ما للخلافة من قداسة تعززها ارادة السماء وتسندها ، للشاعر بعد هذا أن يخضع لتصوير النظام من نفس المنظور وللصورة أن تشيع على هذا النحو فى شعر شوقى .

وليكن من نتائج ذلك أن يصبح الخديوى عند شوقى خير البشر بلا منازع فهو أفضلهم على الاطلاق ، ولذا يسمو فلا يقارن به الآخرون ، فهو يتجاوزهم كثيراً حتى فى قيامه بأداء العبادات المفروضة عليه لايتورع الشاعر فى تصويره فريداً فيها ، فهو خير من يؤدى الشعائر والفرائض ، و (الخديوى عباس الثانى) يظهر فى شعر شوقى خير من حج البيت . فقد مدحه فى القصيدة التى نظمها بهذه المناسبة ، ثم تخلص من المدح الى بعض شئون الدين ، فالخذيوى أفضل الناس جميعاً ، يقول للخليفة بأنه (خير زائر) :

الى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله فى عرفات[٣]

وقد أصبح من الطبيعى تبعاً لهذا التصور أن يلح شوقى على عرض الصور المختلفة

---

(١) نفس المصدر — ص ١٧٠ .
(٢) نفس المصدر — ص ٢١١ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٨ — ط ١٩٧٠ ، أما فى الطبعة القديمة من الديوان سنة ١٩٤٦ م ، فالبيت ورد على هذه الصورة :
الى عرفات الله يا بن محمد عليك سلام الله فى عرفات

التى يمكن أن يرسمها للتأييد الالهى والمد السماوى لشخص الخديوى ، يقول شوقى فى هذه الصورة :

ويوم تولى وجهة البيت ناضراً ... وسيم مجالى البشر والقسمات[1]
على أفق بالحجاز ملائك ... تزف تحايا الله والبركات

ويرسم صورة قدسية للخديو ومدى رفع مكانته إذ أن الرسول (ص) يحيى الخديوى فى مضاجع طهره ، يقول :

يحيك (طه) فى مضاجع طهره ... ويعلم ما عالجت من عقبات[2]

وشوقى يرسم لوحته من خلال ثقته فى شخص الخديوى الذى ارتبط بكرسى الخلافة ، حتى ليرى أنه (توفيق الهى) والله قد اصطفاه من بين الناس كافة ، والله أعلم بعباده ، فالجميع يحيونه ويثنون عليه حتى الرسل والأنبياء والخلفاء الراشدون ، يقول :

ويثنى عليك (الراشدون) بصالح ... ورب ثناء من لسان رفات[3]

فبعد هذا يصبح المد الالهى والعناية السماوية مبرراً لاطلاق كل الصفات التى يمكن أن يضفيها الشاعر على الخديوى .

وشوقى حينما يهنىء الخليفة سنة ١٩٠٥ لنجاته من القذيفة التى ألقيت عليه ، انما يهنئه لأنه رمز الرابطة الاسلامية ، ولأن الذين كانوا يقصدونه بالسوء لم يكونوا يقصدون شخصه وانما كانت ضربتهم الى ذلك الرمز الاسلامى متمثلا فى الخليفة :

هنيئاً أمير المؤمنين فانما ... نجاتك للدين الحنيف نجاة[4]
هنيئاً (لطه) والكتاب وأمة ... بقاؤك ابقاء لها وحياة
أخذت على الأقدار عهداً وموثقاً ... فلست الذى ترقى اليه أذاة
ومن يك فى برد النبى وثوبه ... تجزه الى أعدائه الرميات

يرى شوقى ان الله قد كتب النجاة للخليفة (أمير المؤمنين) ، وأن العناية الالهية أحاطته وحفظته من هذا الشر المقصود ، وعلل نجاته من الأذى بكونه خليفة رسول الله .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٨ .
(٢) المصدر السابق — ص ٩٩ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٩ .
(٤) نفس المصدر السابق — ص ٩٤ .

وقد بالغ شوقي في مدحه لشخص الخليفة وتهنئته حينما شبهه بالنبي ابراهيم الخليل عليه السلام يقول :

تمشيت في برد الخليل ، فخضتها　　سلاماً وبرداً حولك الغمرات(١)

استوحى ذلك شوقي من قوله تعالى : (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم)(٢) .

ويستكمل شوقي صورته (للتأييد الالهي) لشخص الخليفة ليقول أن الملائكة تحمي شخص الخليفة وهم من عند الاله ، يقول :

يحوطك ان خان الحماة انتباههم　　ملائك من عند الاله حماة(٣)

ويقول :

فلولاك ملك المسلمين مضيع　　ولولاك شمل المسلمين شتات(٤)

لقد أصبح الموقف الديني في نظر شوقي هو الوحيد الذي يحكم الخليفة ويوجهه . فهو القادر على اقامة أركان الدين ، إذ لولا الخليفة لأصبح شمل المسلمين مشتتاً ، فمقومات الصورة عند شوقي تستند على عزة الدين والمسلمين ، ولتكن النتيجة تنعكس على الرعية ، ولتكن ثمرة الوقفة الدينية عامة يجنيها المسلمون من طمأنينة يسعدون بها في ظل حكم الخليفة . وهذه الصورة كثيرة تنتشر في قصائد الخلافة عنده ، صور منها مشاهد دقيقة حين يطرب لنصر الترك في الحرب لأن في ذلك حماية دماء المسلمين في أرجاء الخلافة ، وذلك بفضل يقظة الخليفة وسهره على رعاية شئون رعيته . يقول من قصيدته (تحية للترك) :

بحمد الله رب العالمينا　　وحمدك يا أمير المؤمنينا(٥)

لقينا في عدوك ما لقينا　　لقينا الفتح والنصر المبينا

* * *

---

(١) ديوان شوقي ـ ج ١ ـ ص ٩٤ ـ الغمرات : الشدائد والمكارة .
(٢) قرآن كريم ـ سورة الأنبياء ـ آية ٦٩ .
(٣) ديوان شوقي ـ ج ١ ـ ص ٩٤ .
(٤) نفس المصدر السابق .
(٥) ديوان شوقي ـ ج ١ ـ قيلت هذه القصيدة في الحرب بين الأتراك واليونان سنة ١٣١٤ هجرية .

جمعت لنا الممالك والشعوبا وكانت في سياستها سروبا
فلما هب (جورجيهم)[*] هبوبا تلفت لا يصيب له معينا

افتتح شوقى أبياته (بالحمد لله رب العالمينا)[1] ، وهو اقتباس من القرآن الكريم ، وهذا من باب الظواهر الأسلوبية فى الشوقيات بصورة عامة .

والملاحظ فى قصائد شوقى التى قالها فى الخلافة أن (الروح الاسلامى) هو الرابطة التى تربطها ، فهو فى قصيدته الكبرى عن صدى الحرب اليونانية ، يرى أن فى نصر السلطان نصراً لدين الله واعلاء للحق :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب[2]
وما السيف الا آية الملك فى الورى ولا الأمر الا للذى يتغلب

تحولت صفات السلطان عند شوقى من كرم وشجاعة وبطولة الى ملامح تستند الى الحس الاسلامى فأصبحت فى جملتها هبة من الله لأمير المؤمنين السلطان الذى (يعلو الحق بسيفه) ، وهذه محاولة لتحقيق الوظيفة الدينية المطلوبة من الخليفة والتى وضعت على كاهله فكان عليه أن ينهض بها من خلال أصالتها . وهذا التيار الاسلامى الذى تأثر به شوقى خدم محتوى قصائد الخلافة إذ وظفه الشاعر فى خدمة غرضه هذا ، وكان هذا الاختيار عنصراً ايجابياً بالضرورة لأن شوقى طوعه لطبيعة العصر وربط سياسة الخلفاء العثمانيين بالدولة الاسلامية . وفرض شوقى الفضائل الاسلامية على ممدوحية من الخلفاء فكانت هذه القيم أقوى وأهم من حيث الدلالة من خلال التقوى ونشر العدالة وانتصار الدين بالحق ، وتنفيذ تعاليم الدين وحماية الرعية . إذ لم يترك شوقى مناسبة يستطيع النفاذ منها الى الحديث عن الرابطة المقدسة التى تربطه بالخلافة الا انتهزها ووظفها .

والشعراء فى تلك الحقبة الزمنية يعلقون آمالا جساماً على تركيا فهم يعلنون ولاءهم لخليفة المسلمين فى شتى المناسبات ، شاكين اليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لانقاذهم . بل انهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذى نيطت بعنقه رعاية شؤونهم وحياطة دولهم ، إذ الخليفة بالنسبة لهم ، كركن الكعبة عندما

(*) جورجيهم : ملك اليونان حينذاك .
(١) قرآن كريم . سورة الفاتحة ـ آية ١ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٤٢ .

يستلمه الحجاج ، مقدس . وكفى أن يشهد الله بهذا المقام الديني للخليفة ويعلم ما فى النفوس . يقول شوقى :

عالى الباب هز بابك منا	فسعينا وفى النفوس مرام[1]
وتجليت ، فاستلمنا كما للناس	بالركن ذى الجلال استلام
نستميح الامام نصراً لمصر	مثلما ينصر الحسام الحسام
فلمصر ــ وأنت بالحب أدرى ــ	بك ــ يا حامى الحمى ــ استعصام
يشهد الله للنفوس بهذا	وكفانا أن يشهد العلام
والى السيد الخليفة نشكو	جور دهر ، أحراره ظلاّم
وعدوها لنا وعودا كبارا	هل رأيت القرى علاها الجهام[*]

فالخليفة الامام وحده قادر على حماية مصر وعلى نصرة رعيته وحمايتهم من أعدائهم .

وشوقى لا يكف عن البحث والتنقيب عن الحدث الذى يمكن أن يوثق من خلاله مدحه للخلفاء وخلافة الاسلام ، فيتجاوز تسجيل الانتصارات الداخلية والخارجية ، والأحداث ، والجمع بين ماضيها وحاضرها ، وكل هذه تنطلق من منظور سياسى واحد أساسه الدين ويستهدف خدمة الدين والخلافة والذود عنهما . ولأن شوقى كان أكثر شعراء مصر تمجيداً للترك واشادة بالخلافة ، وولاء للخليفة ، ولطالما مجد الترك اذا انتصروا ونوه ببطولتهم ، وطالما رجع على وتر حزين اذا انهزموا وبكى الأقاليم والخلافة أو الدولة المقتطعة من المدن بكاء الحزين . فقد كان يصور علاقة الحاكم بالمحكوم على هذا النحو ، وبصورة يشغل بها الناس ويوهمهم بتصديقها ، وكأن الحياة أصبحت جهاداً دينياً متعدد الزوايا ، تستهدف فى جملتها وتفاصيلها خدمة قضية الدين أولا ، ثم خدمة الرعية ثانياً ، وليس للأمرين ثالث . على أن شوقى مسلم معتز بالاسلام ، متعلق بأسباب قوته ، وهو يجد هذه الخلافة رمزاً للدين وعلماً لجلاله .

ومن هم الذين مثلوا العالم الاسلامى كله فى ذلك الحين ، انهم الترك الخلفاء على المسلمين منذ بضعة قرون ، وعاصمتهم رمز للرابطة الدينية الروحية ، ومن هنا فان مناصرة للاسلام والمسلمين .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٤٢ : ٢٤٣ .

(*) الجهام : السحاب الذى لا ماء فيه .

ولسنا نبعد عن الحقيقة اذا ماذهبنا الى أن عاطفة شوقى التركية صدى لعاطفته الدينية الاسلامية ، لأنه يناصر الترك حفاظاً على الاسلام والمسلمين ، وعلى البلاد العربية ومصر .

وقد عرفنا أن الأحداث السياسية ، ومطامع الدول الأوربية فى العالم العربى والاسلامى كانت تضطره الى أن يربط بين الاسلام وتركيا هذا الربط .

ولم يكن ليستطيع أن ينحاز عن الخلافة الاسلامية وعن تركيا وهو يعلم أنها الجامعة الاسلامية ، ويرى هو وغيره من الساسة والأدباء أن الدول الغربية تتلهف على تمزيقها واحتلال ولاياتها .

وليس أدل على أن العاطفة الاسلامية كانت أوثق الأواصر التى تصل شوقى بالخلافة العثمانية فى أنه ابتغى من مدحه للسلطان عبدالحميد ثواباً وزلفى اليه ، لا طمعاً فى عطايا السلطان وهباته فالشاعر عرض لوحات فنية جديدة لممدوحيه ترك فيها العنان للقيم الاسلامية كى تثبت وجودها فى القصيدة ، فظهر عنده رصيد ضخم من المعانى والقيم والمثل التى برزت فى شخص الخليفة المسلم بصورة مزدحمة كازدحام خيال الشاعر وعقله بتلك المعانى ، يقول :

ملكت ــ أمير المؤمنين ــ ابن هانىء	بفضل له الألباب ممتلكات[1]
ومازلت حسان المقام ، ولم تزل	تلينى ، وتسرى منك لى النفحات[*]
زهدت الذى فى راحتيك ، وشاقنى	جوائز عند الله مبتغيات[*]
ومن كان مثلى أحمد الوقت ، لم تجز	عليه ــ ولو من مثلك ــ الصدقات
... ...	... ...
سلامى عن هذا المقام مقصر	عليك سلام الله والبركات

ذكر شوقى (حسان بن ثابت) شاعر الرسول (ص) ، فهو هنا يرى مقامه من الخليفة مقام حسان من رسول الله (ص) فى مدحه والدفاع عنه . أما أبو نواس الحسن بن هانىء فكان تأثر شوقى به تأثراً عميقاً ، عارضه فى بعض قصائده بل نسج على منوال قصائده ، وسمى بيته (كرمة ابن هانىء)وقد وحدبينه وبين أبى نواس فى قوله (ملكت أمير المؤمنين

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٧ .
(ه) النفحات : العطايا ــ مبتغيات : مطلوبات .

ابن هانىء) فهوإنما يريد نفسه . وفى البيت الأخير تحية اسلامية وهى نص فى التشهد (عليك سلام الله والبركات) ، وقول الشاعر :

فلازلت كهف الدين والهادى الذى　　الى الله بالزلفى له نتقرب[1]

لم يتردد شوقى فى ترصيع مجموعة الصفات الاسلامية على هذا النحو المتماسك الذى يحدد الدائرة التى يدور فيها ، ومن فضول القول هنا أن أصفها بأنها دائرة اسلامية فهى ليست سوى ذلك ، فمن المعجم الاسلامى يستمد الشاعر الفاظه (أمير المؤمنين) ، (زهدت) من الزهد فى الدنيا ، (جوائز عند الله) ، (لم تجز عليه الصدقات) ، (عليك سلام الله والبركات) ، (كهف الدين) ، (الى الله بالزلفى نتقرب) وردت بالقرآن الكريم آية بهذا المعنى (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) [2] .

وربما تتابعت الصورة فى قصائد شوقى التى قالها فى الخلافة واستكمل لوحاته الوصفية للخليفة والخلافة ، والوضع بصورة عامة وبشكل دقيق ، ولكن الموقف يتسع ويضيق فى صور شوقى حين يعرج على شخص الخليفة ، ثم يتجاوزه الى عهد الخلافة ويعود اليه ثانية ، ثم يعود الى الرعية وهكذا فان شوقى يرسم صوراً متمايزة من خلال هذا التعدد ولكن النتيجة تبقى دائماً واحدة .

فقوله فى قصيدة أخرى أنه يدافع عن الخلافة حبا لله ولدينه ، وانه سيقضى حياته كلها ذائداً عن الخلافة الاسلامية :

عهد الخلافة فىّ أول ذائد　　عن حوضها ببراعة نضاح[*][3]
حب لذات الله كان ، ولم يزل　　وهو لذات الحق والاصلاح
انى أنا المصباح ، لست بضائع　　حتى أكون فراشة[*] المصباح
غزوات (أدهم)[*] كللت بذوابل　　وفتوح أنور[*] فصلت بصفاح[*]
ولت سيوفهما ، وبان قناهما　　وشبا يراعى غير ذات براح

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٥٨ .
(٢) قرآن كريم — سورة الزمر — آية ٣ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠٨ .
(*) النضاح : الدافع الحام .
(*) الفراشة : حشرة .
(*) الذوابل : صفة للرماح .
(*) الصفاح : جمع صفح وهو عرض السيف .
(*) أدهم : أنور : قائدان تركيان كبيران ، والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام .

وقول الشاعر انه يحب الخليفة ويؤزره بشعره مرضاة لله وطلباً للثواب ، يقول :

يــا واحــد الاســلام غــيــر مــدافــع ... آنــا فــى زمــانــك واحــد الأشــعــار[1]

أخــلــصــت حــبــى فــى الامــام ديــانــة ... وجــعــلــتــه حــتــى الــمــمــات شــعــارى

لــم ألــتــمــس عــرض الــحــيــاة وانــمــا ... أقــرضــتــه فــى الــلــه والــمــخــتــار

ونرى شوقى فى رسم صوره ينتهى الى نتيجة واحدة وهى تعظيم شأن الخليفة الامام وان كان الجانب الدينى يبدو أكثر سيطرة على الجانب العام ، ويرى شوقى ان الله هيأ للخليفة حظه من الدنيا والدين ففضله على غيره من الناس وأجاب دعوته. ، وشوقى أخلص فى حبه لشخص الخليفة لما يصحبه من بركة بحكم الامامة ، واستمد من المعانى الاسلامية فكرة الامامة التى ترددت أصداؤها قديماً فى العصر الأموى وبالذات عند (شعراء الأحزاب) .

فالخليفة امام المسلمين ، وهو واحد الاسلام ، كأن خلافته كانت قدراً من عند الله ، ولذا يدعو له شوقى أن يظل شعاره ، مادام حياً ، فلعله القدر الوحيد الذى يدافع عن المسلمين ، وكل هذا تقديس لمعنى الخلافة وصرحها الدينى ، إذ أن الخلافة عندما آلت لآل عثمان ، صار الخليفة فى نظر المسلمين زعيمهم الروحى الذى يخضعون لنفوذه ، وامامهم الذى يمثل وحدتهم كما تمثلت من قبل فى صدر الاسلام . وكانت الخلافة هى جامعتهم الكبرى ، على تباين أجناسهم وتنائى ديارهم ، وتعدد أوطانهم لأنها لم تكن قائمة على عاطفة وطنية أو عصبية قومية أو رابطة جنسية ، بل كانت قائمة على الاسلام والايمان به ، رابطة أعلى وأهم وأسمى من أية روابط أخرى .

ويظل رصيد شوقى من فكرة تأصيل أنساب الخلفاء من المنظور الدينى عالياً ، فالخليفة ينتسب الى البيت النبوى وهو ظل الله على الأرض وهو يشبه الخلفاء الراشدين . ان قضية الانساب طالت أو قصرت تعد مقدمة لنتيجة واحدة هى أن الخليفة أولى من غيره فى الحكم عن جدارة نسب ، وأصالة منبت وهو المخلص الروحى لهذه الأمة فى نظر شوقى . وعاصمة الخليفة التركى هى رمز للرابطة الدينية الروحية . يقول والخطاب هنا للخليفة محمد رشاد الخامس بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف :

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٩ .

الملك بين يديك فى اقباله ... عوذت ملكك بالنبى وآله[1]

... ...

صدقوا الخليفة طاعة ومحبة ... وتمسكوا بالطهر من أذياله

... ...

جددت عهد (الراشدين) بسيرة ... نسج (الرشاد) لها على منواله
فكأنك (الفاروق[*] فى كرسيه ... نعمت شعوب الأرض تحت ظلاله
أو أنت مثل (أبى تراب) [*] ... ويهابه الأملاك فى أسماله[*]
عهد النبى هو السماحة والرضى ... (بمحمد) أولى وسمح خلاله
بالحق يحمله (الامام) ، وبالهدى ... فى حاضر الدستور ، واستقباله

فقد شبه شوقى الخليفة رشاد (بالفاروق) عمر بن الخاطب (رض) حيث كان عهده عدلا ونعما ، وشبهه بعلى بن أبى طالب فى التقوى وبأن كل الناس تهابه ، وشبه عهد الخليفة بعهد النبى محمد وبسماحته ورضاه .

وقد استطاع شوقى أن يصوغ حاسته الاسلامية فى كل صفة من صفات الخليفة والخلافة ، ولم يبعد عن هذا المسلك الفنى حين أورد لنا جزئيات الصورة الدينية نامية متدفقة فى وصفه مشاهد الطبيعة فى طريقه الى الآستانة قادماً من أوربا :

يا عرش (قسطنطين) ، نلت مكانة ... لم تعطها فى سالف الأعصار[2]
شرفت بالصديق ، والفاروق ، بل ... بالأقرب الأدنى فى المختار
حامى الخلافة مجدها وكيانها ... بالرأى آونة وبالبتار[*]
تاهت (فروق) على العواصم ، وازدهت ... بجلوس أصيد[*] باذخ المقدار
(جم الجلال ، كأنما كرسيه ... جزء من الكرسى ذى الأنوار)
أخذت على (البوسفور) زخرفها دجى ... وتلألات كمنازل الأقمار
وكواكب الجوزاء تخطر فى الربى ... (والنسر) مطلعه من الأشجار
واسم الخليفة فى الجهات منور ... تبدو السبيل ، به ويهدى السارى

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٩ .
(*) الفاروق : لقب الخليفة عمر بن الخطاب (رض) .
(*) أبى تراب : كنية على ابن أبى طالب (رض) .
(*) أسمال : الثياب البالية واحدها سمل .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٨ : ٣٩ .
(*) البتار : السيف القاطع .
(*) الأصيد : الملك ، لأنه لا يلتفت من زهو يميناً ولا شمالا .

كتبوه في شرف القصور ، وطالما كتبوه في الأسماع والأبصار

وقد استخدم التشبيه (كأنما كرسيه) ليجعل التعبير مستساغاً من الناحية الدينية ، فكأن (كرسي) الخلافة جزءاً من الكرسي ذي الأنوار ، يقصد كرسيه تبارك تعالى ، وهذا الاغراق أو تلك المبالغة لاتغتفر الا أنه يرى أن الخليفة يحمي الخلافة بروح تتفق وروح الحياة والعصر ومتطلباته ، ولكنها تتفق أساساً مع الحكم الاسلامي . أما بلاط الخلافة فهو يتعامل مع الرعية أحياناً بالرأي وإذا اقتضت الحال (بالسيف البتار) لحل المشاكل ، الأمر الذي يتطلب من الخليفة التمتع بمقوات متناقضة يستمد من كل منها ما سيكون أكثر تلاؤما مع الموقف . فموقفه من الرعية بحاجة الى أن يكون موقف الحامي والمتواضع والقادر وفي نفس الوقت أن يكون الحازم الرادع للظلم وحامي الدين والخلافة ، وهو ما طرحه شوقي في بيته هذا ، ليبين هذه القوة التي توظف في خدمة المجتمع الاسلامي :

حامي الخلافة مجدها وكيانها بالرأي آونة وبالبتار[1]

والعثمانيون خلفاء نشأوا على الآداب الاسلامية في لغة القرآن أو في لغتهم التركية التي نقلوا إليها أمهات الفقه والتفسير وحضارة المسلمين وكأن العثمانيين بالنسبة لشوقي تاريخ وفتح وحماة اسلام.

وكم كان شوقي يود لو أن الخلافة تعود كما كانت أول العهد بها ، أيام كان يتولاها الصديق ، ويسوسها الفاروق (رضي الله عنهما) :

عودي الى ما كنت في فجر الهدى عمر يسوسك ، والعتيق(*) يليك[2]

ويشير شوقي الى ترك الملك المحصور في أسرة واحدة ، والرجوع الى جعله حقاً يتولاه من تبايعه الأمة ، كما كان لعهد الخلفاء الراشدين . ولقد اضطلع شوقي بأعباء هذا المنهج في الدعوة الى هذه النظم المستحدثة في أمور السياسة والحكم ، فكان يستعين على أهواء الحكم بأصول الاسلام ، ويستهويهم بالخلفاء الراشدين فيداول القول بين هؤلاء وهؤلاء ليستثير فيهم نخوة التشبه وفضيلة الاقتداء ، يقول :

---

(١) ديوان شوقي — ج ٢ — ص ٣٩ .
ديوان شوقي — ج ١ — ص ١٦٨
(*) العتيق : لقب أبي بكر (رضي الله عنه) سمته به أمه أو لجماله ، أو لقول الرسول (ص) من أراد أن ينظر الى عتيق النار فلينظر الى أبي بكر .

فكأنك الفاروق فى كرسيه نعمت شعوب الأرض تحت ظلاله[1]

... ...

خلافة الله جر الذيل حاضرها بما منحت وهز العطف باديه[*][2]

... ...

خلافة الله فى أحضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها[3]

... ...

جددت عهد الراشدين بسيرة نسج (الرشاد) لها على منواله[4]

أما الاحتجاج القوى لهذه النظم على سنة العصر وبعد الاطلاع على الحضارات وتألم شوقى لزوال الخلافة وقد عاش فى ظلها طوال شبابه ونضوجه ، وهو كغيره من المسلمين كان يعتبرها الملاذ والمأوى للعالم الاسلامى فى محنته ، غير أنه انصرف عن الفكرة فى الهزيع الأخير من حياته ليكرس أدبه لوحدة العرب وللحريات والدستور فيما بين الحربين العالميتين . وكان (مصطفى كمال أتاتورك) قد شايعه المسلمون فى أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وكان شوقى فى جملة المشايعين بل المكابرين به ، أملا فيما هو خير للاسلام ، حتى اذا استتب له الأمر وتمكن من الحكم ، ألغى الخلافة سنة ١٩٢٣ هو وأصحابه (الكماليون) واستقلوا بتركيا دولة علمانية .

تأثر شوقى كغيره من المسلمين وان كان هذا لم يضعف من تقدير الشاعر لعظمة محرر تركيا الحديثة ، وقد انصرف الناس عن (مصطفى كمال) عندما ألغى الخلافة ، إذ بدأ الناس يتذوقون طعم الحرية والديمقراطية ، وشوقى واحد ممن رأى أن الديمقراطية مستحبة لأنها نمط من أنماط الشورى الاسلامية ، إذ قال فى هذه المناسبة قصيدة « خلافة الاسلام » سنة ١٩٢٤ :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح[5]

كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الأصباح

... ...

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٠ .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨٨ .

(*) باديها : المقيم فى البادية .

(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨٧ .

(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧١ .

(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١١٩ .

ضجت عليك مآذن ، ومنابر   وبكت عليك ممالك ، ونواح

...   .

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم   فى كل غدوة جمعة ورواح

لقد ظلت صور المآذن والمنابر والصلاة فى الجمع الجامعة معلماً بارزاً فى الحياة ، رغم العلمانية ونفى شوقى فى نفس القصيدة على شريف الحجاز (حسين بن على) طمعه فى الخلافة مع ضعفه وعجزه عن توليها وموالاته لأعداء الاسلام فى الحرب العالمية الأولى ، يقول :

لا تبذلوا برد النبى لعاجز   عزل يدافع دونه بالراح

بالأمس أوهى المسلمين جراحه   واليوم مد لهم يد الجراح

فتلسمعن بكل أرض داعياً   يدعو الى الكذاب أو لسجاح

وقد حرص شوقى وغيره من شعراء عصره على أن يقرنوا الخلافة دائماً بذكر الله تعالى ، وهذا الاتجاه يحترم الخلافة فى استقرار أمورها من ناحية . ويزيد من حجم الثقة التى ينبغى على الرعية أن تعيش فى ظلها فى شخص الحاكم اذا تعلقت شخصيته من خلال الخلافة بالسماء على هذا النحو المقدس . ويبدوا أن الحس الاسلامى كان أكثر سيطرة على خيال شوقى وشعراء عصره ، فكانت مجموعة الصفات التى طرحوها فى المدح لها علاقتها الوثيقة بالدين ، بدليل ما لجأ اليه هو وغيره من الشعراء من اسناد الصفات (الى الله) واسناد معان اسلامية الى اسم الخليفة كأنه مثلا (طهر) و (طاعة) و (محبة) يقول :

صدقوا الخليفة طاعة ومحبة   وتمسكوا بالطهر من أذياله[1]

* * * *

وإذا لم يسند الشاعر المعنى على هذا النحو التصويرى ، فانه يسند الأداة الى الله تعالى ، ومركز الخلافة الى الله تعالى ، وكأن الخليفة لا يتبنى الا قضايا الدين ، وهو الخليفة والامام فى وقت واحد وهو يشبه عمر بن الخطاب فى عدله بين الرعية ، يقول :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٩ .

ايه (عبد الحميد) ، جل زمان   أنت فيه خليفة وامام[1]

...   .

(عمر) أنت ، بيد أنك ظل   للبرايا ، وعصمة ، وسلام

والخليفة كالكعبة يلمس الناس ركنها بقدسية وجلال ، يقول :

وتجليت . فاستلمنا ، كما   للناس بالركن ذى الجلال استلام[2]

* * * *

وتبرز عند شوقى صيغة مكررة تتبنى نفس التصور وهو حزنه على الخلافة عند سقوطها لتثور فى نفسه ذكريات أليمة لما أصاب الأمة الاسلامية . فلا تكاد صورة تختلف عن أخرى فكلها ذات طابع دينى اسلامى تؤدى الى نتيجة واحدة لا تتجاوزها ولا تخرج عليها : بكاء

والدساتير الغربية فهو الانتصار على العقول المتشبثة بما لاحجة فيه من القديم وهذا هو طريق الاصلاح الصحيح .

وشوقى حينما يبشر الخلافة فى صدر رسالته بالبقاء والدوام . وبالوراثة للخلفاء انما يريد البقاء لنفسه . مثله كمثل المحب يغلبه الخوف على من يحب ، إذ هو ينشد الطمأنينة ويريد للخلافة الخير ، ولكن تتابع الخلفاء وما آلت اليه الدولة العثمانية وأنظمتها من ضعف جعل شوقى ينادى وينشد الحرية السياسية من ملابسات الظلم وظروف الطغيان . وهذه نقطة تحول عند شوقى ، وتحرر فى العمل الأدبى ليعبر عن التحرر فى صميم الحياة فنادى من هذه الحضارة بالدستور والبرلمان ، وكلا الدستور والبرلمان من عصب الديمقراطية الغربية ، وأخذ الشعراء ينادون بالدستور والديمقراطية بمفهوم غربى ، ولكن ليس غربياً خالصاً وانما بتداخل العناصر الاسلامية معها ولاسيما فكرة الشورى التى تمثلها حالة الخلفاء الراشدين بالذات ، لأن الدستور كان جزءاً من فكرة الأمة وكان الصراع فى العالم العربى والاسلامى صدى للصراع الحضارى بين الشرق والغرب ، واشتد الأتراك أنفسهم يطلبون الدستور بالسيف فأمر به السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، فكتب شوقى يبارك الخلافة والسلطان والمسلمين جميعاً :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٤٠ .
(٢) نفس المصدر السابق — ص ٢٤٣ .

بشرى البرية قاصيها وباريها حاط الخلافة بالدستور حاميها(*)(١)
أما ترى الملك فى عرس وفى فرح بدولة الرأى والشورى وأهليها

وقد يقول بعض النقاد إن شوقى هلل وكبر لدستور صدر فى تركيا ، ولكننا نقول أن شوقى كان مؤمنا بأن مصر ولاية تركية ومع ذلك فقد كان أول الدعاة اليه فى مصر وفى هذه القصيدة ذاتها .

والخديويون فى مصر وعلى رأسهم عباس ـ يومذاك ـ لايكادون يختلفون عن السلاطين بطشاً واستبداداً فى الحكم ، وضيقاً بالدستور ، ودعاة الاصلاح :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها(٢)
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها وبين (مصر) معان أنت تدريها

وهذه المعانى هى ما يعلمه الأتراك من شغف مصر بالدستور وتطلعهم اليه .

ونظر شوقى الى النظم البرلمانية على أنها نمط من أنماط الشورى أو شكل محمود من أشكالها يتفق ومبادىء الاسلام وهو هنا يريد المواءمة بين حضارة الغرب وحضارة الاسلام . يقول فى ذلك :

فانما هى شورى الله جاء بها كتابه الحق يعليها ويغليها(٣)

....

بنيت على الشورى كصالح عهدهم وعلى حياة الرأى واستقلاله(٤)

....

انى أرى الشورى التى اعتصموا بها هى حبل ربك ، أو زمام بنيك(٥)

....

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى ، والحقوق قضاء(٦)

...

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٨٦ .
(*) حاميها : هو الله تعالى .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٩٠ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٨٧
(٤) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٦٦
(٥) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٦٨
(٦) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٣٨

ويعزز شوقى نظرته هذه مؤكداً على المساواة الدستورية بين الأديان أو الملل والنحل فى دار الاسلام التى هى دار الخلافة بقوله من قصيدة (الدستور العثمانى) :

الدين لله ، من شاء الاله هدى	لكل نفس هوى فى الدين داعيها[1]
ما كان مختلف الأديان داعية	الى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة	خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل فى مراشدها[*]	وخشية الله أس فى مبانيها

وفى العام التالى لاعلان الدستور ، وبعد التهانى التى انهالت على الخليفة عبدالحميد من شعر الشعراء ، تشتد ثورة حزب تركيا الفتاة ويطمعه النصر بنيل الدستور ... فيخطو الزعماء خطوة جريئة ويخلعون السلطان عبدالحميد بعد أن حكم ثلاثين عاماً ، لم يكن لينال فيها ما ناله من تقدير واحترام وتمجيد الا عن طريق رابطة الدين ، فأمام هذه الرابطة كانت تتلاشى سيئاته وسيئات حاشيته ، وكانت النفوس تكظم غيظها وتصبر على مضض ابقاء على الرمز الدينى ولكن ذلك لم يجد آخر الأمر فكان ما كان من خلعه وتشريده .

ونجد شوقى يشدو بقصيدة يسجل فيها مآثر عبدالحميد ويتألم لما أصابه ويودعه خير وداع ، ثم يهنىء الخليفة الجديد (محمد رشاد) ويرجو للخلافة على يديه الفوز والنصر ، وشوقى هنا قد طوع الاختيار مرتين ، مرة لطبيعة العصر وربطه بسياسة الخليفة فى الدولة العثمانية ، ومرة ثانية حين فرض على الخليفة الفضائل الاسلامية ، فكانت جلجلة القيم الاسلامية أقوى وأهم من حيث الدلالة على شخص الخليفة فيما يتعلق بالعدل والمساواة وتنفيذ تعاليم الدين وحماية الرعية . ومما لا شك فيه أن لهذه الاضافات دوراً فى تشكيل محتوى التيار الاسلامى فى قصائد شوقى ، وهنا نلاحظ أن صور الخليفة المسلم تتضح أمام أعيننا . ويبدأ قصيدته بوصف ما كان فيه عبدالحميد من عز وعيش رغيد ونعمة كبرى ومطلعها :

سل « يلدزا » ذات القصور	هل جاءها نبأ (البدور)[2]

ومنها

عبد الحميد حساب مثلك	فى يد الله الغفور
سدت الثلاثين الطوال	ولسن بالحكم القصير

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨٩

(*) مراشد : مقاصد .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١١٩ .

ولكن شوقى يرى أن الاستبداد الذى يقوم به الفرد تأتى نتائجه العكسية على الذين يحكمهم ويستند لهم نيطيعون فينزلون على ظلمه وطغيانه ، وهو فى قصيدته هذه يلفت نظرنا الى التداخل فى عتابه لشخص الخليفة على استبداده مع مدحه وتعديد مآثره ، وهذه الازدواجية التى تصادفنا واضحة فى أسلوب شوقى ، وهى صدى للموقف الحائر بين الرغبة فى بقاء الخلافة صوناً لوحدة المسلمين والرغبة فى زوال الخليفة لما تردت اليه حال المسلمين بسبب فساد أمور الدولة فى عهده . ان هذا التداخل فى قصائده يتحمل أعباء الموقف السياسى ويكشف عن كثير من معالمه كما يتحمل أمانيه وميوله لابقاء الخلافة ، وهذا ما وضحه شوقى لنا فى هذه الصورة :

لا تستشير وفى الحمى ... عدد الكواكب من مشير [1]
كم سبحوا لك فى الروا ... ح ، وألهوك لدى البكور
ورأيتهم لك سجدا ... كسجود موسى فى الحضور
خفضوا الرؤوس ووتروا ... بالذل أقواس الظهور

ويريد شوقى ب (الحضور) سجود موسى فى حضرة الله عز وجل ، فهو سجود الخوف والخشوع جميعاً ، وأبعد من ذلك فى الذل هذه الصورة البالغة التعبير ، فمثلهم فى خضوعهم كمثل القوس ، قام فيهم الذل مقام الوتر ، فشد أعلاهم الى أسفلهم ، ورؤوسهم الى أقدامهم ، فتقوست ظهورهم نفاقاً وزلفى الى أن يقول :

أوذيت من دستورهم ... وحننت للحكم العسير [2]
وغضبت كالمنصور أو ... هارون فى خالى العصور
ضنوا بضائع حقهم ... وضننت بالدنيا الغرور
هلا احتفظت به احتفا ... ظ مرحب فرح قرير
هو حلية الملك الرشيد ... وعصمة الملك الغرير

وهذا قول جارح للسلطان فلا يحن السلطان الى أمر الا اذا كان جبلة فيه ، ولعل شوقى حاول أن يحترز فى الصورة الى حد ما فحاول أن يجد ملمحاً تاريخياً دقيقاً يقف عنده فى عقد المقارنة التى تعتبر صورة تاريخية متأخرة ، فلم يجده الا فى المنصور أو هارون الرشيد . لأن شوقى يسخر بغضبة السلطان بغير حق ، وينسبه الى السفه إذ يضن بالاستبداد ، والحكم — كله — عرض زائل وغرور .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢١ : ١٢٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٢ .

ولم تصدر هذه الملامح الاسلامية من فراغ عند شوقى ، ولكنها كانت صدى أميناً لثقافة الشاعر . اذ تكاتفت طبيعة العصر وأسهمت فى هذا التيار الدينى الذى صاحب قصائد الشعراء ومعها تكاتفت ثقافة الشعراء وحرصهم على تسجيل موقفهم من خلال أشخاص الخلفاء وأحداث الخلافة . وهذا هو شأن شوقى فى أسلوبه ، اذ أنه كان يتغذى من رصيد ثقافى واسع وانه خرج يمثل مخزوناً من التراث العربى الفنى ومن المعارف العربية الانسانية . ثم يتجه الشاعر الى تحية (رشاد) ويقول :

المؤمنون بمصر يهدون السلام الى الأمير[1]
ويبايعونك يا (محمد) فى الضمائر والصدور
قد أملوا لهلالهم حظ الاهلة فى المسير
فابلغ به أوج الكمال بقوة الله النصير

الخلافة وضياع مركز الخليفة والعطاء الآلهى للخليفة وملامح البطولة وتشبيه الخليفة بأبطال التاريخ الاسلامى . ويستمد أيضاً من المعانى الاسلامية فكرة الامامة التى ترددت أصداؤها منذ القديم ، ويستمد من تلك المعانى نتيجة يرتبها على أساس المقدمة السابقة وهى ما تمثله طاعة الرعية لهذا الامام الذى هو الخليفة .

وظل شوقى فى قصائد الخلافة محافظاً على شكلها التقليدى ، لتبقى للقصيدة قداستها ومكانتها ، وأفسح المجال للتيار الاسلامى فيها ليأخذ للقصيدة قداستها ومكانتها ، ليأخذ صور متداخلة الجزيئات أحياناً ونامية أحياناً أخرى أو شاملة .

يصور فى قصيدة (الاندلس الجديدة) سنة ١٩١٢ ، بمناسبة سقوط (أدرنة) فى يد البلغار هذه الصور الاسلامية الخالصة :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام[2]
نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام

(الهلال) رمز للمسلمين هنا .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠٥ .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٣٨ .

ثم يعود الى الأنين لما أصاب الاسلام يقول :

صبرا أدرنة ، كل ملك زائل   يوما ويبقى المالك العلام
خفت الأذان فما عليك موحد   يسعى ولا الجمع الحسان تقام
وخبت مساجد كن نورا جامعا   تمشى اليه الاسد والآرام
يدرجن فى حرم الصلاة قوانتا   بيض الازار كأنهن حمام

* * * *

والى جانب كل ما ذكرنا عن الخلافة وهذا التيار الاسلامى فى قصائد شوقى ، يجب أن نسجل حدثاً هاماً ، وهو الموقف الحربى كجزء من سياسة المجتمع العثمانى . وليس جديداً على الشعر أن يرتبط بالموقف الحربى . فاذا سلمنا بضرورة صدور الشعر أصلا مرتبطاً بظروف اجتماعية يصورها ويعكس جوانبها ، ففى مواقف الحرب تبدو الضرورة لتسجيلها وتوثيقها فنيا ، ومن هنا يصح اعتبار الشعر ــ من هذا الجانب ــ وثيقة تاريخية لها طابعها الخاص الى جانب أهميتها فى توثيق الوقائع أو تعديلها بل الاضافة اليها والتغيير فيها

وليس جديداً أن نجد حروباً اسلامية اندفع أصحابها الى أمم أخرى فاتحين ، فللمسألة أصولها وجذورها فى عصر رسول الله (ص) والخلفاء الراشدين ، ولكن الجديد فى هذا يجب أن يتجه الى رؤية حقيقة التيارات الاسلامية التى أبرزتها قصائد الخلافة عند شوقى فى جانبها الحربى ، فهل كانت المسألة مجرد حروب ترصد وتسجل ، أم أن الشاعر كان مدفوعاً بدوافع دينية لهذا الرصد وهى دوافع أسهمت فى خلق تجارب ، وصياغة انفعالات من خلال هذا التيار الاسلامى ؟

وأول ما يبدو لنا فى الموقف الحربى شخص الخليفة نفسه . فهو قائد يتحمل أعباء القيادة كما يتحمل أعباء الخلافة . وهو مسئول عن رعاياه وعن دين الله فى حالتى السلم والحرب ، ومن هنا يظهر الالحاح المتكرر على تصوير القيادات الحربية ، والأدوات القتالية وشوقى لاينكر ناموس الحياة ، ولاينتصر لخلقه فى الموادعة . على مطالب الدول فى الحرب وانتظام الأمور ، يقول :

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم   والحرب أس نظام الكون والأمم[1]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٠٢ .

لقد فاخر بالسيف وأشاد بالصارم البتار وأدخل صور الحرب وقاموس ألفاظه في وصف معارك الممدوح :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان تضرب[1]
وما السيف الا آية الملك في الورى ... ولا الأمر الا للذى يتغلب
ومازال فجراً سيف (عثمان) صادقاً ... يساريه من عالي ذكائك كوكب
... ...
وهاب العدا فيه خلافتك التى ... لهم مأرب فيها ولله مأرب

* * * *

ويقول :

ومملكة (اليونان) محلولة العرى ... رجاؤك يعطيها ، وخوفك يسلب
هددت أمير المؤمنين كيانها ... بأسطع[*] مثل الصبح لا يتكذب

فالمشهد حربى في جملته ، والسيف أداته التتالية توظف لخدمة الدين وتخليصه من الشوائب ، وتنتهى الصورة بهزيمة الذليل الكافر (مملكة اليونان) ، وهى هزيمة يوازيها في الجانب الآخر انتصارات العثمانيين . فهو مدح عند شوقى ينتهى الى نتيجة تلخص قضية وموقفاً ، وهو أن الأمة تدفع عن نفسها الشر وترد كيد الأعداء بالحرب .

وتبدو الوقائع الحربية في قصائد الخلافة واضحة عند شوقى ، إذ يتخذ منها مجالا لابراز مكانة الخلفاء على نحو جديد أساسه البطولة والنجاح في القيادة الحربية ، وما تنتهى اليه الصورة من استحضار مواقع بعينها من التاريخ كموقعة (بدر) اذ انتصر المسلمون وهم قلة فيها ، وما كان لها من أثر عميق في نفوس الناس . ثم ذكر رجالات الاسلام مثل خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى ، وماله من صوت بعيد في الحروب الاسلامية ، وشوقى يشيد بانتصار الأتراك في الحرب والسياسة فيقول :

الله أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك[*] جدد خالد العرب[*] [2]
صلح عزيز على حرب مظفرة ... فالسيف في غمده ، والحق في النصب

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٢ .
(٢) أسطع : سيف شديد السطوع .
(*) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٥٩ .
(*) خالد الترك : يراد به الغازى مصطفى باشا كمال
(*) خالد العرب : خالد بن الوليد وله في الحروب الاسلامية صوت بعيد .

حذوت حرب (الصلاحيين)(٭) فى زمن ... فيه القتال بلا شرع ، ولا أدب
لم يأت سيفك فحشاء ، ولا هتكت ... قناك من حرمة الرهبان والصلب
... ...
للترك ساعات صبر يوم نكبتهم ... كتبن فى صحف الأخلاق بالذهب
... ...
بالفعل والأثر المحمود تعرفها ... ولست تعرفها باسم ولا لقب
... ...

ويقول

يوم (كبدر) فخيل الله راقصة ... على الصعيد ، وخيل الله فى السحب(٭)
غر ، تظلها غراء ، وارفه ... بدرية(٭) العود ، والديباج ، والعذب(٭)
... ...
تحية ـ أيها الغازى ـ وتهنئة ... بآية الفتح تبقى آية الحقب

ويقول أيضاً

المظهرين لنور (بدر)(٭) بعدما ... خيف المحاق(٭) عليه والاظلام (١)

وقد أتاح هذا الموقف لشوقى تصوير المعارك وأدواتها القتالية وأساطيل العدو ، أثناء تهنئته للفاتح بهذا النصر ، إذ أن «الفتح» لفظ دينى أطلقه المسلمون على غزوهم للبلاد ، فقد كانوا يعمرون ما يفتحون ولايستعمرون . وأهل البلاد اذا أسلموا أصبحوا منهم واذا لم يسلموا لهم حقوق مقررة ومقدسة ، وأصبح شوقى شاهد العصر على دوافع الخلافة لهذه الحروب ونتائجها .

وليس هنا مجال حصر تلك المعارك التى خاضها الخلفاء وغيرهم من الأبطال ولكن المشهور منها فى قصائد شوقى يفرض نفسه ويصبح لحناً حماسياً ذا طابع اسلامى فيترنم به

(٭) الصلاحيين : نسبة للبطل صلاح الدين الأيوبى .
(٭) خيل الله : الملائكة.
(٭) بدرية : نسبة الى معركة بدر .
(٭) العذب : خرق الألوية .
(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٢٧ .
(٭) (بدر) : اسم الغزوة المشهورة فى صدر الاسلام ، سميت باسم المكان الذى وقعت فيه .
(٭) المحاق : قيل هو آخر الشهر حيث يمحق نور القمر وقيل هو ثلاث ليال من آخره .

الناس ، يقول :

ومن شرف الأوطان ألا يفوتها ... حسام (معز) ، أو يراع مهذب[1]

وهكذا تتعدد الأحداث ويتضخم معها رصيد المعارك وصورها أمام شوقى وهو ينشد الشعر فى الخلافة مما تتجاوز المستوى الضيق المحدود لينطلق الى مستويات أخرى أكثر اتساعاً وشمولا . فقد يصبح محور اعجابه بالأتراك من خلال المد الاسلامى الى أنحاء بعيدة واتساع الممالك المفتوحة من الهند الى الصين ، يقول :

وأرج الفتح أرجاء الحجاز ، وكم ... قضى الليالى لم ينعم ، ولم يطب[1]

وآزينت أمهات الشرق ، واستبقت ... مهارج الفتح فى المؤشيه القشب

هزت (دمشق) بنى (أيوب) ، فانتبهوا ... يهنئون (بنى حمدان) فى (حلب)

ومسلمو (الهند) و (الهندوس) فى جذل ... ومسلمو (مصر) والأقباط فى طرب

ممالك ضمها الاسلام فى رحم ... وشيجة[*] ، وحواها الشرق فى نسب

ويقول والخطاب هنا للخليفة (محمد رشاد) :

هز اللواء بعزك الاسلام ... وعنت[*] لقائم سيفك الأيام[2]

وانقادت الدنيا اليك ، فحسبها ... عذرا قياد[*] أسلست وزمام

يا ابن الذين إذا الحروب تتابعت ... صلوا[*] على حد السيوق وصاموا[*]

عشرون خاقانا[*] نموك[*] وعشرة[*] ... غر الفتوح خلائق[*] أعلام

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٤ .

(*) رحم وشيجة : المتصلة القرابة .

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٦٦ .

(*) عنت : خضعت .

(*) قياد : ما يقاد به ويستعمل بمعنى الطاقة .

(*) زمام : مقود البعير .

(*) صلوا وصاموا : أى لمزمهما كما يلزم المتعبد صلاته .

(*) خاقان : هو ملك من ملوك الأتراك .

(*) نموك : رفعوك بالانتساب إليهم .

(*) عشرة غر الفتوح : أى ونماك أيضاً عشرة خواقين ، امتازوا بالفتح والتوسع فى الملك فاختصوا بوصف الفاتحين فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان .

(*) خلائف : جمع خليفة .

ولعل فى الصور المتقدمة تتويجاً للموقف الدينى فى حديث الحروب وتصوير المواقف الحربية من هذه الرؤية الدينية ، فالمزج واضح بين صورة الخليفة كخليفة ، وصورته كقائد يمكن أن تمتد فتوحاته الى الهند ومصر وغيرها من الممالك من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وقد يحطم أعظم امبراطوريات عالمه . وهو انتصار مرهون أولا وأخيراً بارادة الله ، وهو جزء من فضله تعالى على خليفته فى الأرض .

والى جانب تسجيل أبعاد الفتح العثمانى الاسلامى على هذا النحو الجغرافى الدقيق ، ينتشر الفكر الحربى الجديد مع الفتوحات وهو فكر يحرص شوقى على أن يسجله وهو حروب الخلافة ضد المتمردين فى جميع بقاع الأرض وتصوير هذه الحروب على أنها جهاد دينى خالص فى سبيل الله والدفاع عن الاسلام ، يقول :

بحمد الله رب العالمينا ... وحمدك يا أمير المؤمنينا[٢]
لقينا فى عدوك ما لقينا ... لقينا الفتح والنصر المبينا

* * * *

هم شهروا أذى ، وشهرت حربا ... فكنت أجل اقداماً وضرباً
حدودهم شرقاً وغرباً ... وطهرت المواقع والحصونا

* * * *

جمعت لنا الممالك والشعوبا ... وكانت فى سياستها ضروبا
فما هب (جورجيهم) هبوبا ... تلفت لا يصيب له معينا

* * * *

أنالوا الملك فتحا أى فتح ... وشادوا للخلافة أى صرح
وجاءوا ربهم منهم بذبح ... تقبله ، وكان به ضنينا

* * * *

بنى عثمان ، انا قد قدرنا ... فتوحكم الكبار وقد شكرنا
سألنا الله نصرا فانتصرنا ... بكم ، والله خير الناصرينا

---

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨٠ — قيلت فى الحرب بين الترك واليونان

هنا أشار شوقى الى الذبح الذى فدى به (اسماعيل) عليه السلام ، فكأنه الشهيد فداء لوطنه (وجاءوا ربهم منهم بذبح) . ولا أدل على انتشار هذا التيار الاسلامى فى قصائد الخلافة الحربية من تكرار تلك الصيغ الدعائية التى رددها شــوقى (سألنا الله نصراً) ، (والله خير الناصرينا) وهذه الصيغ تحمل حماسة الشاعر ــ إذا جاز لنا التعبير ــ وصدق موقفه من أصحاب الحروب بحكم الانتماء العرقى من ناحية ، والدفاع الدينى من ناحية أخرى .

وقد اتخذ شوقى قصائد الخلافة لتقوم بهذا الدور التسجيلى للحروب العثمانية ، واتخاذ هذه الحروب وسيلة للدعوة الى الجهاد ، والى جانب ذلك هناك دور آخر قامت به هذه القصائد لايقل فى أهميته وخطره عن الادوار الأخرى وهو اتخاذها وسيلة لانتقاد الخليفة والرغبة فى التخلص منه أو عندما يسقط ، بصرف النظر عن نتيجة هذا الموقف وهل سينتهى الى مايتمناه الشاعر أم لا . وهذا مانجده كثيرا عند شوقى فى قصائده مما يعتبر من باب الظواهر الاسلوبية وهو المزاوجة بين المدح والذم فى آن واحد ، وهذا ما حدث فى العام التالى لاعلان الدستور العثمانى حينما خلع السلطان عبد الحميد بعد أن حكم ثلاثين عاما لم يكن لينال ما ناله من تقدير واحترام وتمجيد إلا عن طريق رابطة الدين ، فأمام هذه الرابطة كانت تتلاشى سيئاته وسيئات حاشيته وكانت النفوس تكظم غيظها وتصبر على مضض ابقاء على الرمز الدينى . ولكن ذلك لم يجد آخر الأمر فكان ما كان من خلعه وتشريده ، ومع كل ما قاله شوقى من ذم بصيغة المدح فى مهاجمة السلطان عبد الحميد فانه لم يكن جريئاً كالشاعر (أحمد نسيم) وقد يكون لدم شوقى التركى أثره فى ذلك . يقول :

شـيـخ الـمـلـوك وان تـضـع — فـى الـفـؤاد وفـى الـضـمـيـر[1]
نـسـتـغـفـر الـمـولـى لـه — والـلـه يـعـفـو عـن كـثـيـر
ونــراه عــنــد مــصــابــه — أولــى بــبــاكٍ أو عــذيــر
ونــصــونــه ، ونــجــلــه — بـيـن الـشـمـاتـة والـنـكـيـر
عـبـد الـحـمـيـد حـسـاب مـث — لـك فـى الـمـلـك الـغـفـور
ـسـدت الـثـلاثـيـن الـطـوا — ل ، ولـسـن بـالـحـكـم الـقـصـيـر
... ... — ... ...

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٢١ .

ويقول :

ان القضـــــاء إذا رمـــــى   دك القــواعــد مــن (ثــبــيــر)(٥)

صور الشاعر تعرف القضاء بدك القواعد ، وكل أمر عظيم بثبير وهو اسم جبل وفيه استعارة تمثيلية .

وبذلك كانت قصائد الخلافة عند شوقى سجلا حافلا لتطورات الأمور فى الخلافة فى فترة من الزمن ، وقد لاحظنا الصورة واضحة لما تكنه نفس شوقى من حب خالص للاسلام وخلافة الاسلام ، وان تغاضى كثيراً عن سيئات عبدالحميد ، وتألم لما أصاب الخلافة من كوارث يقول :

خلت(٥) القرون كليلة ، وتصرمت(٥)   دول الفتوح كأنها أحلام(١)

وصور شوقى هذه العاطفة الجياشة والذكريات الأليمة لما أصاب الأمة الاسلامية في سقوط الأندلس التى أدمت قلوب المخلصين ، يقول :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام

نزل الهلال عن السماء فليتها   طويت وعم العالمين ظلام

(الهلال) يستخدمه شوقى رمزاً للاسلام ، والصليب رمزاً للمسيحين .

ويقول شوقى :

صبرا أدرنه(٥) ! كل ملك زائل   يوما ، ويبقى المالك العلام(١) (٥)

خفت(٥) الأذان ، فما عليك موحد   يسعى ، ولا الجمع (٥) الحسان تقام

وخبت(٥) مساجد كن نورا جامعا   تمشى اليه الأسد(٥) والآرام(٥)

---

(٥) ثبير : حبل معروف بمكة (وهو الذى صعد فيه النبى (ص) فرجف به ، فقال اسكن ثبير ، فانما عليك نبى وصديق) وقد روى هذا فى حراء ، وهذا هو ثبير الأثبره — إذ هناك أربعة أثبرة بالحجاز .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٣١ .

(٥) خلت : مضت .

(٥) تصرمت : انقضت .

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٣٨ .

(٥) صبرا أدرنة : أصبرى صبرا .

(٥) العلام : هو الله سبحانه وتعالى .

(٥) خفت : سكن وانقطع ، الموحد : من يعتقد أن الله وحده لاشريك له ولا ولاد ، الجمع : هى صلوات الجمع الأسبوعية .

(٥) خبت : سكنت ، الأسد : هم الرجال الذاهبون الى المساجد ، الآرم : النساء الذاهبات الى المساجد . والرئم : الظبى .

... ...

جـرحـان تـمـضـى الأمـتـان عـلـيـهـمـا   هـــذا يـــسـيـــل ، وذاك لا يـلـتـئـام

* * * *

ونلاحظ فى البيت الأخير (جرحان تمضى ...) غموضاً فى المعنى إذ أنه استخدم الأجمال فى بداية البيت ثم أخذ يفصل فى المعنى ولكن هذا التفصيل لم يضف شيئاً الى المعنى وهو وان جاء بعد الأجمال إلا أنه ظل غامضاً .

شوقى والمجتمع الاسلامى :

وتتسع نظرة شوقى الاجتماعية حتى تشمل العالم الاسلامى بأسره فيتعرض لبعض العيوب الاجتماعية التى كان يعانى منها العالم الاسلامى فى عصره ، ويبدو ذلك مثلا فى قصيدته (مرحبا بالهلال)(٥) حيث يتعرض الى مدح الهلال والثناء عليه ، ثم يوجه اليه التحية ، ثم ينصح المسلمين ضارباً لهم المثل الأعلى بأسلافهم الأمجاد ، والقصيدة كلها فى نطاق شعره الاجتماعى الاسلامى حيث يتعرض الى بعض العيوب التى يشقى بها العالم الاسلامى فى ذلك الوقت وما عدا هذا الأساس لأبيات هذه القصيدة فهو اما تقديم للغرض الأساسى ، واما وسائل يعمد إليها لتأييده رأيه ، وتقوية نصحه .

ولابد أن نذكر أن لشوقى قصائد أخرى تناولت الجانب الاجتماعى فى العالم الاسلامى تم ذكرها فى مواضع أخرى من هذا البحث .

ويبدأ شوقى قصيدة (مرحبا بالهلال) بمقدمة يتخذها مدخلا لغرضه الأصلى ، فهو يحى الهلال ويرحب به أجمل ترحيب ، ويذكر منزلته السامية ، ومكانته فى القلوب وفى النفوس ، وكيف أنه جاء مبشراً بالعيد الهجرى لسنة ١٣٢٩ هـ ، وكيف اتفق هذا مع مجيىء عيد الميلاد ، وقد أدى الشاعر لكل من العيدين ما يستحقه من العناية والترحيب ، ومن الثناء والتعظيم .

---

(٥) جرحان : أحدهما خروج أدرنة من أيدى المسلمين والثانى خروج الأندلس من أيديهم والأمتان هما العرب أيام نكبة الأندلس والترك أيام ضياع أدرنة .
(٥) الهلال يتوسط علم الدولة العثمانية فى مقابل الصليب عند النصارى فى أعلامهم .

يقول :

العام أقبل قم نحيي هلالا   كالتاج في هام الوجود جلالا[١]
يطوي كتاب الكائنات لقارىء   يزن الكلام ، ويقذر الأقوالا
ملك السماء ، فكان في كرسيه   بين الملائك والملوك مثالا
تتنافس الآمال فيه ، كأنه   ثغر العناية ضاحك الآمالا
والشمس تزلف عيدها ، وتزفه   بشرى بمطلعه السعيد ، وفالا
عيد المسيح ، وعيد أحمد ، أقبلا   يتباريان وضاءة وجمالا

وشوقي في تعظيمه للهلال يصوره بعدة صور ، فتارة هو كالتاج قد ألبسه الوجود فزاد به جمالا ، وتارة هو عنوان على كتاب الكائنات ، وتارة هو ملك السماء يجلس على كرسيه بين الملائكة وبين الملوك وهو أكثرهم وضاءة وجلالا .

ثم يصل شوقي الى بيت القصيد من حديثه حين يزجي النصح الى أمم الهلال مبيناً مايراه فيهم من عيوب ومثالب ، وما ينبغي عليهم أن يأخذوا أنفسهم به اذا أرادوا أن يكونوا من المنتسبين حقاً ، فالاسلام يرفع العامل ويسود المقدام والفعال ، ولكن المسلمين قد ظلموه بتفريطهم وكسلهم ، حيث أتاحوا لأعداء الاسلام أن يطمعوا فيه وأن يأخذوا عليه المعايب والمثالب .

يقول الشاعر :

أمم الهلال ، مقالة من صادق   والصدق أليق بالرجال مقالا[٢]
متلطف في النصح ، غير مجادل   والنصح أضيع ما يكون جدالا
من عادة الاسلام يرفع عاملا   ويسود المقدام والفعالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم   وظلمتموه مفرطين ، كسالى

وشوقي لا يرضى حتى يضرب لأخوانه المثل الصالح ، فيذكر لهم الاسلاف الأمجاد لكي يتخذوا منهم القدوة والمثل المحتذى . يقول شوقي :

هذا هلالكم تكفل بالهدى   هل تعلمون مع الهلال ضلالا[٣]

---

(١) ديوان شوقي — ج ١ — ص ١٨٥ : ١٨٦ .
(٢) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٢٨٧ .
(٣) نفس المصدر السابق .

سرت الحضارة حقبة فى ضوئه ومشى الزمان بنوره مختالا
وبنى له العرب الأجاود دولة كالشمس عرشا ، والنجوم رجالا
رفعوا له فوق السماك دعائماً من علمهم ومن البيان ، طوالا
الله جل ثناؤه بلسانهم خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الأخلاق أحسنها لهم ومكارم الأخلاق منه تعالى

والشاعر يقصد بالهلال هنا الدين الاسلامى لأن الهلال رمز له واشارة اليه ، ونلاحظ أن شوقى يكرد وصف المسلمين الأوائل بالغيث فى بيتين متتاليين هما :

كالرسل عزما ، والملائك رحمة والأسد بأساً ، والغيوث نوالا[1]
عدلوا ، فكانوا الغيث وقعا ، كلما ذهبوا يميناً فى الورى ، وشمالا

ومراده بالوصف الأول أن هؤلاء المسلمين كانوا كراما يبالغون فى الجود والعطاء ، أما مراده فى الوصف الثانى فهو أنهم كانوا خيراً وبركة فى كل بقعة يحلون بها ، ينشرون العدل والمساواة ويبثون تعاليم الدين الاسلامى السمحة الكريمة ، فلا تكرار لأن وجه الشبه مختلف .

ولقد كان المسلمون الأولون على هذه الحالة التى وصفها شوقى ، بينما كان غيرهم فى هذا الوقت يضربون فى ضلالة عمياء ويتيهون فى جهالة . يقول شوقى :

أيام كان الناس فى جهلاتهم مثل البهائم ، أرسلت ارسالا[2]
من جهلهم بالدين والدنيا معا عبدوا الأصم ، وألهوا التمثالا
ضلوا عقولا بعد عرفان الهدى والعقل ان هو ضل كان عقالا(٥)
حتى إذا انقسموا تقوض ملكهم والملك ان بطل التعاون زالا
لو أن أبطال الحروب تفرقوا غلب الجبان على القنا الأبطال

وكأنما يريد شوقى بهذا أن يضرب للمسلمين المثلين ، الأعلى الذى هو جدير بالاتباع والاحتذاء ، والأسفل الذى هو جدير بالاطراح والأعراض ، لتكون ميزة المثل الأعلى أكثر وضوحاً وتيمنا لدى أخوانه المسلمين ، فذكر لهم مثلا أعلى يتمثل فى أبائهم المسلمين السابقين ، ومثلا على النقيض من ذلك يتمثل فى غير المسلمين الأولين ممن عاصروهم وعاشوا فى زمانهم .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨٧ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨٧ .
(٥) العقال : فى الأصل يشد به البعير ، وهنا بمعنى القيد .

اتحاد المسلمين والأقباط :

ومن الدعوات الاصلاحية التي سجلها شوقي في شعره الديني الدعوة الى اتحاد عنصري الأمة من المسلمين والأقباط . ويبدو ذلك في مواضع كثيرة من شعره .

فشوقي في قصيدته (يا شباب الديار)[1] يدعو الى ذلك ويقال أن هذه القصيدة كانت أول دعوة الى هذا الاتحاد ، وأنه كان لشوقي فضل تدبير الخيط الأول في نسيج الترابط والاتحاد بين المسلمين وبين المسيحين في مصر[2] .

وشوقي يرى أن كل من يعيشون على ضفاف النيل هم أبناء لمصر ، لافرق فيهم بين مسلم وقبطي . كما يرى أن كل من يدعي أن الأمة في مصر هي أمة الأقباط ، أو هي أمة المسلمين فقط ، فانما يتعلق بخيال ويدعو الى محال ، فالتاريخ يشهد بأن الكل مصريون ، النيل أبوهم ، وهم طينه وماؤها ، وفوق هذا فالكل بنو آدم وبنو الانسانية ، يقول شوقي :

يا بني مصر ، لم أقل أمة	القبط ، فهذا تشبث بمحال[3]
واحتيال على خيال من المجد	د ، ودعوى من العراض الطوال
انما نحن مسلمين وقبطا	أمة وحدت على الأجيال
سبق النيل بالأبوة فينا	فهو أصل ، وآدم الجد تالي
نحن من طينه الكريم على الله	ومن مائة القراح الزلال

ثم يتوجه الشاعر الى الأقباط يرميهم بالأهمال والتقصير في حقوق الدين وفي حقوق الوطن مثلهم في ذلك مثل المسلمين ، فيقول :

مر ما مر من قرون علينا	رسفا في القيود والأغلال [4]
وانقضى الدهر ، بين زغردة العر	س ، وحشو التراب ، والاعوال
ما تحلى بكم يسوع ، ولا	كنا لطه ودينه بجمال

ثم يتوجه أخيراً الى شباب الأمة يطالبهم بالعمل من أجل رفعة بلادهم فمصر لهم وهي عرينهم الواجب عليهم حمايته والذود عنه والسعي لرفعته وعزته ، وأما الدين فنحن نؤديه لله ، سواء منا من اتخذ الصليب أو الهلال شعاراً . يقول :

---

(١) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٢٦٦ — ٢٢٨ .
(٢) نفس المرجع/السابق ص ٢٦٦ — الهامش .
(٣) ديوان شوقي — ج ١ — ص ١٨٩ .
(٤) ديوان شوقي — ج ١ — ص ١٨٩ .

يا شباب الديار ، مصر اليكم ولواء العرين للأشبال[1]
كلما روعت بشبهة بأس جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بمنف وكريم الآثار والأطلال
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الأشغال
والى الله من مشى بصليب في يديه ، ومن مشى بهلال

وحينما قتل (بطرس غالى باشا (فى مصر برصاصة من ابراهيم الوردانى سنة ١٩١٠م ، لأسباب سياسية) هاجت النفوس واستاء كثير من الأقباط لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطى ، قال شوقى فى ذلك مقطوعة[2] توجه فيها الى أقباط مصر طالبا منهم أن يخففوا من ثورتهم :

بنى القبط اخوان الدهور رويدكم هبوه (يسوعا) فى البرية ثانيا[3]
حملتم لحكم الله صلب (ابن مريم) وهذا قضاء الله قد غال (غاليا)
سديد المرامى قد رماه مسدد وداهية السوس لاقى الدواهيا
ووالله ، لو لم يطلق النار مطلق عليه ، لأودى فجأة ، أو تداويا
قضاء ، ومقدار ، وآجال أنفس إذا هى حانت لم تؤخر ثوانيا

استخدم الجناس بين (غال) و (غاليا) وهذا الجناس غير مجد فى تجميل العبارة وتزيينها ، خصوصاً وقد تجاورت الكلمتان ، وابتدأت كل منهما بالغين المعجمة الحلقية ، وحروف الحلق ثقيلة فى نطقها ، ولو أن شوقى قال مثلا (هذا قضاء الله قد نال غالياً) لتفادى هذا الثقل .

ولكننا نلمس فى أبيات شوقى الايمان بالله ، والتسليم بقضائه . وبعد أن يسند شوقى اغتيال (بطرس غالى) الى القضاء يصل الى هدفه من هذه المقطوعة ، وهو دعوة الأقباط الى نبذ الشقاق والجفاء ، والى التآلف والاتحاد مع أخوانهم المسلمين ، فالكل مصرى ، والكل ولد النيل ، فلا يفرقهم التعصب الأعمى ، ولا يفسدنّ قلوبهم هذا للتحالف فى الدين والمذهب .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٨٩ : ١٩٠ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٩
(٣) نفس المصدر السابق ص ٥٥ .

تعالوا عسى نطوى الجفاء عهده ونـنبذ أسباب الشقاق نواحيا[1]
ألم تك (مصر) مهدنا ثم لحدنا وبينهما كانت لكل مغانيا ؟
ألم نك من قبل (المسيح بن مريم) و (موسى وطه) نعبد النيل جاريا ؟
فهل تساقينا على حبه الهوى وهلا فديناه ضفافا وواديا؟
ومازال منكم أهل ود ورحمة وفى المسلمين الخير مازال باقيا ؟

ثم يتوجه فى مقطوعته التى رثى بها (بطرس غالى) الى الدعوة للتآلف بين المسلمين والأقباط . إذ يوجه الشاعر حديثه الى المرثى أولا :

قد عشت تحدث للنصارى ألفة وتجد بين المسلمين وئاما[2]
واليوم فوق مشيد قبرك ميتا وجد الموفق للمقال مقاما
الحق أبلج كالصباح لناظر لو أن قوما حكموا الأحلاما
أعهدتنا والقبط الا أمة للأرض واحدة تروم مراما؟

ويتوجه الى الأقباط بهذا النداء ، يدعوهم الى نبذ الخلافات التى لا طائل تحتها وأن يتأملوا واقعهم وتاريخهم ، فان المسلمين والأقباط منذ القدم يعيشون بمصر فى وئام وسلام :

يا قوم بان الرشد فاقصوا ما جرى وخذوا الحقيقة ، وانبذوا الأوهاما[3]
هذى ربوعكم ، وتلك ربوعنا متقابلين نعالج الأياما
هذى قبوركم ، وتلك قبورنا متجاورين جماجما وعظاما
فبحرمة الموتى ، وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوار كراما

وشوقى دائماً يراعى هذا الجانب الحساس من جوانب الحياة فى الوطن المصرى والاسلامى بعامة ، وهو وجود المسلمين الى جوار المسيحيين جنباً الى جنب فى وطن واحد ، ولقد كان القتال يدور أحياناً بين المسلمين وبين أهل البلاد المتاخمة للدول الاسلامية ، وهم من المسيحيين ، وربما أوجد هذا بعض التنافر بين المسلمين والأقباط داخل الدولة ، ولذا كان شوقى دائماً يدعو الى الوحدة والتآلف بين مسلمى البلاد وأقباطها فى سبيل عزة الأوطان ، فما عيسى ومحمد الا أخوان ونبيان من أنبياء الله ، ولن يرضيهما أن يتسبب اختلاف الدين فى اختلاف القلوب وتفرق الجماعة ، يقول شوقى فى

(١) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٥٥ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٤٥ .
(٣) نفس المصدر السابق .

هذا المعنى متحدثاً عن الأستانة :

أدار (محمد) وتراث (عيسى) ... لقد رضياك بينهما مشاعا[١]
فهل نبذ التعصب فيك قوم ... يمد الجهل بينهم النزاعا ؟
أرى الرحمن حصن مسجديه ... بأطول حائط منك امتناعا
فكنت لبيته المحجوج ركنا ... وكنت لبيته الأقصى سطاعا
هواك والعيون منفجرات ... كفى بهما من الدنيا متاعا

وحينما يتحدث شوقى الى بنى الوطن الواحد عن مشروع ملنر ــ وزير المستعمرات الانجليزى ــ على الوفد المصرى الذى سافر لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام فى (فرساى) عقب ثورة١٩١٩م، واتفق «ملنر» مع الوفد المصرى على أن يعرض المشروع على البلاد لأخذ رأيها فيه بواسطة أربعة من رجال الوفد مع التزام الحيدة فى ذلك ، وقد كانت الأفكار يومئذ متجهة الى أن المشروع يصلح أساساً للمفاوضات إذا أضيفت اليه بعض التعديلات ، وكان شوقى من المؤيدين لهذا الرأى ، فهو يقول لأبناء البلاد :

لا تستقلوه فما دهركم ... بحاتم الجود ولا كعبه[١]

ثم يمضى فى عرض لنقاط المشروع ، وبيان روحه وأهدافه . ولكنه يقدم لذلك بمقدمة يتوجه فيها الى شباب الوطن فيذكرهم بأسلافهم الأمجاد الذين كانوا قطب الحياة وميزانها ، ثم هو يشكر لهم تآلفهم على حب مصر وعلى اتحاد المسلمين والأقباط منهم سعياً لبناء مجد الأمة وتشييد بنيان حضارتها .

يا نشأ الحى ، شباب الحمى ... سلالة المشرق من نجبه[٢]
بنى الأولى أصبح احسانهم ... دارت رحى الفن على قطبه
موسى وعيسى نشأ بينهم ... فى سعة الفكر وفى رحبه
وعالجا أول ما عالجا ... من علل العالم أو طبه
ما نسيت مصر لكم برها ... فى حازب الأمر وفى صعبه

وهكذا نجد شوقيس لا يترك مناسبة متاحة للحديث عن هذا الجانب الهام والخطير من جوانب حياتنا الاجتماعية الا يصوغها شعراً يدعو فيه الى وحدة الصف ، والى تآلف القلوب حفاظاً على خير الوطن وعزته .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٥٤ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٧٥ .
(٣) نفس المصدر ــ ص ٧٤ : ٧٥ .



الفصل الثانى

إضفاء الصبغة الاسلامية على موضوعات شعره

* الفرعونية فى ظل التيار الاسلامى
* إضفاء حقائق الاسلام على الديانات الأخرى
* إضفاء الصبغة الاسلامية على الشكل المسرحى .

الفرعونية فى ظل التيار الاسلامى :

اتسم شعر شوقى الفرعونى بسمة الجلال القرآنى وقد عبر شوقى عن ذلك تعبيراً فنياً خرج فى أداء لغوى لا يفارق البلاغة القرآنية والشعر القديم .

هذه الحقيقة تثير السؤال عن مدى اهتمام شوقى البالغ كشاعر بهذه الفترة من تاريخ مصر ؟

يرجع ذلك إلى حضارة مصر الفرعونية أولا كانت حضارة ذات صبغة دينية قوية ، الموت فيها أهم من الحياة ، والآخرة أهم من الأولى ، تؤمن بالبعث وتهيىء له الطعام والشراب وعربة الشمس . كل هذا فتن شوقى وهو شاعر ينظم فى اطار هذه المفاهيم ويشيعها فى مراثيه وقصائده فى مصارع الدول والرجال .

ولأن شوقى كان شاعر الماضى والتاريخ ، طوف بمنابره ومحاريبه فى دار الاسلام وفى دار الحرب ، وهو القائل : « الشعر ابن أبوين » الطبيعة والتاريخ فكان من الطبيعى أن تجذبه مصر الفرعونية التى كان تاريخها يمثل أطول فترة زمنية فى التاريخ المصرى ، وأن تجذبه هذه الحضارة العجيبة التى بزغت فى فجر التاريخ والتى أصبحت ديارها ولاية فى دار الاسلام بعد الفتح العربى ، ذلك الفتح الذى برره بين فتوح مصر جميعها فى قوله المشهور :

فى الحق سُل وفيه أغمد سيفهم   سيف الكريم من الجهالة يفرق [1]
والفتح بغى لايهون وقعه   الا العفيف حسامه المترف

وقد أعجب شوقى بعنصر السيادة والقوة التى أظهرها الفراعنة فى الوادى وفى غرب آسيا . إذ أنه كان شاعر القوة لأنه كان قريبا من السلطان ، ويذكر الأمجاد الحربية الاسلامية الماضية منها والحاضرة .

والى جانب ذلك فان الحضارة الفرعونية فى الحقيقة كانت أطلالا وهذا النداء الذى هو نداء الأطلال مضمون شعرى يستجيب له الشاعر العربى استجابة سريعة ، فهو من انجازات العصر الجاهلى الباقية ، ويحتمل تجديدات على أيدى الشعراء ومنهم أحمد شوقى الذى رأينا شعر الأطلال عنده بلغ ذروته ، وقد وقف عليها فى أمكنة مختلفة فى دار

(١) ديوان شوقى ـ ج ٢ ص ٧٣ .

الاسلام فكانت هذه الأهرامات والهياكل الفرعونية الغاية التى وصل اليها الشاعر العربى فى هذا المضمون الجميل .

وقد وجد شوقى تشابهاً فى تاريخ أسرته وتاريخ أسرة أخرى يرقى عهدها الى مصر الفرعونية التى ذكرها القرآن الكريم ، ألا وهى الأسباط . قال تعالى : « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً » [1] ، وهكذا جاء أجداد شوقى الى مصر غرباء زمن محمد ، ورأى الشاعر هذا التشابه الغريب ممثلا فى (يوسف الصديق) وكان من الوافدين الذين ربحت تجارتهم كما ربحت تجارة جد شوقى ، ولم يكن من الصعب على شوقى أن يحدث شيئاً من الانطباق الذاتى بينه وبين النبى (يوسف) كما سبق وأن شبه نفسه (بعيسى المسيح) وب (محمد) ، وهذا من باب الاساءة بحق الأنبياء كما تقدم ، وقد صار خديوى مصر يدعى (العزيز) ، وهو اللقب الذى أعطاه القرآن لوزير فرعون الذى اشترى يوسف ، ثم صار شوقى شاعر عباس حلمى ، أى شاعر العزيز ، وقد اعتد بهذا اللقب وأشار اليه فى البائية المعروفة . يقول :

شـــاعـــر الـــعـــزيـــز ومـــا   بـــالـــقـــلـــيـــل ذا اللقـــــب[2]

ويبدو فى شعر شوقى اتصال روحى مع مصر الفرعونية القرآنية ، فالاشارات الى يوسف متعددة ، وكثير منها اشارات ذاتية تدل بجلاء ووضوح على هذه النرجسية وحب الذاتب وعقدة تشبيه نفسه بالأنبياء والعظماء ، وله عدة مواقف فى ذلك . مثلا هناك فكرة العفاف التى تتردد فى غزلياته منتزعة من حياة يوسف ، أو من تلك الحادثة التى تصف علاقتـــه بامـــرأةالعزيز . وهذا يعين على فهم بعض الأبيات فى شعره بل هو المفتاح لبعض الابهام ، ففى الغزلية المشهورة (خدعوها بقولهم حسناء) هنالك بيت مستوحى من قصة يوسف كما ذكرها القرآن وأورده شوقى بهذا المعنى يقول :

جـاذبـتـنـى ثـوبـى الـعـصـى وقـالـت   أنـتـم الـنـاس أيـهـا الـشـعـراء[3]

قال تعالى : « وقدت قميصه من دبر »[4]

---

(١) قرآن كريم ـ سورة الأعراف (آية ١٦٠)
(٢) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٩ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ١١٢ .
(٤) قرآن كريم ـ سورة يوسف (آية ٢٧) .

وقد ورد ذكر الفراعنة فى القرآن الكريم كقوم ليس لهم ذكر جميل ، وليس من السهل على شوقى وهو مسلم ، دستوره القرآن ، وشاعر ملتزم ينظم فى اطار الخلافة والجامعة الاسلامية أن يقف على أطلال الفراعنة ويقوم بعملية ربط سياسى روحى دينى بين هذه الحضارة القديمة وبين الاطار القومى الاقليمى، وهو المفهوم السياسى الجديد الذى جاء به (رفاعة الطهطاوى) بعد عودته من فرنسا ، والى جانب الاطار القومى الاطار الدينى اذ تصدى للمواجهة بين حضارة الفراعنة وبين مصر القرآنية ، فجاء بحل لطيف أرضى به ضميره الشعرى وضميره الدينى ، ويتلخص هذا الارضاء فى معادلة مفادها أن الأنبياء ضيوف الفراعنة لجأوا اليهم فى محنهم ، يقول :

أين الفراعنة الألى استذرى بهم
عيسى ويوسف والكليم المصعق[1]
المووردون الناس منهل حكمه
أفضى اليه الأنبياء ليستقوا

وأن مصر الفرعونية أرض مقدسة ، هبطها الأنبياء ومشوا على ثراها ، ونزلت فيها أولى الشرائع ، كما أنجبت أم العرب ، فهاجر أم اسماعيل ما كانت سوى فتاة مصرية من أرض الفراعنة ، وقد توكأ شوقى على القرآن الكريم والشعر القديم فى تصوير هذا الربط الدينى السياسى بين حضارة الفراعنة ومصر اليوم . وهذا يعتبر تجديداً نابعاً من التراث لديه ، ففى نداء الأطلال مضمون أحسن معالجته القدماء ولكن شوقى أعطاه اطاراً جديداً ومعنى جديداً أحيا به المضمون القديم وأوضح مدى قابليته للتجديد ، وأما القرآن الكريم فقد أذاب كثيراً من أصدائه وأشذائه الفرعونية فى شعره فجاء وبه شىء من تداعى المعانى ، وكثير من الايحاءات القرآنية كما سيأتى ذكره .

وتعتبر المزاوجة بين مصر الفرعونية ومصر القرآنية نغمة جديدة سرت فى شعر الإحيائيين ومنهم شوقى ، ولعلها جديدة كل الجدة فى طريقة تناولها ، فقد اعتاد الشعراء والعلماء والمؤرخون أن يتحدثوا عن الفراعنة على أنهم زمرة من الطغاة ، عتوا فى الأرض وغذبوا الرسل وامتنهوا القيم الانسانية ، وقد استطاعت الكشوف الأثرية أن ترفع عنهم بعض اللعنة ، ليحتلوا مكانة لائقة .

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٩ .

ولقد جاء الحديث عن الحضارة المصرية القديمة من جانبين : الجانب الأول : مباهاة العالم بالحضارة المصرية القديمة كرد على دعوى الغرب باحرازه قصب التقدم والسبق ، وعلى رمية الشرق بالانحطاط والجهل والتأخر ، وأما الجانب الثانى : فهو محاولة الوحدة بين الأقباط والمسلمين عن طريق الحضارة المصرية القديمة التى خلفت هذه الأجيال التى اعتنقت الديانتين المسيحية والاسلامية .

وقصائد شوقى الفرعونية متفرقة فى ديوانه ، فأحيانا تبدو بشكل قصائد كاملة ، وأحيانا أخرى تأتى بشكل متفرق ، أما القصائد الكاملة والتى وردت فى ديوانه ، فمنها (ذكرى كارنافون) ، و (أبو الهول) ، و (توت عنخ آمون) ، و (أنس الوجود) ، و (أثينا) . ومنها على شكل مقاطع مركبة فى بناء القصائد مثل (كبار الحوادث فى وادى النيل) و (على سفح الأهرام) ، و (الرحلة الى الأندلس) و (أيها النيل) ، و (أندلسية) .

ويضفى شوقى الصبغة الاسلامية على شعره الفرعونى فى بعض قصائده لمحاولة المزاوجة بين مصر الفرعونية ومصر القرآنية كما ذكرنا إذ يقول :

تلك الرمال بجانبيك بقية ... من نعمة وسماحة ورماد [1]
ان نحن أكرمنا النزيل حيالها ... فالضيق عندك موضع الارفاد (٥)
هذا (الأمين) بحائطيك مطوفا ... متقدم الحجاج والوفاد
ان يعده منك الخلود ، فشعره ... باق ، وليس بيانه لنفاذ

... ...

قم قبل الأحجار والأيدى التى ... أخذت لها عهداً من الآباد

وأبيات شوقى هذه قالها فى حفل تكريم الأديب أمين الريحانى ، وهذا الحفل أقيم على سفح الهرم بالجيزة فالأبيات عليها هذه المسحة الاسلامية فى اقامة الشعائر الاسلامية ، فالشاعر (أمين) قصد مصر كالكعبة وهؤلاء الوفاد يطوفون بها كالحجاج ، هو يتقدمهم واذا جاوزه من الأهرامات الخلود فهو قد خلد بشعره وبيانه ، كأنما زيارة مصر وأهراماتها اقامة شعيرة من الشعائر الاسلامية وهى الحج .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١١٤ .
(٥) الأرفاد : الاعطاء .

أما البيت الأخير لشوقي (قم قبل الأحجار) ففيه استعارة ضمنية لفعل المسلم بالحجر الأسود (في الكعبة) عند تقبيله في مواسم الحج والعمرة .

أم القرى ــ ان لم تكن أم القرى ــ ومــشــابــة الأعــيــان والأفــراد [1]

ويقصد بها شوقي هنا (مصر) .. فهي وان لم تكن (مكة) والتي كنى عنها (بأم القرى) فهي أي مصر تؤوي الضيف وهي مثابة القوم ومحل اجتماعهم ، وقد استطاع شوقي أن يجانس بين القرى و القرى من باب المجانسة بين المعنوى والمادى ، ففي (أم القرى) دلالة على المنزلة المعنوية ، وفي (أم القرى) دلالة على المنزلة ، أما استعماله لكلمة (وبمثابة) الى جوار (أم القرى) ففيه نفس قرآني لأن مكة وفيها البيت الحرام الذى هو مثابة للناس ، قالى تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » [2] .

ويقول وهو يخاطب الأهرامات :

قــل لــلأعــاجــيــب الــثــلاث مــقــالــة   مــن هــاتــف بــمــكــانــهــن وشــاد [3]
لــلــه أنــت ، فــمــا رأيــت عــلــى الــصــفــا   هــذا الــجــلال ولا عــلــى الأوتــاد
لــك كــالــمــعــابــد روعــة قــدســيــة   وعــلــيــك روحــانــيــة الــعــبــاد
أســســت مــن أحــلامــهــم بــقــواعــد   ورفــعــت مــن أخــلاقــهــم بــعــمــاد

ففي أبياته هذا النفس الديني التعجبي ، إذ أنه قال (لله أنت) فهو رد أمر هذا التعجب لله سبحانه وتعالى فهو أعلم بأمر عظمة هذه الأهرامات ، وقد استطاع شوقي أن يعبر عن عظمة المسيحية وعظمة الاسلام : المسيحية من النقوش والطابع الجمالي في الكنائس وعظمتها وذلك بقوله مخاطباً الأهرامات (لك كالمعابد روعة قدسية) ، والاسلام في الصيغة المجردة الجليلة البعيدة عن الحسي والمادى بقوله (وعليك روحانية العباد) .

وقد أحسن شوقي عملا حين قام بعملية مزج وتداخل بين التاريخ الفرعوني والتاريخ الاسلامي وذلك ما لمسناه في قصيدة (توت عنخ آمون) إذ يقول :

---

(١) ديوان شوقي ــ ج ١ ــ ص ١١٤ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ آية ١٢٥ .
(٣) ديوان شوقي ــ ج ١ ــ ص ١١٣ .

قفى ــ يا أخت يوشع ــ خبرينا   أحاديث القرون الغابرينا [1]
وقصى من مصارعهم علينا   ومن دولاتهم ما تعلمينا

... ...

أأم المالكين بنى (أمون)   ليهنك أنهم نزعوا (آمونا)
ولدت له (المأمين) الدواهى   ولم تلدى له قط (الأمينا)

... ...

تعالى الله ، كان السحر فيهم   أليسوا للحجارة منطقينا

فشوقى يخاطب ــ أخت يوشع ــ الشمس وقد ورد فى غير هذا الموضع من البحث ذكرها وقصة ترحلها ليوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام ، يسأل الشمس عن أحاديث الأجيال الماضية ، ومنهم الفراعنة بناة الأهرام الخالدة . حاول شوقى بذلك المزاوجة بين التاريخ الاسلامى عندما ذكر الخلفاء (الأمين ، المأمون) من بنى العباس مع التاريخ الفرعونى بذكره (آمون) ، وقد اختار شوقى الخليفة (المأمون) لأنه أفضل بنى العباس حزماً وحلماً ، ودهاء ، ليشبه آمون به ، ولم يقتصر الأمر على التداخل بين التاريخ الاسلامى والتاريخ الفرعونى بل امتد عنده الى الناحية الأسلوبية ، فقد أورد أسماء (آمون) (الأمين) ، (المأمين) وذلك ليخلق تداخلا من الناحية الصوتية أيضاً ، ونلاحظ أيضاً النفس القرآنى الذى أورده شوقى فى البيت الثانى من الأبيات السابقة بقوله : (قصى من مصارعهم ..) اشارة الى قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص » [2] .

ولشوقى بعض المواقف التى يقوم فيها بعمليات المزاوجة بين مصر الفرعونية ومصر القرآنية ، لكن هذه المواقف تعتبر من السقطات عنده فقد أورد فى قصيدة (أيها النيل) قوله :

لو رد فرعون الغداة ، لراعه   أن الغرانيق [*] العلى لا تنطق [3]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٢٦ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ آية ٣ .
(*) الغرانيق : جمع غرنيق ، الشاب الأبيض الجميل ، ويقصد التماثيل فى القصيدة .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٦٨ .

ففى بيته هذا اشارة خفية الى (الغرانيق العلا) والتى استخدمت فى حروب الردة ، وقد ادعى مسيلمة الكذاب أأن الرسول محمد (ص) يعبد تماثيله سنة ، لذا فمسيلمة يعبدها سنة . وحديث الغرانيق ، رواه غير واحد من كتاب السنة ، وأشار اليه غير واحد من المفسرين . ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا وهو حديث ظاهر التهافت وينقض ما لكل نبى من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . وهذا الحديث هو من وضع الزنادقة الذين حاولوا تسويفه فأخذوا تحريف الآيات ، أما الرسول (ص) فهو الأمين الذى بعثه الله هدى وبشرى للعالمين .

وقد نزلت صورة النجم وورد فى سياقها دليل قوى وقاطع بعدم وجود مسألة الغرانيق ، قال تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس وقد جاءهم من ربهم الهدى »[1] .

وحين يتناول شوقى قصيدة (أبو الهول) وهو الأثر الخالد من آثار مصر الفرعونية ، يضفى عليها النفس الدينى والتاريخى بجميع مراحله فى محاولة لتداخل هذه العناصر كما فعل فى قصائده السابقة ، إذ يقول :

أبا الهول ، طال عليك العصر ... وبلّغت فى الأرض أقصى العمر[2]

... ...

أبا الهول ، أنت نديم الزما ... ن ، نجى الأوان ، سمير العصر

بسطت ذراعيك من آدم ... ووليت وجهك شطر الزمر

... ...

وأنست موسى وتابوته ... ونور العصا ، والوصايا الغرر

وعيسى يلم رداء الحيا ... ء ، ومريم تجمع ذيل الخفر

وعمرو يسوق بمصر الصحا ... ب ، ويزجى الكتاب ويحدو السور

فكيف رأيت الهدى ، والضلا ... ل ، ودنيا الملوك ، وأخرى عمر؟

---

(١) قرآن كريم ـ سورة النجم ـ آيات ١٨ ـ ٢٣ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٣٢ .

استخدم شوقي هذا النفس الديني القرآني التاريخي في قصيدته هذه الى جانب صورة (أبو الهول) التي ترتبط في ذهن الشاعر بالخلود .

واستخدم شوقي الاشارة القرآنية في قوله :

بسطت ذراعيك من آدم ... ووليت وجهك شطر الزمر [1]

هذا الاستخدام اشارة الى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا » [2] .

والى جانب ذلك فقد أورد الشاعر أسماء الأنبياء (موسى – عيسى) ومريم العذراء كشخصية مقدسة ، ومن أعلام التاريخ الاسلامي عمرو بن العاص وهو يسوق المسلمين لفتح مصر ، ويزجى كتاب الله وآياته .

لقد أتى شوقي بهذا الزخم الهائل من الألفاظ ، والأسماء ليرصها في قصيدته هذه ، ولكن الملاحظ على القصيدة بصورة عامة أن فيها صوراً متناقضة ، فأبو الهول عنده يمثل صور القوة والجبروت والبطش والتنبؤ ، إذ يقول :

فيالدة الدهر ، لا الدهر شب ، ... ولا أنت جاوزت حد الصغر [3]

... ...

تحيرت البدو ماذا تكو ... ن وضلت بوادى الظنون الحضر

فكنت لهم صورة العنفوا ... ن ، وكنت مثال الحجى والبصر

... ...

كأن الرجال على جانبيك ... وبين يديك ذنوب البشر

ولأن أبا الهول لا يمثل لشوقي هذه الصورة وحدها ، بل يمثل له صوراً أخرى مناقضة تقف على الطرف الآخر ، انه بالنسبة اليه مظهر للضعف والشلل والعجز ، يقول :

تهزأت دهرا بديك الصبا ... ح فنقر عينيك فيما نقر [4]

أسال البياض وسل السواد ... وأوغل منقاره في الحفر

---

(١) ديوان شوقي – ج ١ – ص ١٣٧ .

(٢) قرآن كريم – ج سورة الزمر – آية ٧٣ .

(٣) ديوان شوقي – ح ١ – ص ١٣٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٣٥ .

فعدت كأنك ذو المحبسين ، قطيع القيام سليب البصر

فأبو الهول لدة الدهر الخالد الذى ركب متن الرمال أصبح ضعيفا أمام ديك من ديوك الدهر ، جعله قطيع الكلام بعد أن سلب عينيه .

فهنا نلاحظ تناقض الصور حيث يعجل شوقى بتحطيم أبا الهول تماماً عندما يقول :

فلم يبق غيرك من لم يخف ولم يبق غيرك من لم يطر [1]
تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر

والصور التى قدمها شوقى في قصيدته لا تحمل أى أثر موحد مترابط لموضوع واحد يعرض فى أشكال يؤكد أو يشد أو يسلم بعضها الى بعض ، ولا يعود ذلك فحسب الى أن أبا الهول لايمثل رمزاً واحداً فى ذهن الشاعر أو لا يشير الى شيء معين ، وانما يعود أيضاً الى أن شوقى كغيره من الشعراء الكلاسيكيين ، كان فنه يفتقد الى الاطار النسقى ، والنظرة الكلية ، والوحدة العضوية والنفسية ، والرؤية التى لاتقف عند حدود الصور بذواتها بغض النظر عن صلاتها ، وانما تتجاوزها الى العلاقات ، فالعلاقات وحدها هى القادرة على ايجاد الفن السليم .

ولقصائد شوقى الفرعونية مكانة خاصة فى أعماله الشعرية ، إذ أضافت هذه القصائد مضموناً جديداً لديوان الشعر العربى أحلّ شوقى محلا فريداً بين شعراء العرب قديماً وحديثاً ، فشعراء العرب فى العصور الوسيطة مروا على مصر الفرعونية مرور الكرام كما فعل (المتنبى).وكان شعرهم أحياناً ينبيء بعدم صحة المعلومات مثل (البحترى)الذى جعل الفراعنة أعراباً من تنوخ . ولكن زاد حظ مصر الفرعونية من الشعر العربى عندما نظم فيها شعراء الاحياء البارودى وصبرى وحافظ . أما شوقى فقد رافقته مصر الفرعونية طيلة فترات حياته ، فمن مطلع حياته حتى نفيه الى أسبانيا ، ومن فترة رجوعه من المنفى حتى مماته ، كان شعره مبنياً على العلم ، لأنه عاصر الاكتشافات الأثرية التى تلت حل رموز الهيروغليفية والتى كشفت عن معالم تلك الحضارة العجيبة ، لذا فقد نجح فى بعث هذه الحضارة واضفاء هذه الصبغة الدينية الاسلامية عليها ليثير اعجاب الناس .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٤٤ .

إضفاء حقائق الاسلام على الديانات الأخرى :

يحدثنا شوقي عن الفترة التي تشوق الناس فيها الى معرفة الحقيقة الالهية ، فلم يجدوا لهم مرشداً ولا هادياً من الكتب السماوية والأنبياء ، فذهبوا في الديانة مذاهب شتى وتنوعت مذاهبهم ، وتعددت لديهم المعتقدات .

فقدماء المصريين مثلا كانوا أول أمرهم يعتقدون بوجود اله واحد ورمزت كل قبيلة له برمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذه الالهه برموز صارت بعد . ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير محسوس في حياتهم كالشمس والنيل ، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان فعبدو العجل (أبيس) والقط والكلب وما الى ذلك .

وهم في كل هذا يطمحون الى (الحقيقة الزهراء) وهي وجود الاله وتوحيده ، فغايتهم هي عبادة الاله الواحد ، ولكن ضلت بهم الوسائل ، ويذكر شوقي بعض الكائنات التي عبدها قدماء المصريين فيذكر أنهم عبدوا كل ما له قوة أو تأثير محسوس في حياتهم ، وانهم عبدوا كل شيء فيه لمحة جمال ، وعبدوا التماثيل والكواكب والنباتات والجبال ، والملوك ، والبحار ، والأسماك ، والرياح والأمطار ، وجوارح الطير والحيوان ، وعبدوا الأرحام ، وعبدوا أمهاتهم وآبائهم ، ثم يذكر من آلهتهم « ايزيس » الهة التمر عند القدماء ، ويذكر أن قدماء المصريين ماعبدوا هذه الكائنات الا رموزا تومىء لذات الله العلية التي يخضع لها الجميع . وتعد كل انثى من هذه الأشياء المعبودة أمة له ، كما يعد كل ذكرا عبداً ، فالله سبحانه وتعالى هو السر الذي يجمع الفضائل ويتصف بكل كمال وله في الكون آيات يستطيع الناس بالتأمل فيها أن يعرفوا الله على حقيقته ، وأن يروه بكل وضوح على الرغم من احتجابه عن الأبصار .

والتوحيد هو الخط الذي يسري في العقيدة المصرية منذ القدم الى العصور الحديثة . يقول شوقي من قصيدة (أيها النيل) :

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم ... عيسى ويوسف والكليم المصعق [1]

المورِدون الناس منهل حكمة ... أفضى اليه الأنبياء ليستقوا

---

(١) ديوان شوقي — ج ٢ — ص ٦٦ .

يشبه الحكمة التى امتاز بها الفراعنة بمنهل يستقى منه الأنبياء ، وهذا يدل دلالة على أن الأنبياء الذين مروا على مصر استقوا الحكمة من الفراعنة . وهو ربط بين الأنبياء والحضارة المصرية القديمة .

يقول شوقى :

رب شقت العباد أزمان لا كتب ... بها يهتدى ولا أنبياء؟ [1]
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى ... جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قويا الها ... فله بالقوى اليك انتهاء
واذا آثروا جميلا بتنزيـ ... ـه ، فان الجمال منك حباء
واذا أنشأوا التماثيل غرا ... فاليك الرموز والايماء

ويعدد شوقى ذكر المعبودات ويخص بالذكر « ايزيس » وبأن قدماء المصريين يعدونها خيراً (فلها اليد البيضاء) عليهم ان حلت فى البر نما الزرع وفاض الخير ، أو فى البحر سارت الرياح رخاء لينه تدفع السفن وتسير وسائل الاتصال ، وان حلت فى الأفق فهى « ايزيس » التى ترسل على الكون ضياءها وتمد الكائنات بالدفء وتبعث فيهم النشاط والحياة ، وهى تحل فى كل عضو من جسم الانسان فهى حركته وحياته ، يناديها القدماء بربة الكون .

وإذا كان القدماء قد اتخذوا لها التماثيل فما ذلك الا للرمز والتقريب (والتمثيل يدنى من لا له أدناه) ، ويشير شوقى الى أن اليونان جعلوها الهتهم من بعد المصريين وكذا جميع القدماء فالكل قد أحبوها ، ودانوا لها بالعبادة والتقديس ، ولهذا كان المصريون القدماء يعدونها من مفاخرهم . يقول شوقى مشيراً الى كل هذه المعانى :

سجدت مصر فى الزمان لايزيـ ... ـس الندى ، من لها اليد البيضاء [2]
ان تل البر ، فالبلاد نضار ... أو تل البحر ، فالرياح رخاء

استخدم شوقى هنا كلمة (السجود) بالمعنى اللغوى أو الخضوع والانقياد وهو غير معناها الاسلامى الذى نعرفه أى السجود الذى هو ركن من أركان الصلاة .

ويعتذر شوقى عن ضلال المصريين القدماء فى عبادتهم ويتوجه بالاعتذار الى ربه قائلا ان ما دعاهم الى هذه العبادات هو خوفهم من الله ورجاؤهم له ، وحبهم لذاته

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٥ : ٢٦ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٢٦ .

الكريمة فواصلوا التفكير ، وأعملوا الأذهان والعقول لكى يتوصلوا الى حقيقته ، ولكن عقولهم كانت ماتزال فى (صباها) وعلى بدائيتها ، وكانوا يفتقرون الى مرشد يهديهم سواء السبيل ، فما وجدوا مرشدا فكان ان ضلوا السبيل ، ولو جاءهم كتاب من السماء لعرفوا منه الله على حقيقته ، وهكذا يبرهن الانسان دائماً على قصور عقله وتفكيره وانه يعجز دائماً عن الوصول الى كنة المخلوقات وحقيقتها ما لم تدركه هداية السماء التى يأتيه بها الرسل والأنبياء .

يقول شوقى وهو يشير الى ذلك :

رب ، هذى عقولنا فى صباها نالها الخوف ، واستباها الرجاء [١]
فعشقناك قبل أن تأتى الر سل ، وقامت بحبك الأعضاء

وهناك اشارات أخرى فى شعر شوقى الى ديانات المصريين القدماء ، نجدها فى قصائد متفرقة ، ففى الهمزية مثلا يقول عن (ايزيس) :

ايزيس ذات الملك حين توحدت أخذت قوام أمورها الأشياء [٢]

وهو يشير بذلك الى أن الاتحاد والتآلف هما سر نظام الكون واستقرار الحياة .

ويقول فى ملحمة (كبار الحوادث فى وادى النيل) متحدثاً عن الفراعنة :

وبنو الشمس من أعزاء مصر والعلوم التى بها يستضاء [٣]

وهو هنا يشير الى اعتقاد المصريين القدماء بأن الملوك كانوا نسل الشمس . وهذا يطابق اعتقادهم بأن الملوك من نسل الآلهة ، لأن الشمس كانت عندهم من الآلهة المعبودة وفى نفس القصيدة يخاطب شوقى رمسيس الثانى بقوله :

لك آمون ، والهلال اذا يكبر ، والشمس ، والضحى ، آباء [٤]

ويخاطب شوقى أبا الهول بقوله :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٥ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٨ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١ .

ألـم تـبـل فـرعـون فـى عـزه ... الى الـشـمـس معـتـزيـا (٠) والـقـمـر (١)

وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صورة (اوزوريس) (الشمس) ، و (إيزيس) (القمر) لأنهما من معبوداتهم فلعله يشير الى هذا المعنى إذ يقول من نفس القصيدة مخاطباً أبا الهول :

رأيـت الـديـانـات فـى نـظـمـهـا ... وحـيـن (٠) وهـى سـلـكـهـا وانـتـثـر (٢)
تـشـاد الـبـيـوت لـهـا كـالـبـرو ... ج ، إذا أخـذ الـطـرف فـيـهـا انـحـسـر
تـلاقـى أسـاسـاً وشـم الـجـبـا ... ل ، كـمـا تـتـلاقـى أصـول الـشـجـر

ويشير شوقى فى شعره الى معابد المصريين حين يخاطب أبا الهول والى بعض الآلهة التى كانوا يعبدونها ويعظمونها .

وروى ان اله الشر (ست) تغلب أخيراً على (اوزوريس) اله الخير فقتله فتقمص روحه جسد عجل . وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقى . وكانوا يعتقدون أن العجل الذى تقمص روح (أوزوريس) هو ابن بقرة حملت به بواسطة شعاع من الشمس وشعاع من القمر ، وله علامات ظاهرة فى جسده إذ يكون أسود اللون وفى وجهه سمة بيضاء مربعة وصورة نسر على ظهره ، وصورة خنفساء تحت لسانه .

وليس هذا هو كل ما فى شعر شوقى من اشارات الى الديانات المصرية القديمة ولكن ما لم نذكره لايخرج فى مضمونه عما ذكرنا .

الديانة الموسوية :

ما من رسول أرسله الله قبل محمد (ص) الا أيده بالمعجزات التى تثبت أنه يبلغ رسالة السماء ، ولا يأتى بما يقول من عند نفسه ، وقد أيد الله موسى (عليه السلام) بمعجزات باهرة ، منها عصاه التى أبطلت أعمال السحرة الذين جمعهم فرعون ليقفوا من موسى موقف التحدى من هذه المعجزة السماوية ، فاطمأنت اليه قلوب المؤمنين وعرفوا ان ما جاء به من قبيل السحر إنما هو معجزة أيد بها من السماء ليعرف الناس أنه رسول

---

(٠) معتزياً : من (اعتزى الى الشىء) إذا انتمى إليه .
(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٣٧ .
(٠) وحين وهى تسلكها : فى حالتى قوتها وضعفها .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٤٠ .

الله أتاهم بالدين الحق . وهكذا يريد الله للانسان أن يحكم عقله في كل أموره ، وأن يطمئن الى ما يبدو له من رأى سديد وحقيقة ظاهرة قوية واضحة ، يقول شوقى متحدثاً عن موسى (عليه السلام) :

حجنا في الزمان سحرا بسحر واطمأنت الى العصا السعداء [1]

واستعمال شوقى اسم (السحر) لعصا موسى انما هو من قبيل المجاز ، لمجاورتها لما ذكره من سحر المصريين القدماء ، ولوجود التشابه الظاهرى بين أثر العصا وبين السحر والا فان تلقف العصا لحبال السحر وعصيهم لم يكن سحرا وانما هو معجزة من الله أيد بها رسوله (موسى) عليه السلام ، ولو كانت سحراً لما تأتى منها أن تتغلب على سحر المصريين القدماء لأن سحرهم لم يكن يضارعه سحر ولكنهم الخبيرون بهذا الشأن عرفوا أن ما صدر من العصا انما هو شيء فوق مراتب السحر ، وفوق ما يطيقه السَحرة ، لذلك كانوا أول المؤمنين بموسى (عليه السلام) . « قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » [2]

وموسى (عليه السلام) ولد في مصر فأتى هذا المولد الى الكون بالهداية والمحبة والتراحم وأضاء موسى وجه الأرض بما لديه من التعاليم السماوية حتى صار مبعث الفخر لهذا الكون ، يقول شوقى :

مصر موسى عند انتماء ، وموسى مصر أن كان نسبة وانتماء [3]

فموسى هو الذى أرشد المصريين القدماء الى عقيدة التوحيد الصحيحة ، وخلصهم مما كانوا فيه من حيرة وتشتت في العبادة :

واتخذنا الأسماء شتى ، فلما جاء موسى انتهت لك الأسماء [4]

أما فرعون الذى ربى موسى فى عز ملكه فقد كاني يعتقد بأن موسى سيظل وفيا له مدى الحياة ، ولم يدر بخلده يوما أن موسى سوف يلبى أمر ربه ويخرج عن طاعته ، ويجزيه على احسانه وتربيته عقوقاً وعصياناً .

ولكن ارادة الله رأت لموسى أن يعق من رباه وهكذا يكون وفاء الأنبياء لله وحده لا لغيره ، فما كان لفرعون على موسى من فضل ، ولقد أراد فرعون يوما أن يقتل موسى ،

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٧ .
(٢) قرآن كريم — سورة طه آية ٦٥ : ٦٧ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٧ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٧ .

ولكن ارادة الله غلبت فرعون ، فكأن الله صرفه عن ذلك بلطفه ودقة حكمته ، فالفضل الذى يدين به موسى لله وحده وليس لفرعون على موسى من فضل .

فالله يحيط أنبياءه ورسله دائماً بعنايته ورعايته ، منذ ولادتهم حتى نهاية حياتهم . ولذا كان وفاؤهم لله وحده ، لأنهم لايعرفون لهم راعياً ولا حافظاً فى الدنيا سواه ، وفى هذا يقول شوقى :

ظن فرعون أن موسى له وا ف ، وعند الكرام يرجى الوفاء [1]
لم يكن فى حسابه يوم ربى أن سيأتى ضد الجزاء الجزاء
فرأى الله أن يعق ، ولله تفى ــ لا لغيره ــ الأنبياء

والصلة بين موسى وبين مصر صلة وثيقة ، ان مصر هى وطنه فيها ولد وبها تربى ونشأ ، إذا نسب موسى فالى مصر ينسب لا الى غيرها من البلاد .. ومصر شرفت بأن موسى من أبنائها ، ومن الأنبياء الذين بعثوا فى أرضها وبثوا دعوتهم بين أهلها ، وان مصر لتفخر بهذا أيما فخر ، وهل للأماكن والبقاع من شرف أعلى من انجابها للرسل والأنبياء ؟ واذا كانت مصر قد نالت موسى بالأذى والاضطهاد فان هذا لايحول بينها وبين الفخر به ، ان مصر لم تجف موسى الا فى ساعة الشك ، وتلك سنة الله فى كل قوم يبعث فيهم نبى أو رسول فليست مصر بهذا بدعا فى البلاد ، وان كانت مصر فى الحقيقة طبعت ــ كما يدعى شوقى ــ على جفوة الكبراء والعظماء وكان هذا من أسباب الشقاء لأهلها ولديارهم وأبنائهم .

ولذا فقد أصابهم على يد موسى أن غرق فرعون ، وغرق معه الكثيرون ممن أضلهم فرعون من أبناء البلاد .

ان من عظائم الأمور وكبائر الحوادث الا يصان الكبراء والا يحفظ الناس كرامة رجال الاصلاح ، يقول شوقى :

مصر موسى عند انتماء ، وموسى مصر ان كان نسبة وانتماء [2]
فيه فخرها المؤيد ، مهما هز بالسيد الكليم اللواء
ان تكن قد جفته فى ساعة الشك فحظ الكبير منها الجفاء

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٧ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٧ ــ ٢٨ .

خلة للبلاد يشقى بها النا   س ، وتشقى الديار والأبناء
فكبير الا يصان كبير   وعظيم أن ينبذ العظماء

وفي شعر شوقي اشارات كثيرة الى موسى (عليه السلام) وديانته ومنها قوله في قصيدة (أبو الهول) يخاطب هذا الأثر الفرعوني الخالد :

وآنست موسى وتابوته   ونور العصا ، والوصايا الغرر [1]

وفي البيت اشارة الى التابوت (أو السلة) الذي ألقى فيه موسى بيد أمه ، ثم قذفت به في اليم وعصاه وما كان منها من الأيات والوصايا العشر .

ولقد ورد ذكر هذا التابوت في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى مخاطباً نبيه موسى : « إذ أوحينا الى أمك ما يوحى. ان اقذفيه في التابوت. فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له . والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » [2] .

وكذلك عصا موسى ورد ذكرها في القرآن الكريم قال تعالى : « فألقى موسى عصاه فاذا ذي تلقف ما يأفكون » [3] .

وأما الوصايا العشر فقد وردت بعض آيات في القرآن الكريم تشير الى الألواح التي اشتملت عليها في مواضع متعددة منه قال تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » [4] .

وقال تعالى : « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » [5] .

ولقد اعتمد الشاعر شوقي على المأثور القرآني في ذكره لموسى وفرعون وله فلسفة في ذلك إذ أن فرعون وأعوانه أسوأ نماذج للانحرافات القيادية اللاإنسانية ، فقد اتهموا جميعاً بالطغيان والتكبر والبطش والجبروت والقرآن الكريم خير دليل على ذلك ، يردد اسم فرعون مقروناً بالبطش والجبروت وفي كل مرة تأتي الآيات بتفاصيل جديدة عن انحرافاته اللاإنسانية وقيادته التي جرت الويلات على جنوده . إذ أن فرعون واحد من

---

(١) ديوان شوقي ـ ج ١ ـ ص ١٤١ .
(٢) قرآن كريم ـ سورة طه (آية ٣٧ : ٣٩) .
(٣) قرآن كريم ـ سورة الشعراء (آية ٤٥) .
(٤) قرآن كريم ـ سورة القصص (آية ٤٣) .
(٥) قرآن كريم ـ سورة الأعراف (آية ١٥٤) .

أولئك الذين اجتمع لهم الجهل والمال والسلطان ، وكل تلك أمور تفسد القيادة وتجعلها تتخبط فى ضلالاتها العمياء ، فتأتى الآيات لتخرج الانسان من ظلمات الجهل الى نور المعرفة بالله،وبحقوق الآخرين وتهون من شأن المال والمترفين والحياة الدنيا حتى لايغتر الانسان بغرورها ، وتضع للقيادة الانسانية حدوداً لاتتعداها فتلزمها بالعدل والشورى والحكم بما أنزل الله .

ثم إن فرعون وملأه وجنوده مستكبرون في الأرض ؛ ولا يخفى ما لهذه الاشارات جميعاً من دلالات علىٰ أن الظلم والطغيان يبدآن فرديين ثم يتحولان فيصبحان جماعيين . وأراد شوقى أن يقول إن كل طاغية مصيره مصير فرعون وجنوده .

وفى الشوقيات مواضع أخرى ردد شوقى فيها الحديث عن موسى وديانته قال :

أرسلت بالتوراة موسى مرشداً ... وابن البتول فعلم الانجيلا [1]

ديانة عيسى (عليه السلام) :

يذكر شوقى المسيح فى شعره ، فالمسيح عيسى بن مريم يصفه بأنه رسول من الذين أرسلهم الله الى الناس لهدايتهم وتعليمهم الخطأ والصواب والهدى والضلال ، والمؤمنون بالرسل هم الذين يتسجيبون لنداء الله،ونداء الفكر الانسانى الذى أثبت الله لهم وجوده وقدرته بالآيات البينات ، ولشوقى عن المسيح مواقف كلها حب واعتزاز واجلال ، وفى ملحمة شوقى (كبار الحوادث فى وادى النيل) يشير الى ما جاء به عيسى (عليه السلام) من هداية سماوية أخرجت الناس من ظلمات الجهل والضلالة الى نور الهداية والتوحيد ، كما يشير الى دعوة المحبة والسلام والتسامح التى حملها الى الناس يقول :

وسرت آية المسيح ، كما يسرى ... من الفجر فى الوجود الضياء [2]
تملأ الأرض والعوالم نورا ... فالثرى مائج بها ، وضاء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام ... لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء

ولا ينسى شوقى أن يسجل تلك الحادثة العظيمة ، ألا وهى رفع المسيح الى السماء ، يقول :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨١ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨ .

مـلـك جـاور الـتـراب ، فـلـمـا مل نـابـت عـن الـتـراب الـسـمـاء [1]
وأطـاعـتـه فـي الالـه شـيـوخ خـشـع ، خـضـع لـه ، ضـعـفـاء
أذعـن الـنـاس والـمـلـوك الـى مـا رسـمـوا ، والـعـقـول ، والـعـقـلاء

والى هذه الحادثة يشير القرآن الكريم : « إذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » [2]

ويتعرض شوقى كذلك لموضوع صلب المسيح وأن المسيحيين يعتقدون بالصلب ، أما الاسلام فينفي حادثة الصلب ، ويذكر أن المسيح لم يصلب وانما الذى صلب هو رجل آخر صوره الله بصورة المسيح ، فصلبه اليهود معتقدين أنه المسيح ، قال تعالى : «ولكن شبه لهم» [3] .

وشوقي ، مسلماً ، لايؤمن بحادثة وإنما هو مؤمن بما جاء في القرآن الكريم ولذلك فهو يقول فى معرض حديثه عن العلماء والمصلحين ، وما يلقونه دائماً من عداء فى مجتمعاتهم :

أو كـل مـن حـامـى عـن الـحـق أقـتـنـى عـنـد الـسـواد ضـغـائـنـا وذحـولا [*] [4]

ويعبر شوقى عن اعتقاده بنفى الصلب فى عبارة صريحة إذ يقول فى قصيدة أخرى :

لـولا مـكـان لـعـيـسـى عـنـد مـرسـلـه وحـرمـة وجـبـت لـلـروح فـى الـقـدم [5]
لـسـمـر الـبـدن الـطـهـر الـشـريـف عـلـى لـوحين ، لم يـخـش مـؤذيـه ، ولـم يـجـم
جـل الـمـسـيـح ، وذاق الـصـلـب شـانـئـه ان الـعـقـاب بـقـدر الـذنـب والـجـرم

ويعالج شوقى هنا مسألة حساسة للاسلام فيها رأى واضح صحيح وهو أن عيسى (عليه السلام) لم يصلب ولم يقتل وانما شبه لليهود الذين أرادوا الايقاع به ، فموقفه هنا يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم من أنه لم يتم صلب ولا قتل ، ولكنه يسوق العبارة

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) قرآن كريم ــ سورة آل عمران (آية ٥٥) .
(*) ذحول : جمع ذحل وهو الثأر .
(٣) قرآن كريم ــ سورة النساء (آية ١٥٧) .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٨١ .
(٥) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

عن ذلك فى حرص شديد ولباقة بارعة ، فهو لايريد أن يدخل فى جدل بين المسلمين وبين جيرانهم واخوانهم المسيحيين ، فيقول انه لولا مكانة المسيح عند الله تعالى لتمكن خصومه اليهود من صلبه والتمثيل به ، و « لولا » كما نعرف أداة شرط تفيد الامتناع لوجود.أى أن مكانة عيسى الثابتة المكينة من ربه وهى حقيقة واقعة هى التى جعلت صلبه أمراً مستحيلا ، فالصلب إذن لم يقع.وأن يكن شوقى قد تلطف فى نفيه حرصاً على شعور المؤمنين به بغير أن يخرج فى ذلك عما تقتضيه عقيدة المؤمن بالاسلام .

وبهذا تحولت أماكن العبادة المصرية القديمة ــ وهى الهياكل ــ الى ما يشبه أديرة يعبد فيها الله على دين عيسى المسيح ، تشع فيها أنوار العبادة الحقة وإذا الدعوة بعد تنتشر فى كل أرجاء البلاد ، وفى كل جنبات الوادى ، يقول :

وأطاعته فى الاله شيوخ   خشع ، خضع له ، ضعفاء [1]

...   .

فاذا الهيكل المقدس دير   واذا الدير رونق وبهاء

انما الأرض ملك لله ، وقد أرسل اليها ملوك الحقيقة وهم الأنبياء ، وان من واجب الناس نحوهم أن يمنحوهم الحب الخالص والوفاء الصادق ، وما ديانات هؤلاء الأنبياء الا سبل الخير والهداية وكل من ينكرها فهو خاسر شقى بهذا الانكار :

انما الأرض والفضاء لربى   وملوك الحقيقة الأنبياء [2]

لهم الحب خالصاً من رعايا   هم ، وكل الهوى والولاء

انما ينكر الديانات قوم   هم بما ينكرونه أشقياء

ويردد شوقى اسم السيد المسيح (عليه السلام) كثيراً فى شعره إذ يقول :

عيس سبيلك رحمة ومحبة   فى العالمين ، وعصمة ، وسلام [3]

...   .

يا حامل الآلام من هذا الورى   كثرت عليه بإسمك الآلام

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٨ .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٨ .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٣٤ .

ولا يمل شوقى من ذكر السيد المسيح (عليه السلام) فى كل مناسبة ، وها هو فى خضم المديح الذى يغمر به رسول الله الاسلام لا ينسى أن يذكر السيد المسيح وما له من معجزات ، يقول مخاطباً النبى محمداً (ص):

أخوك عيسى دعا ميتا ، فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم

(اشارة الى معجزة احياء الموتى) .

وشوقى يحب المسيحية ويحترم ما فيها من مبادىء سامية ولكنه يحمل على سلوك كثير من البلاد المسيحية التى تصب اضطهادها وظلمها باسم الدين . وهو يعنى بغير شك تلك البلاد الاستعمارية التى لم تخب فيها النزعات الصليبية والتى تعرض كثير من البلاد الشرقية لوطئتها الاستعمارية .

ديانات أخرى :

ثم يتعرض شوقى للفترة التى انقضت ما بين عيسى وبين ظهور الاسلام . وكيف أن ظلام الجهل قد عمّ الناس فى شرق الأرض وغربها ، يفتك الجهل بالأفئدة ويفتك الجهلاء بمن حولهم من الخلق ، ويضل الناس فى عبادتهم ، فيعبدون الأشخاص ، والشهب ، والصخور الصماء ، وأصبح الناس يدينون بالولاء والخضوع الى الأوثان .

يقول شوقى :

أظلم الشرق بعد قيصر والغر ب ، وعم البرية الأدجاء [1]

فالورى فى ضلاله متماد يفتك الجهل فيه والجهلاء

ويشير شوقى فى موضع آخر الى المجوسية ولكنه فى هذا الموضوع يعرض نفسه للنقد والمآخذ ، فعندما يصف المعركة التى دارت بين الترك وبين الروم فى سهل فرسال ، يصور الوغى بالنار ويصور جنود الترك بالمجوس الذين يقدمون القرابين لنيراهم تقديساً لها وتعظيماً ، فالجنود يتخذون من الأعداء ذبائح يتقربون بها الى نيران المعركة زلفى ، والصورة الشعرية لاتنسى الاشارة الى تفانى المسلمين فى تقتيل الأعداء وتذبيحهم ، وما يشوبها من تشبيه المسلم بالمجوسى . وما كان أغنى شوقى عن هذا التصوير إذ فى اللغة العربية الصورة تختلف ، هو يشبه اقبال المسلمين على الحرب باقبال المجوس على

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٩ .

النار ، هؤلاء يندفعون نحو الحرب تقرباً وعبادة ، والمجوس يندفعون نحو النار تقرباً للاله وعبادة ، فلا ضير من تشبيه الفعل بفعل المجوس لا المسلمين بالمجوس .

وفى قصيدة أخرى يشير شوقى الى ديانات الهند مع الاشارة الى ديانات أخرى الى جانب المسيحية واليهودية وديانة المصريين القدماء فيقول على لسان المطرية (٠) :

أنـا الـتـى كـنـت سـريـرا لـمـن ... سـاد (كـادورد) زمـانـا وشـاد (١)
قـد وحـد الـخـالـق فـى هـيـكـل ... مـن قـبـل سـقـراط ومـن قـبـل عـاد
وهـذب الـهـنـد ديـانـاتـهـم ... بـكـل خـاف مـن رمـوز وبـاد
ومـن تـلامـيـذى مـوسـى الـذى ... أوحـى مـن بـعـد الـيـه فـهـاد

ويتحدث شوقى عن الأديان ومجموعاتها المختلفة التى عمت الجزيرة العربية وغيرها من الانحاء قبل الاسلام يقول :

والـديـن بـيـن الـقـدمـاء عـدوى ... يـقـطـع أجـواز الـقـفـار عـدوا (٢).
نـار الـمـجـوس وجـدت مـجـازا ... وابـن سـنـان أنـقـذ الـحـجـازا
بـقـيـة تـؤمـن بـالـجـلـيـل ... يـتـبـعـون مـلـة الـخـلـيـل
وعـصـبـة عـلـى هـدى الأحـبـار ... أهـل كـتـاب يـعـبـدون الـبـارى

ثم يصف شوقى البيت الحرام وحالته قبل الاسلام :

ومـعـبـد مـشـتـرك مـشـاع ... كـل الـعـبـادات بـه مـشـاع (٣)

وكان من الطبيعى الا يتوسع فى الحديث عن هذه الديانات ، فلم يعرض علينا فى شعره عنها الا أسماءها وأبرز معالمها بين الأديان .

---

(٠) المطرية : من قرى مصر عندها الموضع الذى به شجر البلسان الذى يستخرج منه الدهن فيها والخاصية فى البئر ، يقال إن المسيح (عليه السلام) اغتسل فيها ، وفى جانبها الشمالى عين شمس القديمة مختلطة ببساتينها — راجع معجم البلدان لياقوت الحموى .

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٧ .

(٢) دول العرب وعظماء الاسلام — ص ٢٠ : ٢١ .

(٣) دول العرب وعظماء الاسلام — ص ٢٢ .

إضفاء الصبغة الاسلامية على الشكل المسرحى :

لقد تأثرت المسرحية الاسلامية عمداً أو عفواً بالتيارات الفكرية التى هبت على الفنون الأدبية فى أوربا منذ القرن السابع عشر الميلادى،كانت من سمات عصر النهضة بها . وقد طورت هذه التيارات الفن المسرحى وأكسبته على مر الزمن صفات جديدة ، وعدلت فى قواعده وغيرت من مفاهيمه ، وكونت فيه مذاهب فنية ، وكان من أظهر هذه المذاهب أثراً فى المسرحية الاسلامية (الكلاسيكية ــ الرومانسية ــ الواقعية ــ الرمزية) وذلك بحكم أن العرب قد أخذوا عن الأوربيين فن المسرحية فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، وترجموا كثيرا من مسرحياتهم وقلدوهم فى بناء المسرحيات وصياغتها بعد أن كانت هذه التيارات قد مرت بهم . وتلك المذاهب قد عملت عملها فى أدبهم وفى فنهم المسرحى وما نشأ من التيارات والمذاهببعد ذلك،مما وصل أثره الينا نتيجة لتوثيق صلتنا بالآداب الغربية عن طريق نشاط الترجمة منها الى العربية وذهاب المبعوثين الى أوربا ووفود فرق مسرحية أوربية الىالبلاد العربية،وغير ذلك من وسائل الاتصال والتأثير . والواقع أن مذهباً بعينه لم ينفرد بالتأثير فى المسرحية الاسلامية بل وجد بها تأثير مختلط ، وعناصر مشتركة بين أكثر من مذهب . فقد نجد فى مسرحية واحدة (كأميرة الأندلس) لشوقى ملامح الكلاسيكية وملامح من الرومانسية كالتوسع فى عنصرى الزمان والمكان ، وملامح من الواقعية كايثار النثر لغة للمسرحية . وقد نجد تأثيراً كبيراً لمذهب وتأثيراً أقل لمذهب آخر .

ولعل أكثر المذاهب تأثيراً فى شعر شوقى المذهب الكلاسيكى الذى عرف بالاعتزاز بالنماذج اليونانية القديمة للمسرحية ، والالتزام بالقواعد والأصول التى استنبطت منها . وأول ما نلمح من تأثير المذهب الكلاسيكى فى المسرحية الاسلامية هو الاتجاه الى التاريخ الواقعى والأسطورى فى استمداد الموضوعات . ولكن المسرحية الكلاسيكية كانت تتجه لأمجد ما خلد التاريخ اليونانى والرومانى وما روته أساطيرهما سعياً الى (ارستقراطية) الموضوع ،وتختار أشخاصها « رجالا عمالقة يسمون برؤوسهم فوق مستوى العامة » [1]

---

(١) قصة الأدب فى العالم ــ أحمد أمين ــ زكى نجيب محمود ــ ج ٢ ــ ص ٣٠٦ ــ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .

وتختلف المسرحية الاسلامية عن المسرحية الكلاسيكية فى أن أشخاص المسرحية الاسلامية لا يسمون فوق الضعف البشرى ، فهى لم تقصد الى هذا الهدف لأن الاسلام بطبيعته دين مساواة لايفرق بين بنى الانسان ، ولايفضل أحداً على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح . فأشخاص المسرحية الاسلامية وان كانوا ممتازين ببطولاتهم ليسوا فوق مستوى أحد من البشر ، انهم أناس سما به جهادهم وايمانهم . ويمكن أن يرقى الى مستواهم كل من يعمل مثل أعمالهم من أولى العزم من عامة الناس . وكان اتجاه المسرحية الاسلامية الى التاريخ من أجل وضع هذه النماذج الكريمة السابقة أمام الأجيال القادمة لتكون الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة . فليس كل أبطال المسرحية الاسلامية من طبقة الملوك أو الأمراء أو الأشراف والنبلاء ، بل نجد من بينهم الرقيق الذى رفعه ايمانه وصبره وبلاؤه فى الاسلام (كبلال بن رباح) ، ونجد منهم المرأة الضعيفة التى سما بها ايمانها وحبها لربها وزهدها فى لهو الحياة وزخرف الدنيا مثل (رابعة العدوية).وهذه ميزة تمتاز به المسرحية الاسلامية على المسرحية الكلاسيكية .

وفيما تمتاز به المسرحية الكلاسيكية تحقيقاً للوحدات الثلاث الارسطية ، وحدة الزمان والمكان والحدث . التزم شاعرنا أحمد شوقى بالفصول الخمسة فى مسرحية (أميرة الأندلس) على غراز المسرحية الكلاسيكية . وكذلك التزم بسمو لغة المسرحية الجدية وصياغتها شعراً رناناً فخم الأسلوب جيد السبك واللفظ والعبارة وذلك فى مسرحية (على بك الكبير) و (مجنون ليلى) .

وقد سار شوقى على نهج المسرحية الكلاسيكية فى اضفاء الصبغة الانسانية العامة وعلاج البشر فى عمومها لا خصوصها كما حدث فى مسرحية (على بك الكبير) التى تصور احتمال صورة الاساءة البليغة المهلكة من أقرب الناس الى الانسان حتى ليصدق المثل القائل (اتق شر من أحسنت اليه) .

ومما انتهجه شوقى من المميزات الواضحة للمسرحية الكلاسيكية « ايجاد عقد ثانوية الى جانب العقدة الأصلية بشرط الا تضعفها » [١] وادخال عنصر الحب محركاً مساعداً للحدث المسرحى ، ونلاحظ هذين الملمحين فى بعض المسرحيات الاسلامية عنده مثل (أميرة الأندلس) فهو يدخل موضوع حب الفتى (حسون) والأميرة (بثينة) ليساير الموضوع الأصلى للمسرحية ويكون عقده تحل بزواجهما .

---

(١) أشهر المذاهب المسرحية ـــ دريني خشبة ـــ ص ٧٠ : ٧١ ـــ ط . نموذجية ١٩٦١ م .

وكان ظهور المسرحية فى مصر قد مر بمراحل ثلاث :

١ ـــ مرحلة البواكير ما بين عامى ١٨٩١ ـــ ١٩١٤ م .
٢ ـــ مرحلة النضج ما بين عامى ١٩١٥ ـــ ١٩٣٩ م .
٣ ـــ مرحلة الرواج ما بين عامى ١٩٤٠ ـــ ١٩٦١ م .

وهذه الحدود الزمنية تقريبية اجتهادية وليست بالضرورة حدوداً قاطعة ، لأن تداخل العصور والمراحل فى تاريخ الأدب أمر طبيعى ، ولهذا كان تحديدها يتسم بالمرونة ويخضع الى القول على سبيل التقريب .

ويقع مسرح أحمد شوقى فى مرحلة النضج من حياة المسرح بعامة.ألف فيه (مجنون ليلى) و (على بك الكبير) و (أميرة الأندلس) .

والمقصود بالمسرحية الاسلامية هى المسرحية التى اتخذت من حوادث التاريخ الاسلامى على امتداده أو شخصياته المؤثرة فيه موضوعاً لها ، وشكلته فى بناء فنى يبرز الغاية منها ، وهذه الغاية تتوافق والرؤية الأخلاقية الاسلامية . وقد تتجلى فى موضوع عصرى ولكن الكاتب يعالجه من زاوية اسلامية تهدف الى توضيح الأحكام الدينية المتعلقة بهذا الموضوع .

والمضمون الاسلامى فى المسرحية يختلف قوة وضعفاً وعمقاً وسطحية وقرباً من التصور الاسلامى الصحيح ، أو بعداً، باختلاف المؤلفين واختلاف اتجاهاتهم ، وباختلاف طبيعة الموضوع واختلاف زمان التأليف ومراحل تطور طرق المعالجة . فاذا خلت المسرحية من المضمون الاسلامى بصوره الثلاث السابقة فانها لاتحسب فى عداد المسرحية الاسلامية ولو وقعت فى عصر اسلامى أو بلد اسلامى .

وشاعرنا أحمد شوقى دخل ميدان التأليف المسرحى وبدأ بمسرحيات تقصد الى تاريخ مصر القديم فى مسرحيتى (مصرع كليوباترا) و (قمبيز) . ولكن الاتجاه الاسلامى عنده بعامة يقوى بعد عودته من المنفى فى الأندلس .

وقد التفت شوقى الى التاريخ العربى الاسلامى بمسرحياته الثلاث (مجنون ليلى) و (على بك الكبير) و (أميرة الأندلس) التى ألفها فى العامين الأخيرين من حياته (١٩٣١ ـــ ١٩٣٢ م) .

مسرحية مجنون ليلى :

مجنون ليلى شخصية اسلامية من شخصيات القرن الأول للهجرة ، وشاعر من شعراء البادية فى تلك الحقبة من التاريخ التى ازدهر فيها الغزل العذرى على يد شعراء وقفوا حياتهم على حب واحد يتغنون به فى عفة ! ويصدرون فيه عن عاطفة حارة وحرمان متصـــل ، حرمان أشبه ما يكون بهذا الحرمان الارادى الذى تعمل الارادة على تغذيته من وقت لآخر ، حتى لتكاد الأحداث تخيل للقارىء أنها هى التى تقوى من هذا الحرمان أو تزيد من اشتعاله أى تكون أحداثا يشترك فى خلقها الشخص المحروم ذاته بما يضعه فى طريقه من عوائق .

أما نظرة الاسلام الى الحب باختصار هى ما بين الزوجين من مودة ورحمة لا الحب بمفهومه ، وكما قال حديث الرسول « من أحب فعف فمات فهو شهيد » . وضغط الاسلام على العفة ، عفة الرجل والمرأة صوناً للمجتمع حتى لايصل الى فوضى الانتماء الأسرى .

ومع ذلك فقد صورت كتب التاريخ والأخبار قصة المجنون بحيث جعلته ضحية الصراع الذى ينشأ بين الحب والتقاليد . والتقاليد هنا هى التقاليد العربية القديمة التى تحول بين الشاعر وحبيبته اذا هو شبب بها ، أو تحدث بأسمها فى شعر يروى وينتشر ، أو اذا هو صور فى هذا الشعر ما يمكن أن يكون سبة وعارا بالقياس الى العربى البدوى فى تلك الحقبة من التاريخ .

هذا الصراع هو الذى اتخذه شوقى أساساً لمأساته فى مسرحيته (مجنون ليلى) فهو ملتفت كثيراً الى ما كان يحسن الالتفات اليه من وجود عوامل نفسية أخرى يمكن أن تدعم الصراع وتقويه . فقد كان من الممكن لمثل هاتين الشخصيتين اللتين اعتمد عليهما شوقى : شخصية المجنون وشخصية ليلى ، أن تصورا بملامحهما النفسية وتكوينهما البيئى والاجتماعى فى نظر كاتب المسرحية ، نموذجين من النماذج البشرية التى تشتمل على خصائص عامة تصلح أن تميزهما بطابع معين ، وتجعلهما يمثلان طائفة خاصة من البشر لها نفس الصفات ، وبها من رواسب البيئة والتربية والمزاج والتقاليد مايفرد هذه النماذج ، ويجعلها تتسم بملامح نفسية خاصة . وفى هذه الحالة أى فى حالة مايتجه كاتب المسرحية هذا الاتجاه أن يكون الصراع صراعاً بين عاطفة حب وتقاليد بيئة فحسب بقدر ما يكون صراعاً بين حب صنف معين من الناس وبين التقاليد ، صنف يمثل

نموذجاً خاصاً أو قطاعاً خاصاً من قطاعات النفوس البشرية التى تصطرع وتتفاعل مع تقاليد المجتمع ومفاهيم أهل هذا المجتمع .

لم يلتفت شوقى الى هذا الصراع النفسى الذى يكشف فى النهاية عن نموذج بشرى ، ولم يعن باستبطان نفس هذا الكائن البشرى المتميز بقسمات وملامح ثابتة بقدر ما اعتمد على صراع مباشر معتمد على أحداث القصة ومواقفها التى اقتبسها من القصة القديمة التى رواها صاحب الأغانى وغيره عن مجنون بنى عامر .

على الرغم من أن هذه الأحداث التى ترويها كتب التاريخ والأخبار يمكن أن تحمل فى طياتها صورة حية لشخصية انسانية لها طابعها الذاتى والنفسى ، وعلى الرغم من أن مثل هذه الأحداث كانت تصلح فى يد الفنان أساساً لدراسة حية ملهمة للشخصية الانسانية فقد آثر شوقى أن يكون ما يأخذه أو يختاره من الأحداث أساساً لتصوير الصراع المباشر بين حب قيس وبين ما يقف فى سبيله من تقاليد صارمة أكثر من أن يكون أساساً للتوغل فى أعماق هذه النفس وكشف النقاب عما يصطرع فيها من نزعات ، وما يصطدم فيها من متناقضات . وعلى الأخص إذا أخذنا فى اعتبارنا أن هذه الشخصية التى يعالجها شوقى قد وسموها بالجنون ، وأنه هو شخصياً قد أصر على الاحتفاظ بهذه الصفة وأنه اقتبسها أيضاً فيما اقتبس من أحداث وأسماء . وكلنا يعرف أن قيساً قد سمى فى كتب الأخبار بالمجنون فهو (مجنون بنى عامر أو مجنون ليلى) .

والى جانب الصراع النفسى الذى اتخذه الشاعر مادة فى مسرحيته كان هناك هدف آخر هو الاشادة بالنبل العربى ، والتغنى بسمو العرب وتضحياتهم بحياتهم فى سبيل نبيل العواطف ، أو من أجل رعاية التقاليد كما حدث لقيس ، وكما جرى لليلى . ولاننسى الأحداث الدينية التى غذى بها شوقى مسرحيته واستمد منها مادته .

مصادر القصة وأحداثها :

روت المسرحية أن قيساً قد عشق ليلى صغيراً ، وانهما كانا يعيشان جارين ، وأنهما رعيا ابل ، قومهما معاً ، وأنهما تلاقيا وهما بعد طفلان يلعبان بالحصى ويخطان فى الرمال ، وفى ذلك يقول صاحب الأغانى عن أبى عمرو الشيبانى وأبى عبيدة :

« كان المجنون يهوى ليلى بنت مهدى بن سعد ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعه وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، معلق كل واحد منهما

بصاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه . ويدل على ذلك قوله :

صغيرين نرعى البهم ياليت أننا الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم ، [1]

ولقد أشار شوقي في قوله على لسان ليلى وأبان عن بدء العلاقة بين قيس وليلى في أبياته المشهورة التي يناجي فيها قيس صباه موجهاً خطابه الى جبل التوباد . فهذه المناجاة تبين أن العلاقة بين ليلى وقيس كانت علاقة قديمة منذ كانا طفلين يلعبان بالرمال ويبنيان الربوع بالحصى ، إذ يقول :

جبل التوباد حياك الحيا وسقى الله صبانا ورعى [2]
فيك ناغينا الهوى في مهده ورضعناه فكنت المرضعا
... ...
كم بنينا من حصاها أربعا وأنثنينا فمحونا الأربعا

ثم يعتمد شوقي في تصوير اللقاء الأول بين ليلى وقيس في المشهد الثاني من الفصل الأول من مسرحيته على قصة النار التي ترويها الأغاني (للأصفهاني) فتقول عندما سأل أحد الناس قيسا عن أعجب شيء أصابه في وجده بليلى فقال : « فأتيتهم ليلة أطلب ناراً . وأنا ملتفع ببرد لي ، فأخرجت لي نارا في عطبة فأعطيتنيها ووقفنا نتحدث ، فلما احترقت العطبة خرقت من بردى خرقة وجعلت النار فيها فكلما احترقت خرقت أخرى وأذكيت بها النار حتى لم يبق علي من البرد إلا ما وارى عورتي ، وما أعقل ما أصنع » [3] .

وإذا انتقلنا الى قصة الحج التي رواها شوقي عن قيس فسنرى أنها كذلك قديمة رواها (صاحب الأغاني) . ونلاحظ أن شوقي ترددت في مسرحيته لوحات كثيرة جاءت مثلما وردت عند صاحب الأغاني ، وترددت معها الزوايا والأوضاع التي اختارها شوقي ، واختلفت الألوان والظلال التي أضفاها عليها . ونرى امتزاج المشاهد والأصوات عند كل من شوقي وأبي الفرج في تصوير بعض المشاهد الدينية مثل الحج . فنرى عند صاحب الأغاني مشهد الحجيج وقد تزاحموا في منى حول رمز الشر يرجمونه ، ومن بين هذه

---

(١) الأغاني ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٢٩ .
(٢) مجنون ليلى ـــ المسرحية ـــ أحمد شوقي ـــ ص ١١٢ .
(٣) الأغاني ـــ ج ٢ ـــ ص ٤٥٠ .

الجموع المحتشدة المتزاحمة لايخطىء بصره ليلى وقد تقدمت لترمى جمارها وكأنما اختفت أمام عينه كل هذه الجموع فلم يعد يرى الا ليلى ماثله أمامه بكل ملامحها وقسماتها ، حتى ليرى أطراف أناملها المخضبة تبدو من خلال بردها الذى ترتديه وهى تمد كفها لترمى الحصى الذى جمعته ، ولكنها ــ لسوء حظه ولمزيد من شقائه ــ لم تكد تظهر حتى اختفت .

يقول :

فلم أر ليلى بعد موقف ساعة ... بخيف منى ترمى جمار المحصب (١)
ويبدى الحصى منها اذا قذفت به ... من البرد أطراف البنان المخضب
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح فى أعقاب نجم مغرب

وفى ديوان المجنون وردت لوحة أخرى وهى أشد تفصيلا وأكثر ألواناً ، تكاملت لها عناصرها المسموعة بما وفره لها من مؤثرات صوتية غنية بأصدائها الموحية وأنغامها المعبرة تصور مشهد الحجاج . وهذه المشاهد أوحت الى الشاعر شوقى بمزيد من التأثر وانعكاس هذه الأفكار على مادته المسرحية ، يقول الشاعر :

ذكرتك والحجيج لهم ضجيج ... بمكة ، والقلوب لها وجيب (٢)
فقلت ، ونحن فى بلد حرام ... به لله أخلصت القلوب
أتوب اليك ، يا رحمن ، مما ... عملت ، فقد تظاهرت الذنوب
فأما عن هوى ليلى ، وتركى ... زيارتها ، فانى لا أتوب
وكيف ، وعندها قلبى رهين ... أتوب اليك منها أو أنيب ؟

لقد استمد مؤلف مجنون ليلى ألوان صورته من مشهد حجاج بيت الله الحرام ، وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية والدعاء ، وخشعت قلوبهم من خشية الله ، وخلصت سرائرهم لوجهه تعالى ، ومن أعماق المشهد الدينى المقدس يرتفع صوت العاشق المحزون يعلن توبته من ذنوبه الكثيرة للرحمن فى ساحة قبول التوبة واستجابة الدعاء ، ويتوجه اليه تائباً من كل ذنوبه الا من حب ليلى فانه لايملك أن يتوب عنه ، لأنه ليس خطيئة أو ذنباً ، وانما هو حب مشروع لا اثم فيه ، بل هو قدر مقدور فرضه الله عليه ، فهو يقف أمامه مسلوب الارادة ، بعيداً عن مجال الاختيار ، لايملك من أمر نفسه شيئاً ، ففيم

(١) الأغانى ــ ج ٢ ــ ص ٢٠ .
(٢) ديوان مجنون ليلى ــ ص ٢٥ . .

تكون التوبة إذن ؟ انها لوحة اسلامية جديدة متكاملة ، وفر لها الشاعر خطوطها وألوانها من مشهد الحجيج وضجيجهم فى البلد الحرام .

والشاعر العاشق يدعو الله دعوة أخرى ، انه يسأله أولا أن يجمع بينه وبين محبوبته ، وأن يضم شملهما فى حياة زوجية سعيدة ، ثم يعاهده إن استجاب له أن يتوب توبة لم يتبها أحد غيره . ويبدو أن المجنون استلهم أشعاره من تجربة واقعية مرت به وتركت آثارها العميقة فى نفسه ، ففى أخباره أن أباه حج به فى موسم من مواسم الحج ليدعو الله له بأن يعافيه مما به ، وأنه طلب اليه أن يتعلق بأستار الكعبة ويسأل الله أن يعافيه من حب ليلى ، فتعلق بها وقال : « اللهم زدنى لليلى حبا ، وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا» [1] . وهذا المنظر يصوره شوقى بقوله :

زياد انظر فما انفك ... صريع الوجد والذكرى [2]

كما مر بنا الركب ... الحسينى به مرا

فلم يشغل له بالا ... ولم يوقظ له فكرا

(زياد) :

رويدا سيدى مهلا ... ولا تستغرب الأمرا

لقد سقناه بالأمس ... فحج الكعبة الغرا

فلما لمس الركن ... ومست يده السترا

وقلنا الآن من ليلى ... ومن فتنتها يبرا

سمعناه ينادى الله ... من ساحته الكبرى

(ابن عوف) :

وماذا قال ؟

(زياد)

ما تاب ... من العشق ولا استبرا

ولكن قال يارب ... ملكت الخير والشرا

فهات الضر ان كان ... هوى ليلى هو الضرا

---

(١) (١) الأغانى ــ ج ٢ ــ ص ٢١ : ٢٢ ــ وأيضاً ص ٥١ .

(٢) مجنون ليلى ــ مسرحية ــ أحمد شوقى ــ ص ٣٩ .

وان كـان هـو الـسـحـر … فـلا تـبـطـل لـهـا سـحـرا
ويـارب هـب الـسـلـوى … لـغـيرى وهـب لـى الـصـبـرا
وهـب لـى مـوتـة الـمـضـنـى … بـهـا لا مـيـتـة أخـرى

وفى موضع آخر من شعر المجنون يتراءى له المشهد من خلال سمعه وبصره وقلبه معاً ، وفيه تتداخل الحواس لتلتقى حول هذا الموسم الاسلامى المقدس لتصور وقعه فى نفسه :

وداع دعا اذ نحن بالخيف من منى … فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى [1]
دعا باسم ليلى غيرها ، فكأنما … أهاج بليلى طائرا كان فى صدرى
دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه … وليلى بأرض عنه نازحة مفرى

وواضح أن هذه القصة أغرت شوقى بنظمها أبياتاً ذاعت لجمالها الشعرى يقول فيها :

ليلى ! مناد دعا ليلى فخف له … نشوان فى جنبات الصدر عربيد [2]
ليلى! انظرى البيد هل مادت بأهلها … وهل ترنم فى المزمار داود
ليلى ! نداء بليلى رن فى أذنى … سحر لعمرى له فى السمع ترديد
ليلى تردد فى سمعى وفى خلدى … كما تردد فى الأيك الأغاريد
هل المنادون أهلوها وأخوتها … أم المنادون عشاق معاميد

لم يعد الشاعر فى نظر شوقى يسمع الا اسم (ليلى) يدعو به واحد منهم فهو لم يعد يبصر الا اياها ، واذا هو يرهف السمع ويمد البصر لعله يراها ولكنه ــ لسوء حظه ولمزيد من شقائه مرة أخرى ــ لم تكن (ليلاه) وانما كانت « ليلى » غيرها فهاجت أحزانه المكبوتة فى أعماقه ، وثارت طيور الشوق التى كانت ساكنة فى صدره تعربد من جديد ، وتجدد أحلامه الضائعة .

ومع هذه الاشارات المتكررة والأحاديث المتكررة والأحاديث المتصلة عن الحج ، تترد فى شعر شوقى اشارات الى الصلاة ولكن بدرجة أقل . وربما كان السبب فى ذلك أن مواسم الحج كانت فرصة قد تتيحها أيام منى بصفة خاصة لرؤية هؤلاء العشاق لمحبوباتهم فى أمثال هذه اللقاءات الخاطفة العابرة ، وكانت هذه اللقاءات تردد فى أشعار هؤلاء .

---

(١) الأغانى ــ ج ٢ ــ ص ٥٥ ــ وانظر أيضاً ص ٢٢ وفيه (أطراب) مكان (أحزان) :
(٢) مجنون ليلى ــ مسرحية ــ أحمد شوقى ــ ص ٤٠ .

لقد تضاربت الآراء في مدى تاريخية القصة ، أي منهم من قال إنها شخصية خيالية ومنهم من قال إنها شخصية اسلامية حقيقية كما قلنا في بداية كلامنا عنها ، لكن شوقى صبغها بصبغة التاريخ الحقيقى حين حدد زمنها بصدر الدولة الأموية ، وحاول أن يحدد أكثر بايجاد صلة زمنية بين فترة حوادث المسرحية وفترة معينة من حياة الحسين بن على (رض) ، كما أضفى عليها ظلالا اسلامية عامة فى الزمان وفى المكان ، ولون بعض مواقفها بلون اسلامى مما سوغ لنا أن ندخلها فى عداد المسرحيات الاسلامية . ونلاحظ ما تدور حوله أحداث المسرحية من عاطفة الحب العفيف بين بطليها (قيس وليلى) . فعلى الرغم من قوة هذا الحب وتأججه ، فان (العفة) من أهم ما يطلبه الاسلام ويدعو اليه الجنسين الرجل والمرأة صوناً لصحة النسب وحفاظاً على الخلق وحماية للمجتمع من الفوضى فى الانتماء والصلات البشرية ، فاذا انتهى الأمر الى الزواج فذاك ، والا فالعرض موفور والدين سالم كما حدث فى هذه المسرحية ، وان كان الشاعر قد صور لنا (ليلى) أشد تمسكاً من (قيس) ربما تحت تأثير ما اعتراه منالذهول وشبه الجنون ـــ فيطلب منها مرة قبلة ومرة أن ترحل معه الى الخلوات فتأبى وترد باستحالة ذلك حفاظاً على الشرف واباء للعار :

لســـت يـــا قـــيـــس فـــاعـــلا ولا لـى بـمـــا تـدعـو الـيـه يـدان (١)

ولعل الشاعر أراد أن يبرز معنى اسلامياً آخر هو تمسك المرأة المسلمة بالوفاء لزوجها مهما كانت الظروف التي تحيط بها ، ويتجلى ذلك فى الموقف السابق حينما تجاهل (قيس) مكانة (ورد) من (ليلى) بعد أن صارت زوجة ، فترد (ليلى) (قيسا) الى الصواب :

ورد هـو الـزوج فـاعـلـم قـيـس أن لـه حـقـاً عـلـى أوديـه وسـلـطـانـا (٢)

ومن الظلال الاسلامية العامة والتى حرص شوقى أن يضيفها على المسرحية هذا الجو الاسلامى العاطفى بمشاعر الناس فى ذلك العهد وفى تلك البيئة المكانية نحو (الحسين السبط) (رضى الله عنه) حيث كان كعبة القلوب والأبصار فى جزيرة العرب بعد قتل أبيه وموت أخيه وانتهاء الخلافة الى (معاوية بن أبى سفيان) .

---

(١) مجنون ليلى ـــ مسرحية ـــ أحمد شوقى ـــ ص ١٠٦ : ١٠٧ .
(٢) نفس المصدر السابق .

ما كان فى الحجاز وما يليه يومئذ مسلم يستطيع أن يبتسم للزمن الجديد وللدولة الجديدة ابتسامة من أعماق نفسه ، وهو يرى الدين الذى هشت له عاطفته وقلبه ، وامتلأ منه يقينه وايمانه (تعرض عنه الدنيا) التى أقبلت على دمشق محمولة على أسنة بنى أمية نتنقله من حيث كان يراه هذا العربى فى الحجاز ميزان العدل وآية الزهد والورع الى حيث قدر له أن يكون فى دمشق ملكاً دنيوياً ، وكذلك ظل (الحسين)قائماً فى نفوس الناس صورة مقدسة لبداوة الاسلام تستمد أنضر ألوانها من صلته القريبة بجده الرسول (ص). وبنوته لرجل كان أشد الناس زهداً واستصغاراً لدنياه (على بن أبى طالب) ، وكذلك ظهرت بلاد العرب فى المسرحية وقلبها يخفق باسم (الحسين)ولسانها المقول اما منافق يترضى الحاكم الجديد ، واما خائف تسنح له الفرصة فيهتف باسم (الحسين) فى معزل عن العيون والأبصار [1] .

ونجد ذكر (الحسين) كثيراً فى المسرحية على ألسنة كثير من الشخصيات مثل ما جاء فى الفصل الأول :

عبلة :

أتسمع بشر رضيع الحسين — فديت الرضيعين والمرضعة [2]
وأنت اذا ما ذكرنا الحسين — تصاممت !

بشر : (هامساً وملتفتاً كأنما يخشى أن يسمعه أحد)

لا جاهلا موضعه .

ولكن أخاف أمرءاً أن يرى — على التشيع أو يسمعه
أحب الحسين ولكنما — لسانى عليه وقلبى معه!
حبست لسانى عن مدحه — حذار أمية أن تقطعه
اذا الفتنة اضطرمت فى البلاد — ورمت النجاة فكن إمعه

وما جاء فى الفصل الثانى حين مر ركب الحسين :

---

(١) مجنون ليلى ـــ مسرحية ـــ أحمد شوقى ـــ ص ٨٢ ـــ الفصل الرابع .
(٢) نفس المصدر السابق ـــ ص ٨ ـــ الفصل الأول .

الحادى : هذا الحسين الامام [1]

ابن عوف : هذا منار العرب

وغير ذلك كثير من المواضع التي ورد فيها ذكر الحسين .

وقد كان شوقى موفقاً حين جعل نصب عينيه — فى كثير من الأحيان — شعر البطل نفسه ، فكان يعتمد على معانيه حينا ، كما كان يقتبس بعض نصوصه حيناً آخر ، مما جعله أكثر تعبيراً عن حقيقة الشاعر وواقعه التاريخى والنفسى .

ومن أمثلة اعتماد شوقى على بعض معانى الشاعر الأصلية قوله على لسانه فى المسرحية :

اذا الناس شطر البيت ولو وجوههم تلمست ركنى بيتها فى صلاتيا [2]

فهو من قول المجنون :

أرانى اذا صليت يممت نحوها بوجهى وان كان المصلى ورائيا [3]

بل أن بعض تلك الأشعار التى أجراها شوقى على لسان بطله قد لعبت دوراً هاماً وأساسياً فى مسار الأحداث ، ولأن الموضوع عربى كان اجراء الشعر على ألسنة الشخصيات أكثر ملاءمة وأقرب الى الطبيعة .

وقد حفلت المسرحية بالمواقف (الدرامية) والغنائية الجيدة التى تآزرت — مع الشعر الرائع — على جعل هذه المسرحية من أنجح مسرحيات شوقى جميعاً .

ولكن هناك بعض المآخذ على شوقى وهى أنه فى بعض الأحيان اعتمد على بعض الحكايات غير المعقولة ، أو التى لا تخدم المسرحية ولا هدفها مثل حكاية اختراق قيس بالنار وهو لاه عن نفسه أثناء حديثه مع ليلى ، حتى مست النار لحمه دون أن يحس وغيرها من الحكايا [4] .

كذلك يؤخذ على هذه المسرحية أن مؤلفها قد جعل بعض الشخصيات تتصرف تصرفات للعرف . فمثلا (ورد) فى المسرحية — وهو زوج ليلى — يبيح لقاء قيس

(١) مجنون ليلى — مسرحية — أحمد شوقى — ص ٣٨ .
(٢) مجنون ليلى — مسرحية — أحمد شوقى — ص ٤٦ .
(٣) ديوان — مجنون ليلى — ص ٢٥ .
(٤) المسرحية فى شعر شوقى — د . شوكت — ص ٨١ .

واختلاءه بصاحبته فى بيت الزوجية ، وهذا غير مألوف [1] ، مهما قصد به الإشادة بنبل العرب وسماحتهم .. ووالد ليلى حين يتقدم اليه (ابن عوف) ملحاً فى اتمام زواجها من قيس ، يترك الخيار لها لتبدى رأيها ، فترفض ايثاراً للتقاليد . وهذه من المبالغات المفرطة مهما أريد الاشادة بمنح الأب العربى الحرية للبنت ، ومهما قصد الى الاشادة برعاية البنت للتقاليد ... وليلى فى مشهد (سمر ليلى) نراها تقدم ابن ذريح لصاحباتها وتقدمهن له ، تماماً كما تفعل الحضريات فى العصر الحديث فى بعض النوادى أو حفلات السمر .

وكل هذا مما يخرج المواقف عن طبيعتها المألوفة ، ويصرفها عن توقعاتها المنتظرة .

يقول د . محمد حسن : « وقد أخذ على هذه المسرحية بعامة ضعف عنصر الدراما فى مواقفها المختلفة ، وبخاصة فى موقفها الأساسى وهو الصراع الذى تعانيه الشخصيات المختلفة ، فى تمزقها بين سلطة التقاليد ورغباتها وعواطفها الخاصة ، ان هذا الصراع مفتود تقريباً فى بناء شخصية قيس ، وهو سريع مقتضب فى باقى الشخصيات ، فلا تكاد ليلى تحكم فى مصيرها حتى تصدر حكمها فى عجلة ، كأنها قررت ذلك منذ زمن ، ولا تجد دافعاً للقلق أو المراجعة . وكذلك الأمر بالنسبة للمهدى وورد أيضاً ، وكان الأولى أن نعايش قلقهم وعذابهم وتناقضهم وعثراتهم .. فهذا هو الذى يجعل منهم شخصيات انسانية قادرة على بث الحياة فى المسرحيه ، وقادوة أيضاً على اقناعنا»[1]

ومع كل هذا فقد استطاع شوقى فى هذه الدوائر الجديدة أن يحقق مزاوجة أخرى بين الموقف الدينى والموقف العاطفى .

---

(١) مسرحيات شوقى ــ د . مندور ــ ص ٦٥ .

(٢) د . محمد حسن عبدالله ــ فنون الأدب ــ ص ٩٧ ــ دار البحوث العلمية سنة ١٩٧٧ ــ الكويت .

مسرحية على بك الكبير::

أما مسرحية (على بك الكبير) وقد ألفها شوقى أول أمرها عام ١٨٩٣ ، وهو فى شبابه يطلب العلم فى باريس ، وكانت باكورة ضعيفة فنا وأسلوباً ، ولذلك عاد اليها عام ١٩٣٢ م وأخرجها اخراجاً جديداً معدلا فى مواقفها ، مغيراً فى أسلوبها ، فظهرت فى ثوب جديد هو الذى يدرسه الدارسون . لذلك جعلت موضعها هنا فى مرحلة النضج . وهذه المسرحية كسابقتها (مجنون ليلى) ليست اسلامية الموضوع ولكن المؤلف ضمنها كثيراً من المعانى والمواقف الاسلامية ، ولذلك ندخلها فى نطاق المسرحية الاسلامية ، وهى تصور جانبا من فترة كانت من أحلك فترات تاريخ مصر الاسلامية حين كانت تحكم حكماً مزدوجاً عجيباً يجمع بين سلطتى الأتراك والمماليك وينوء بمظالمهما الشعب المصرى ..

وتصور المسرحية مأساة رجل من المماليك هو (على بك الكبير) سمت بعد همته الى محاولة الاستقلال بمصر والوطن العربى عن الأتراك ، واستعادة الشخصية المفقودة لمصر زعيمة العالم العربى ، واسترجاع المجد القديم . وينجح الرجل أول الأمر وينتصر على الأتراك ، ويبدو أن الأمل قد تحقق فى بسمة واشراق ولكن أقرب الناس اليه يطعنه بخيانة نكراء فتكون نهايته ونهاية الأمل معه .

وأول ما نلاحظه من اللمحات الاسلامية فى جو المسرحية هذا الحوار فى الفصل الأول بين (شمس) و (زكية) الجاريتين و (أم محمود) الماشطة حين يسمعن ، وهن فى قصر (على بك الكبير) ، صوتاً شجياً يردد آذان العصر فى محراب دار الامارة :

شمس : ما هذه الرنة فى قبة القصر [1]
زكية : صوت من الجنة يهتف بالعصر
أم محمود : مازالت السنة والبر فى مصر
يا رب ايدها بالعز والنصر

وفى الفصل الأول أيضاً يصور لنا المؤلف شوقى (على بك) حاكماً صالحاً سخياً يحرص على احياء المواسم الدينية على لسان (رزق) وكيل الخزانة :

رزق : الفضة انفضت وما قد كان من ذهب ذهب [2]

---

(١) مسرحية على بك الكبير — أحمد شوقى — ص ٩ .
(٢) نفس المصدر السابق — ص ٩ .

رمـضـان راح بـنـصـفـه والـنـصـف راح بـه رجـب

وعلى لسان (على بك الكبير) نفسه يعدد ما صنع من أجل الفقراء واليتامى من رعيته :

أجل نحن أطعمنا الفقير ولم يكن لـه فى قصور المترفين طعام [1]
ونحن سقينا ابن السبيل ولم يكن يـبـل لـه فـوق الـطـريـق أوام
ونحن حضنّا اليتم نمسح دمعه وآواه منـا محسنـون كـرام

ولقد اعتمد شوقى هنا على المأثور التراثى القرآنى .. قال تعالى : « كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولاتحاضون على طعام المسكين » [2] وقال تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » [3] .

وعن اهتمامه ببناء دور العلم وإنشاء المساجد ودور الرعاية الاجتماعية والصحية يقول (على بك) :

ونبنى فركن للثقافة والحجا يـشـاد وركـن للصلاة يقام [4]
ودار يواسى البؤس فيها ومنزل تـداوى جـراحـات بـه وسـقـام
ونرفق بالعجماء نأسو جراحها تـقـات عـلـى سـاحـاتـنـا وتـنـام

وفى الفصل الأول من المسرحية يصور لنا المؤلف العفة والوفاء للزوج الغائب فى شخصية (آمال) زوج (على بك) الذى لم يلبث عقب الزواج أن غاب عنها فى مهمته الخطيرة ، ويدخل (مراد بك) عندها محاولا التقرب منها باسم الحب ، فترده بعنف وتلقنه درس الفضيلة :

مراد بك : بحق الحب مولاتى [5]

آمال : ظلمت الحب يا غادر
فما الحب فضولى ولا لص ولا فاجر
ولكن معدن النبل وكـنـز الـخـلـق الـطـاهـر

---

(١) مسرحية على بك الكبير ــ أحمد شوقى ــ ص ٣٠ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الفجر (آية ١٨ ، ١٩) .
(٣) قرآن كريم ــ سورة الروم (آية ٣٠) .
(٤) مسرحية على بك الكبير ــ أحمد شوقى ــ ص ٣٠ : ٣١ .
(٥) مسرحية على بك الكبير ــ أحمد شوقى ــ ص ٤٧ .

ويكمل شوقى هذه الصورة الطيبة الكريمة لتلك السيدة الفاضلة فى الفصل الثانى على لسان الجارية (شمس) تقص على (على بك) ما كان من أمر (آمال) بعد رحيله الى الشام :

على بك : فوجدتها يا شمس [١]

شمس :

خير عقيلة   وأجل ربة منزل وحجاب
ملأت مكانك غزة ومهابة   وكست حماك جلالة المحراب
سهرت على ذكرى الأمير وعهده   سهر اللباة على حريم الغاب

وفى الفصل الثانى و (على بك) فى محنته حيث يقيم ضيفاً على صديقه (ضاهر العمر) صاحب عكا ، يتقدم قائد الأسطول الروسى ويعرض على (على بك) النزول فى سفن الأسطول ضيفاً على القيصر فيأبى ويعتز بجيرة أخيه المسلم وضيافته :

على بك :

أنا فى دار ضاهر وهى دارى   مع أعوانه وهم أعوانى [٢]
أنا فى دار مسلم عربى   مانع الجار مكرم الضيفان

ويعرض عليه القائد الروسى أن يسير معه بالأسطول ليسترد عرش مصر من الخائن (محمد بك أبو الدهب) وأعوانه ، فيرفض (على بك) مع أن الاغراء كان شديداً وحاجته كانت ماسة الى هذه القوة الضخمة لتأديب خصومه واسترجاع ملكه ، فيتردد قليلا ثم يرفض هذا العرض فيما بينه وبين نفسه قائلا :

على بك لنفسه :

رباه ماذا يقول المسلمون غدا   إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى [٣]
يقال فى مشرق الدنيا ومغربها   فعلت فعلة نذل وابن أنذال

فهو يعتبر قبوله لهذا العرض عاراً وخيانة وخروجاً على الاسلام ، وعلى المبدأ

(١) نفس المصدر السابق — ص ٣٠ .
(٢) مسرحية على بك الكبير — أحمد شوقى — ص ٧٠ .
(٣) نفس المصدر السابق — ص ٧٣ .

الاسلامى (ألا يستعان بكافر على مسلم) ويعلن للقائد رأيه بصراحة حتى ولو أدى ذلك الى فقد أمله :

على بك للقائد :

لا أستعين على الأهل الغريب ولا   أرمى الذئاب على غابى وأشبالى [1]

ويصور أخطار الاستعانة بالأجنبى وما يكمن وراءها من أخطار :

على بك :

الموت فى ثمر ترقى لتجنيه   فى سلم من ثعابين وأصلال

ويزكى شوقى هذا الموقف الاسلامى العظيم من (على بك) يقول شمس فى تأييده :

شمس :

دع الروس لا تنتصر بالغريب   وباللـه بالأقربين انتصر [2]

ويعلل (على بك) أواخر الفصل الثانى لحركته الاستقلالية عن تركيا بأنها كانت حركة إصلاحية من أجل إنقاذ مصر ونهضتها ، بعد أن تبين فساد الحكم التركى للعالم الاسلامى :

على بك :

وكنا خططنا انتشال البلاد   وانقاذها من عتو التتر [3]

وأن نستقل بسلطانها   وننهضها فى النواحى الأخر

وفى خطابه لحليفه (ضاهر العمر) صاحب عكا ، يصور عزمه على السير لتأديب الخائن (أبى الذهب) بأنه سعى لتحقيق هذه الأهداف الاصلاحية :

على بك :

ان جمعنا اليه جيشك سرنا   وأخذنا محمداً أخذ قادر [4]

---

(١) مسرحية على بك الكبير ـ أحمد شوقى ـ ص ٧٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ـ ص ٧٦ .

(٣) مسرحية على بك الكبير ـ أحمد شوقى ـ ص ٧٧ .

(٤) نفس المصدر السابق ـ ص ٧٨ .

وانـتـزعـنـا الـبـلاد مـن قـبـضـة الـتـرك ومـن كـل فـاسـق الـحـكـم سـادر
آن أن نـنـقـذ الـبـلاد فـمـاذا أنـت راء هــلـم والـجـيـش حـاضـر

ضاهر :

ثم يصور التعاون الذى تم بين (على بك) و (ضاهر العمر) على أنه صورة من التعاون الدائم بين (مصر والشام) الذى كان على مر التاريخ مناط النصر ولمصلحة العروبة والاسلام على لسان (ضاهر) :

ضاهر : عرب الشام تلك مصر دعتكم [1]

جماعة من عرب الشام (الجنود) :

ألف لبيك مصر لبيك ضاهر

تلك هى المواقف والمضامين الاسلامية فى مسرحيتى شوقى (مجنون ليلى) و (على بك الكبير) ، وكان فى استطاعة الشاعر أن يعمق هذه المواقف وتلك المعانى أكثر مما فعل ، ولكن هذا القدر أشاع فى المسرحيتين جواً اسلامياً محبباً .

ومن أجل أنهما أول مسرحيتين شعريتين فى مصر تجلت فيهما الروح الاسلامية اعتبرت (شوقى) رائد المسرحية الاسلامية الشعرية .

أميرة الأندلس :

ثم أخرج شوقى مسرحيته (أميرة الأندلس) وهى من أنضج مسرحياته وأجدرها بوصف المسرحية الاسلامية ، وهى تعالج الموضوع الذى عالجه من قبل (ابراهيم رمزى) فى مسرحيته (المعتمد بن عباد) [2] . ولكن بفن أنضج وأسلوب أرقى ، ونظرة أعمق ، ومن العجيب أن يختار شوقى لمسرحيته هذه أسلوب النثر وهو الذى اختار أسلوب الشعر لسائر مسرحياته ، فهى المسرحية النثرية الوحيدة بين مسرحياته مع أن موضوعها يدور حول الشاعر (المعتمد بن عباد) . فلعل شوقى أراد أن يثبت قدرته لا فى مجال

---

(١) مسرحية على بك الكبير ـ أحمد شوقى ـ ص ٧٩ .
(٢) مسرحية المعتمد بن عباد ـ ابراهيم رمزى ـ المقتطف ـ ١٨٩٢ .

الشعر وحده وانما فى مجال النثر أيضاً ، ولعله أيضاً تأثر أخيراً بمذهب الذين يرون أن النثر أنسب للمسرحية من الشعر [1] .

يصور شوقى فى هذه المسرحية مأساة بلد ومأساة عصر ومأساة رجل . أما البلد فهى (الأندلس) درة أقطار الاسلام وفردوس المسلمين المفقود . وأما العصر فعصر (ملوك الطوائف) بالأندلس الذى شمل معظم القرن الخامس الهجرى وما ساده ـــ بعد العزة والقوة والوحدة فى العصر السابق ـــ من فرقة وانقسام وفتن أسلمت أهله الى الذل وللانهيار ، مما كان بداية النهاية لغروب شمس الاسلام فى الأندلس . وأما الرجل فهو (المعتمد بن عباد) أعلى ملوك الطوائف شأناً وأوفرهم أدباً وأكرمهم خلقاً وأقربهم الى خصال العروبة والاسلام ،والذى حاول انقاذ الأندلس تحت زعامته ، وكان ضميناً بأن ينجح لولا حظ غير مساعف ، وظروف أحاطت به كانت أقوى من همته .

وقد جعل شوقى مسرحيته فى خمسة فصول ، ففى الفصل الأول نرى مشهداً فى قصر (ابن عباد) بأشبيليه ، يتجاور فيه بعض رجال القصر بما يفيد تأزم أمور السياسة وتهدد البلاد بالخطر ، كما نعلم من أبناء قرطبه عن طريق حديث الأميرة الى رجال القصر ، أنها فى قلق وأنها تتوقع عدواناً من بعض ملوك الطوائف المناوئين لأبن عباد ، وأن الفتن تهددها وتحرج موقف الأمير الظافر بن المعتمد بها ... ثم فى مشهد آخر يضم المعتمد وأحد كبار فقهاء الأندلس العائدين من المغرب . نعلم أن أميراً مرابطياً يخطب بثينه ابنة المعتمد ، وحين تقبل بثينة يسألها والدها بحضرة الفقيهفترفض الخطبة . ويبارك والدها هذا الرفض .. ونعلم فى هذا الفصل من أنباء الأميرة أنها أعجبت ـــ أثناء وجودها ـــ بفتى يمتاز بالثقافة والأدب والفروسية ، وكانت قد التقت به فى سوق الكتب ، حيث كانت تشترى كتاباً ، فزايد على هذا الكتاب حتى ظفر به . وأخيراً نشهد فى الفصل مجلساً لأبن عباد يضم بعض نبلاء الأسبان ، وفى هذا المجلس يعاقب المعتمد (ابن شاليب) رسول ملك الأسبان ، لتجرئه على اهانة (ابن عباد)اهانة لا يقبلها ملك عربى كريم ، ويقره النبلاء على هذه العقوبة التى كانت القتل ، والتى يخفف من وقعها أنها لاتحدث بمرأى من المشاهدين . وهكذا يشيع فى هذا الفصل الاحساس بالخلافات

(١) راجع سير المسرحية نحو النثر فصل الرواية المسرحية ـــ من كتاب فنون الأدب ـــ تأليف هد . ب تشارلتن ـــ تعريب زكى نجيب محمود ـــ ص ١٨١ .

ولقد وفق شاعرنا شوقى فى عرض بعض جوانب مأساة الأندلس وما تآمر عليها من تناحر الأمراء وأنانيتهم ، واستسلامهم للاسترخاء وعدم اعتمادهم على قوتهم الذاتية فى حماية بلادهم والحفاظ عليها وعلى تراثهم .

« وربما يكون قد أراد من وراء ذلك أن ينبه الى وجوب تضامن الرؤساء العرب ، وأطراحهم للأنانية ، وأخذهم الأمور مأخذ الجد » [١] .

وكذلك وفق شوقى فى الاشادة بالخلال العربية الكريمة الأصيلة ، التى تتجلى أعظم ما تتجلى فى الشدائد ، كما رأينا من أباء ابن عباد وبطولته ومن شهامة حسون وفروسيته ، ومن نبل أبى الحسن ، وكرم (ابن الحيون) ، وما الى ذلك مما خلعه المؤلف على بعض الشخصيات الخيرة فى روايته .

وبلجوء شوقى للنثر فى هذه المسرحية فوت على مسرحيته بعداً فنياً ممتازاً ، ولكن هذا لم يمنعه من تصوير المأساة بأبعادها الأليمة الثلاثة ، ليجعل منها عبرة باقية للمسلمين فى شتى ديارهم وعلى مر الزمان تحذرهم من اللهو والشقاق ، وتحضهم على الجد والاعتصام بحبل الوحدة المتين .

أتقن شوقى تصوير عصر الطوائف من الزوايا التى أرادها ، فأبرز الفرقة والخلاف والشتات وبين عواقبها ، وأبرز ما تحتاجه المجتمعات من أخلاق فى مثل هذه الحالات ، وفى عبارات موجزة وجمل قصيرة صور فقال :

« الأندلس فى هذه الأثناء كالأسد الواقع فى الحفرة ، ان سكن لم ينفعه وان تحرك لم يرفعه ؛ وحدة ممزقة ، وكلمة متفرقة ، وآمال بالعدو معلقة » [٢] .

« وكانت الأندلس مفككة الأوصال ، لاثبات فيها ولا استقرار ، تكاد كل مدينة فيها تشكل دولة ، ولاتكاد تستقر تلك الدولة فى يد أمير حتى يستولى عليها غيره ، تقول بثينة : (آه من قرطبة وفجاءاتها يا جوهر وويلى على أخى الظافر من هذه الولاية الحمراء التى لم يقلدها أمير الا قتل أو عزل ... عرش يضطرب تحت كل جالس ، وتاج لايستقر على رأس كل لابس) » [٣] .

---

(١) الأدب القصصى والمسرحى فى مصر ــ د . أحمد هيكل ــ ط . ثالثة سنة ١٩٧٩ م ــ دار المعارف بمصر .
(٢) مسرحية أميرة الأندلس ــ أحمد شوقى ــ ص ٦٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ــ ص ١١ .

والانقسامات والأخطار التى تهدد الأندلس من الأسبان تارة ، ومن بعض ملوك الطوائف تارة أخرى ، ثم من المرابطين فى شمال افريقية آخر الأمر ، ومن هنا تبدو بوادر الأزمة .

وفى الفصل الثانى يعمق الاحساس بالخطر ، ويزداد الشعور بالأزمة ، حيث نرى بعض صور الصراع بين الأندلسيين والأسبان ، ونشاهد بعض الأحداث الدالة على عدم ضبط شئون البلاد ، فنرى مشهداً فى خان ، يتحدث فيه بعض المغامرين الأندلسيين عن مغامرة أسر فيها أميرا أسبانيا ، واستخلص بعض الجواهر الثمينة من الأسبان ، وعاد الى أشبيليه بالأمير والجواهر فى زهو المنتصر . ثم نشهد بعض اللصوص يهاجمون المغامرين الجالسين فى هذا الخان ليستصفوا الجواهر ، وقد تحايلوا أولا على ذلك بتخديرهم وذلك بأن تقدم أحد اللصوص متنكرا فى زى بائع حلوى ، وحين اشترى منه الجلوس حلواه وأكلوها أصابهم خدر . وهنا هجم بقية اللصوص وراحوا يبحثون عن بغيتهم . غير أنهم خابوا فى العثور على الجواهر ، لأن المغامر الذى كان قد استخلصها من الأسبان ، قد خبأها فى سرج قديم ملقى بالخان لا يلفت النظر . وقد شاء الحظ أن يستتر أديب بهذا السرج ، وكان هذا الأديب (ابن حيون) ممن يجلسون مصادفة فى هذا الخان ، ولكنه لم يشارك فى أكل الحلوى المخدرة ، فكان واعياً حين هجم اللصوص ، فتناوم واختفى بالسرج ، وأحس ما فيه فاستصفاه لنفسه ، لأنه رأى أنه أولى به من المغامرين واللصوص جميعاً .

وفى الفصل الثالث ، يتأكد الاحساس بمضمون القصة الثانوية الخيالية وهى قصة حب بثينة وحسون ، ففى منزل أبى الحسن التاجر الأشبيلى الكبير — والد حسون — نعلم أن هذا التاجر قد أصيب بكوارث مالية ، حيث أصيبت سفنه وضاع الكثير من ماله ، وأصبحت داره مهددة باستيلاء الدائنين عليها أو بشراء بعض الأثرياء لها .

وفى الفصل الرابع تتحقق ذروة الأزمة فى القصة التاريخية ، حيث يفد ابن تاشفين على الاندلس غازياً ، ويقبل جنده على أشبيليه ، ويستشير ابن عباد آله وأعوانه فيما يفعل — وقد علم أن ملوك الأندلس يخضعون تباعاً لابن تاشفين — ويستقر عزمه على الدفاع وعدم الاستسلام ، ويخرج للقاء المعتدين فى شجاعة وهو ينشد أبياتاً من شعره الحماسى الحار .

وفى الفصل الخامس نعرف أن ابن عباد قد هزم وأسر هو وآله فى (أغمات) بالمغرب ، وأنه يحيا فى مرارة الأسير وذل العزيز .

اكتشف حسون مؤامرة لاغتيال الأمير الظافر وازالة امارته عن قرطبة ، وكان شيطان الفتنة ورأس أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور ، وقتل الظافر واستولى القادر وحريز على قرطبة ، ولكن طليطلة بلد القادر سقطت فى يد الفرنجة ، فاستضعفهم الفرنجة لتفرقهم ، فأخذوا منهم الإتاوات كما اتضح من قصة المعتمد مع ابن شاليب رسول الفونس ملك الفرنجة . أما الشعب فهو الضحى والضحية دائماً يدق النفير فيهرع للقتال ، ففى معركة الزلاقة ، وقف ابن حريز قاتل الظافر مع والده المعتمد وقاتل حتى قتل ، وكذلك فعل لص الأندلس الباز بن الأشهب [1] .

وترد بعض التشبيهات فى المسرحية ولكنها قليلة ولا تجديد فيها ، فمعظمها معروف كقوله فى تشبيه الأميرة :

« كأنها البدر فى الليلة الظلماء » أو « كأنها الظبى يتخطر على الحصباء »[2] .

وكقوله عن القلنسوه وقد انزاحت عن رأس الأميرة فبانت ضفائرها : « هذه ضفائر فتاة قد هوت عنها القلنوسه فانسدلت كجنح الليل على جبين كغرة الصباح »[3] .

أما الاستعارات فقد جاءت طبيعية لا تكلف فيها ، وقد برز تجسيم المعنويات وتشخيص الطبيعة كقوله :

« الولد سفير المودة والرحمة بين الوالدين » [4] .

« الحرب لا تسأل عما تفعل » [5]

« الرحمة قد بسطت جناحيها » [6] .

ولم تكثر المحسنات البديعية فى هذه الرواية ، فالسجع فيها قليل ولا يظهر الا حين يطول الحوار ، ومن أمثلة ذلك ما ورد على لسان ابن عباد يحدث نفسه وكأنما أراد ألا ننسى أنه شاعر .

وجاءت العاطفة حزينة جريحة فى مواطن الحزن هادئة رزينة فى مواقف الوفاء صاخبة مدوية فى مواطن الطعان والنزال ، فاترة فى بعض الأحيان ، ومما نلاحظه أن أبا

---

(١) مسرحية أميرة الأندلس ـ أحمد شوقى ـ ص ١١٤ : ١١٥ .
(٢) نفس المصدر السابق ـ ص ١٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ـ ص ٥٧ .
(٤) نفس المصدر السابق ـ ص ٣٣٤ .
(٥) نفس المصدر السابق ـ ص ٥١ .
(٦) نفس المصدر السابق ـ ص ٥٨ .

الحسن عرض على بثينة الزواج من ابنه حسون وهو حبيبها ، فقد كانت عواطف الحزن أقوى من الحب فى الموقف فقالت : « ان حسونا كفء ويشهد الله أنى أحبه وأجله ، وكأنى بأبى فى غيابه سخية ينظر اليه كما أنظره ويشعر نحوه بمثل ما أشعر ، ولكنى كما علمت ، منجوعة بأب منكوب ، ملك معزول ، أخذ فعل ، ثم سربل الذل ، وبأم ثكلى وأخوة قتلى ، وأخوات أميرات يتعذبن من الخلع ، ويتكسبن من غزل أيديهن [1] .

ولم يأت شوقى فى هذه الرواية بصور خيالية كثيرة ، ولكنه جاء بحوادث صورها له خياله تمشياً مع موقف أو اتماماً لحادث . ومن ذلك تصوير خياله وابتكاره حادثة ارتطام قارب الأمير بقارب والدها الملك وهى متخفية فى لباس ملاح [2] .

وحادثة تخفيها فى ثياب شاب لتلتقى بحسون على أنها ابن غصين [3] . وحادثة لباس (ابن حيون) ثياب المغاربة ليقدم عقد الجواهر الى صديقه التاجر ابى الحسن ، وقد أوشك على الافلاس وبيع داره [4] . وتكرر خياله فى حيلة حسون عندما لبس هو وأبوه وبثينه ثياباً مغربية لتفادى هجوم المغاربة على بيتهم أثناء البحث عن بثينة . [5]

كذلك لم تخل هذه الرواية من الحكمة التى عودنا عليها شوقى ومن ذلك قوله « ما كل جرى فطن » [6] ، وقوله «ما خرج الحقد من قلب الا دخلته الرحمة » [7] ، وقوله « الحرب لا تسأل عما تفعل » [8] .



(١) مسرحية أميرة الأندلس ــ أحمد شوقى ــ ص ٧٥ .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ص ٥١ .
(٣) نفس المصدر السابق ــ ص ٨٤ .
(٤) نفس المصدر السابق ــ ص ٨٠ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ص ١٣٥ .
(٦) نفس المصدر السابق ــ ص ٥٢ .
(٧) نفس المصدر السابق ــ ص ٦١ .
(٨) نفس المصدر السابق ــ ص ٦٣ .



الفصل الثالث

المحاور الأساسية لشعر الاسلامى عند شوقى

* العبادات والشعائر الدينية
* إلمدائح النبوية .
* شعر المناسبات الدينية .

العبادات والشعائر الدينية :

امتد تأثير التيار الأسلامي ليغمر شعر شوقي من كل جانب ، وطرح كثيراً من معالمه واتجاهاته بشكل مباشر حيناً ، وفي كثير من الأحيان بشكل غير مباشر ، وكما كانت آيات القرآن الكريم مصدراً خصباً أفاد منه شوقي لفظاً وتصويراً ، وكما كان القصص القرآني مصدراً آخر في دائرة العظة والتماس العبرة ، كانت الشعائر الدينية والعبادات عنصراً آخر يقف بجانبهما ، ويسهم بدور فعال في تكوين وجدان الشاعر وينعكس انعكاساً أميناً على لوحاته الفنية في كثير من صورها ومادتها التصويرية والتعبيرية ، وهو أمر طبيعي في مجتمع يرى أن الخلافة الاسلامية هي محط أنظار المسلمين، ويرى أن يتخذ من هذه العبادات وأفكار العقيدة محوراً للحوار والجدل للدخول الى أمور أخرى فلسفية .

ويبدو تأثير العبادات عند شوقي من خلال ذكرها على مستوى البيت المفرد في كثير من الأحيان إذ يقول من قصيدة (نجاة) :

وسرت وملء (•) الأرض حولك أدرع (•) ودرعك ثلب خاشع وصلاة (١)

ويقول :

خفافاً الى الداعي ، سراعاً كأنما من الحرب داع للصلاة مثوب(٢)

وترد عند شوقي صورة السجود ، والقبلة ، والمحراب ، والمنبر والنذور ، كلها من باب العبادات ومقترنة بها ، يقول :

زين المقاصر (•) والحجا (•) ل ، وزين محراب الصلاة(٣)

وهذا البيت لا تخلو مقاطعه من غموض الدلالة إذ ليس هناك أي علاقة بكون النساء

---

(١) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٩٤ — ألقيت على جلالة الخليفة تذينة في سبتمبر ١٩٠٥ م ، ثم شاء الله أن يكتب له النجاة من شرها ، فكتب الشاعر يهنئه .

(•) ملء الشيء : ما يملوه .

(•) أدرع : جمع درع : وهو ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس في الحرب للوقاية من سلاح العدو .

(٢) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٤٨ .

(٣) ديوان شوقي — ج ١ — ص ١٠٢ — ألقيت هذه القصيدة في جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية .

(•) المقاصر : جمع مقصورة وهي اما الدار الواسعة المحصنة ، أو الحجرة من حجر الدار . .

(•) الحجال : جمع حجلة وهو بيت كالقبة يستر بالثياب .

المصريات يزن (محراب الصلاة) فقد يكون على سبيل التأويل المنكر عنده وقلق فى اللفظ وضرورة تفرضها وضعية الوزن والقافية .

ويقول :

واذا خطبت فللمنابر هزة تعدو الندىّ [*] ، وللقلوب بكاء[1]

(يشير شوقى الى خطاب الرسول محمد (ص) فوق المنبر)

ويقول :

لما حللت (بآدم) حل الحبا ومشى على الملأ السجود الركع[2]

وشوقى يشبه مصر بلاده بالقبلة عند المصلين ، فحبه لبلاده فيه خشوع المتعبد ، فهى قبلة المصلين من مسلمين ومسيحيين .

واسمع بمصر الهاتفين بمجدها ، والهاتفات[3]
والجاعليها قبلة عند الترنم [*] والصلاة

ونلتقى عنده أيضاً من العبادات بالصوم والحج والنذر حيث يقول :

وصل صلاة من يرجو ويخشى وقبل الصوم صم عن كل فحشا[4]

ويقول :

ما ينتهين من الصلا ة ضراعة ومن النذور[5]

ويقول :

لك الدين يارب الحجيج ، جمعتهم لبيت طهور الساح والعرصات[6]

وشوقى يستكمل الصورة الدينية للعبادات الاسلامية من خلال مايؤديها المسلمين من ركوع وسجود وابتهال وقيام بالليل وقراءة القرآن ونراها أحياناً تأتى بطريقة مفصلة

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٦ .
(*) الندى : الجمع الحضور — النادى — يقصد به خدر .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٦٢ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ٥٠ .
(*) الترنم : أحد ضروب العبادة عند المسيحية .
(٤) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٣٥ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢١ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٩ .

وأحياناً أخرى تأتى بشكل اشارات عابرة على نحو مانرى فى ذكره لكلمة الفرقان :

وحديقة الفرقان ضاحكة الربا   بالترجمان ، شذية ، غناء[1]

ويربط شوقى بين آى الفرقان والضياء إذ كلاهما (نور) وهو من باب اتخاذ المصادر الضوئية صوراً لموصوفاته وهذا من مميزات أسلوب شوقى ، يقول :

تلك آى الفرقان ، أرسلها الله   ضياء يهدى به من يشاء[2]

ويقول :

أما حديثك فى العقول فمشرع [*]   والعلم والحكم الغوالى الماء[3]

هو صبغة [*] الفرقان ، نفحة قدسه   والسين من سوراته والراء

ويقول من رثاء اسماعيل أباظة باشا [*] :

وكنت تصلى بالملوك جماعة   وكنت تقوم الليل بالنفس خاليا[4]

ومن صور الشاعر ارسلامية التى أشار إليها الشاعر أيضاً (نحر الهدى فى موسم الحج) يقول :

يأتون (طيبة) بالهدى أمامهم   يغشى المدائن والقرى ويطبق[5]

وما تنتهى إليه هذه العبادات من تقوى أو ورع ينعكس على القائمين بها ، يعكسه شوقى فى صوره دائماً .

ولكن لا يخلو الأمر عنده من انتقاد لاذع لهذه العبادات حينما يقصد بها غير وجه الله ، فهو يعدها نوعاً من النفاق والتأليه للأشخاص الذى يتنافى مع جوهر العقيدة الاسلامية . نرى مظهراً لذلك فى حديثه عن سقوط السلطان عبدالحميد بعد أن أحاطه

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٠
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٧
(*) مشروع : مورد .
(*) صبغة : نوع .
(*) اسماعيل باشا : أحد سراة الزعماء فى البلاد المصرية ، كان صاحب الصوت المتبوع فى الجمعية التشريعية ، وقد توفى سنة ١٩٢٧ بعد أن ترك خلفه تاريخاً حافلا بالمواقف المحمودة .
(٤) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٨٢
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٧١

رجاله بمظاهر التقديس ملقاً ونفاقاً ، فقد كانوا يسبحون له مساء ويؤلهونه في الصباح ويسجدون له كما سجد موسى حينما تجلى وجه ربه له ، وينحنون أمامه حتى يبدو كأنهم أقواس ... كل ذلك يصوره شوقى لا تعبيراً عن عاطفة دينية خالصة وإنما يذكره منددا بما يحمله من مظاهر التذلل والخضوع المنافى لجوهر التوحيد الذي ينبغى أن تكون العبادة فيه خالصة لله وحده ، يقول :

كم سبحوا لك فى الروا ح ، وألهوك لدى البكور[1]
ورأيتهم لك سجدا كسجود موسى فى الحضور [*]
خفضوا الرؤوس ووتروا بالذل أقواس الظهور

ولا تخلو هذه القافية التى فى الأبيات من قلق واضح عند شوقى . ونلاحظ أيضاً جودة الاستعارة والعبارة فى البيت الأخير (خفضوا الرؤوس) ، والنفس القرآنى فى (ورأيتهم لك سجدا).أما التعبير الصحفى الواضح فنراه فى (كم سبحوا لك فى الرواح) .

ولم تقف الصورة عند وحدة البيت دائماً ، إذ تجاوزتها فى بعض الأحيان الى رسم لوحات فنية كاملة تتعدد فيها الجزئيات على نحو ما ورد عنده فى قصيدة (الى عرفات) التى قالها بمناسبة حج الخديوى (عباس بن محمد توفيق) ، وكان الخديوى قد دعا شوقى الى الحج معه ولكن شوقى تخلف عن ذلك معتذراً بضعفه الجسدى ، يقول :

الى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله فى عرفات[2]
ويوم تولى وجهة البيت ناضرا وسيم مجالى البشر والقسمات
على كل أفق بالحجاز ملائك تزف تحايا الله والبركات
إذا حديث عيس [*] الملوك ، فانهم لعيسك فى البيداء خير حداة
لدى (الباب) جبريل الأمين براحة [*] رسائل رحمانية النفحات

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢٢
(*) كسجود موسى فى الحضور : أى حضوره حين تجلى له الله لكلمه .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٨
(*) عرفات : اسم موضع وقوف الحجاج على مقربة من مكة وهو اسم واحد فى صورة الجمع .
(*) العيس : الابل الأبيض التى يخالط بياضها شىء من الشقرة .
(*) الراح : جمع راحة وهو الكف .

وفـي الـكـعـبـة الـغـراء ركـن مرحـب بـكـعـبـة قـصـاد ، وركـن عـفـاة (•)
وما سكب الميزاب (•) ماء ، وانما أفـاض عـلـيـك الأجـر والـرحـمـات
و(زمزم) (•) تجرى بين عينيك أعينا من الكوثر (•) المعسول منفجرات
ويـرمـون ابـلـيـس الـرجـيـم ، فـيـصـطلى وشـانـيـك نـيـرانـا مـن الـجـمـرات

فهو لم يتجاوز الجانب الفعلى فى تلك العبادات والتضرع الى الله تعالى ، ليجعل منها جميعاً قوام شخصية ممدوحة وطابع سلوكه الدينى فى النهوض بها وأدائها مثل بيت الله الحرام والصلاة هناك الى أداء جميع مناسك الحج وجميع هذه المناسك تشكل قمة الفضائل الدينية فى شخص الممدوح .

وهكذا تصبح العبادات معياراً من معايير الفخر وتأكيد السيادة وتصبح فيصلا فى تفضيل بعض الناس على بعض ، كما قال شوقى فى تصويره تعبد الخديوى لله تعالى ، فهى عبادة خاصة لا تشبه عبادة بقية الناس ، إذ أنها لقاء بين ملك السماء وملك الأرض فى نظره :

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم لبيت طهور الساح والعرضات (•) (١)

... ...

عنت (•) لك فى الترب (•) المقدس جبهة يدين لها العاتى من الجبهات (•)

فسجود العباس لله يشبه سجود الناس للعباس ، أما حج العباس فيتم عند شوقى فى اطار قوانين التشريفات فى الزيارات الرسمية ، كما صور شوقى مواكب الملائكة نزلا من لدن العرش الالهى تستقبل العباس بتحايا الله (على كل أفق بالحجاز ملائك) وجبريل

(•) عفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .
(•) الميزاب : يقال مئزاب ومرزاب : ما يسيل منه الماء من مكان عال . قالوا ومنه ميزاب الكعبة : أى مصب المطر من قوتها
(•) زمزم : بئر عند الكعبة .
(•) الكوثر : نهر فى الجنة ، والكثير من الماء .
(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٩
(•) العرصات : جمع عرصة وهى البقعة من بين الدور وليس فيها بناء .
(•) عنت لك : خضعت لك .
(•) الترب : التراب .
(•) العاتى من الجبهات : أى الجهة العاتية التى تجاوزت الحد فى الاستكبار والجبروت والخطاب لله تعالى يريد أن جبهة الممدوح عنت لله وهى التى أطاعها العتاة المتكبرون .

الأمين هو الموفد الالهى برسائل خاصة الى الخديوى (لدى الباب جبريل الأمين براحة رسائل) .

ويقول فى مدح الخديوى فى رحلته للحج :

يحييك (طه) [*] فى مضاجع طهره ويعلم ما عالجت من عقبات[1]
ويثنى عليك (الراشدون) بصالح ورب ثناء من لسان رفات [*]

وتصبح العبادات بهذا الشكل مصدراً للتنافس ومجالا للتفاخر على أساس القاعدة الاسلامية التى أرساها سبحانه وتعالى فى قوله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأكدها الرسول (ص) فى خطبة الوداع : « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » .

وحتى الدنيا تبتهج يوم حج الخديوى ممدوح شوقى فكأنه أفضل من حج بيت الله ، إذ يقول فى أبيات بعثها شريف مكة سنة حج الخديوى عباس :

دامت معاليك فينا يا ابن فاطمة ودام منك لأفق البيت نبراس [2]
قل للخديوى إذا وقيت سدته تمشى اليه ويمشى خلفك الناس
حج الأمير له الدنيا قد ابتهجت والعود والعيد أفراح وأعراس
فلتحى ملتنا ! فلتحى أمتنا فليحى سلطاننا! فليحى عباس!

قافية (السين) فى الأبيات السابقة أضفت عليها نوعاً من الحركة فكأنها تصور حركة موكب الخديوى فى ذهابه للحج،وكأنه موكب (أفراح وأعراس).وهذه من المميزات العامة لأسلوب شوقى وهو اضفاء (الحركية) باستخدام بعض الحروف ذات الصفير مثل (السين)فمن هذه البنية الصوتية والتصويرية تنبع هذه الاستمرارية عنده لتكون قادرة على تكرار الصيغة بهذه الموسيقية كما فى قصيدته السينية :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى [3]

ومن أساليب التعبير عن الحركة عند شوقى ما يسمى (بالتدرج) وهو ترتيب الدوال

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٩

(*) طه : اسم النبى (ص) .

(*) رفات : ما بلى من جسم الانسان بعد موته .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٣

(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٥٢

بأشكال تجعلها خاضعة لحقول دلالية بينها صلات تضيق وتتسع حسب قراءة القارىء لها وتوقعه ، فاذا وقع على آخر الدوال اكتملت الصورة بمجموعها موجزة عن نظام كامل مقصود هو الصورة المثالية التي يريد الشاعر ابرازها ولفت النظر اليها [1] كما يقول فى هذا البيت :

فلتحى ملتنا ! فلتحى أمتنا ! فليحى سلطاننا ! فليحى عباس !

انطلق فيه شوقى من الاسلام (ملتنا) ووصل الى الحاكم المحلى (الخديوى) عباس مروراً بالوطن (أمتنا) فالخليفة العثمانى (السلطان) ، فكان قد انتقل من العام الى الخاص ومن الروحى الى المادى ومن الدين الى الدنيا ، وان كان تعبير شوقى فى هذه الأبيات التى تعرض فيها للشعائر الدينية بعيداً عن الروح الشعرية الخالصة، فهذه الأبيات ولا سيما البيت الأخير يبدو كما لو كان ترديد شعارات سياسية رخيصة لا تتفق مع الجلال الذى كان يفترض فى الحديث عن شعيرة دينية جليلة مثل مناسك (الحج) .

ويشير شوقى فى بعض قصائده الى الصلاة فى المسجد كأنه يشير الى فضلها أو كأنه يحدد للمسلم ما يجب أن يحرص عليه عامة مثل صلاة الجمعة وفضلها فى المسجد الى جانب الصلاة الأيام الأخرى . ونرى شوقى يبدى حزنه عندما سقطت الخلافة عن مدينة (أدرنة) وهى من أمهات المدن العثمانية ، بها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان ، سقطت عنها الخلافة وزال الملك ولم يبق الا ملك الله هو العلام ، وقد خفت صوت الأذان وخبت أنوار المساجد ولم تعد هناك صلوات الجمعة ، إذ يقول :

خفت (•) الأذان ، فما عليك موحد (•) يسعى ، ولا الجمع (•) الحسان تقام [2]
وخبت مساجد كن نورا جامعا تمشى اليه الأسد (•) والآرام (•)
يدرجن فى حرم الصلاة قوانتا (•) بيض الازار ، كأنهن حمام

(١) خصائص الأسلوب فى الشوقيات – محمد الهادى الطرابلسى – ص ١٣٣ : ١٣٤ .
(٢) ديوان شوقى – ج ١ – ص ٢٣٨
(•) خفت : سكن وانقطع .
(•) الموحد : من يعتقد أن الله واحد لاشريك له ولا ولد .
(•) الجمع : صلوات الجمع الأسبوعية .
(•) الأسد : الرجال الذاهبون الى المساجد .
(•) الآرم : النساء الذاهبات إلى المساجد .
(•) القوانت : جمع قانته : من القنوت وهو الطاعة والدعاء .

ويذكر شوقى فضل الصلاة فى المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى وما لهما من مكانة فى نفوس المسلمين والى جانب هذه المكانة نرى مكانة الأزهر الشريف الى جانبهما ، فكأن الأزهر كعبة لقداسته ، وكأنه أمن ومثابة للناس كالبيت العتيق ، إذ يقول :

واذكره بعد المسجدين (*) معظما لمساجد الله الثلاثة مكبراً (1)

ويقول :

ان الذى جعل العتيق (*) مثابة (*) جعل الكنانىّ المبارك كوثرا (*) (2)

فى هذا البيت نفس قرآنى يقول تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .

وتوشك الشعائر الاسلامية أن تصبح معياراً مطلقاً فى تفضيل الممدوح ، ما تعلق منها بالحج كما فى الأبيات السابقة ، أو ما ارتبط منها بالفرائض الأخرى مثل اعتلاء الخليفة المنبر وقيامه بالخطابة بين الصفوف واعظا ، فهذا من المظاهر الاسلامية،وترفع من مكانة الخليفة وتؤكد مكانته وامامته للأمة ، وخير مثل يحتذى لهذه الرسول (ص) فى اعتلائه المنبر ، يقول :

واذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بكاء (4)

فالبيت السابق بيت ظرفى فيه تناظر بين (للمنابر هزة) و (للقلوب بكاء) ، وهناك فاصل بينهما وهى الجملة الفعلية (تعرو الندى) وهذا مما يشد الحس الفنى الى هذه الظاهرة وهى صورة البناء فى الجمل عند شوقى فهى ما تواجهه الألفاظ من تعاكس المراتب من حيث التقديم والتأخير فى المبتدأ والخبر أو العكس . ويظل المنبر عند شوقى رمزاً للمكانة الرفيعة ومظهراً اسلامياً ، فهذا المنبر لا يعتليه إلا أصحاب المكانة من أنبياء

---

(1) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٥١

(*) المسجدان : المسجد الحرام والمسجد الأقصى

(2) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٥٢

(*) العتيق : المسجد الحرام .

(*) المثابة : مجمع الزمر .

(*) الكوثر : نهر فى الجنة .

(3) قرآن كريم — سورة البقرة — آية ١٢٥ .

(4) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٦

وخلفاء ثم خطباء الأمة ويشير اليه في سينيته التي يعارض بها سينية البحترى إذ يقول :

منبر تحت منذر (٥) من جلال لم يزل يكتسيه أو تحت قس (٥) (١)

فالمنذر هو بن سعيد قاضى الجماعة في قرطبه على أيام الناصر وكان من أفصح الخطباء في عصره وكان معروفاً بالزهد والعدل .

ولا تأتى غلبة الأمم والحصول على حقها الا بالسيف أحياناً ، وشوقى هنا يرى أن يجدد (خالد الترك) (مصطفى كمال) ، (خالد العرب) الذى هو البطل (خالد بن الوليد) ويريد للمنابر أن تقام على الرماح والسيوف حتى يكتمل انتصار الترك في الحرب والسياسة يقول :

لا خير في منبر حتى يكون له عود من السمر (٥) أو عود من القضب (٥) (٢)

في هذا البيت عطف ألفاظ جاهزة ، كأن تكون العبارة قائمة على لفظمين متعاطفين (عود من السمر) أو (عود من القضب) والألفاظ هنا متكاملة في الدلالة ومتقاربة فيكون العطف فيها كالاتباع لا يضيف جديداً ، وانما يأتى لتأكيد المعنى ، وليس في طاقته الايحائية روح جديدة ، وهذا مما اقتفاه من أثر الشعراء القدامى مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى وأبى العلاء ليستقى من رصيدهم اللغوى مواد تمكنه من اطالة النفس في حظه الدلالى الشخصى (٣) . يقول أبو تمام :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له العواقب بين السمر والقضب (٤)

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٥٠

(٥) منذر : بن سعيد بن عبدالرحمن قاضى الأندلس ، قاضى الجماعة بالأندلس في عصره ، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، رحل حاجاً ، وأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر وكان بصيراً بالجدل له كتب في القرآن والسنة والرد على أهل الأهواء ، وكانت وفاته سنة ٣٥٥ هجرية — راجع ترجمته في تاريخ علماء الأندلس لابن الفوضى رقم ١٤٥٤ — المجلد الثانى — ص ١٤٢ .

(٥) قس بن ساعده الايادى : أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان أسقف نجران ويقال أنه أول عربى خطب متوكأ على سيف أو عصا ، وأول من قال كلمة « أما بعد » وكان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه وهو معدود في المعمرين طالت حياته وأدركه النبى (ص) من قبل النبوة ورآه يفد في عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال (يحشر أمة وحده)

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٠

(٥) السمر : الرماح .

(٥) القضب : السيوف .

(٣) خصائص الأسلوب في الشوقيات — محمد الهادى الطرابلسى — ص ٢٥٣ .

(٤) ديوان أبو تمام .

وشوقى فى ملحمته البائية (كبار الحوادث فى وادى النيل) يردد أن النغم الدينى مهللا لانتصار الترك على اليونان فى الحرب ويصف الخليفة عبدالحميد وهو خير ممدوح ، يوجه النصح لأمته من على منابر الخلافة إذ يقول فى هذه الصورة :

وشدت منارا للخلافة فى الورى ... تشرق فيهم شمسه ، وتغرب [1]

....

حسامك من سقراط [*] فى الخطب أخطب ... وعودك من عود المنابر أصلب

وعزمك من (هومير) [*] أمضى بديهة ... وأجلى بيانا فى القلوب ، وأعذب

وملكك أرقى بالدليل حكومة ... وتنفذ سهما فى الأمور ، وأصوب

ظهرت أمير المؤمنين على العدا ... ظهور بسوء الحاسدين ويتعب

سل العصر ، والأيام ، والناس : هل نبا ... برأيك فهم ، أو لسيفك مضرب [*]

....

فلما استللت السيف أخلب برقهم ... وما كنت ــ يا برق المنية ــ تخلب [*]

ولم يتكلف قومك الأسد أهبة ... ولكن خلقا فى السباع التأهب

كذا الناس : بالأخلاص يبقى صلاحهم ... ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

ومن شرف الأوطان ألا يفوتها ... حسام معز ، أو يراع مهذب

فالشاعر هنا يجمع عناصر صورة الممدوح وجزئياتها فمن اشادته منارا للخلافة الى صلابة عوده التى تضاهى صلابة عود المنابر الى قوة عزمه وقيادة الأمة وخلافة المسلمين لما يتمتع به من هيبة وعقل وحكمة ليرفع بها بناء الاسلام حيث تلتقى الحكمة مع الشجاعة . وهنا تصبح الشعائر الدينية رمزاً من رموز الأصالة والوجه المباشر لها ، وهى التى تترجم موقف الخليفة (الممدوح) الى سلوك عملى يتبنى فيه الدفاع عن قضايا العقيدة الاسلامية سواء بالسلم أو (بالسيف) كما فعل السلطان عبدالحميد ، فالشاعر يصدر عما يرضى الخليفة من ناحية ، وعما هو مؤمن به من ناحية أخرى ، وهذا ينتهى بنا

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٤٣ .

(*) سقراط : خطيب اليونان وحكيمها المشهور .

(*) هومير : أكبر شعراء اليونان الأقدمين .

(*) نبا السيف عن الضريبة : كل ، وارتد .

(*) أخلب برقهم : بطل وعيدهم .

(*) تخلب : تخدع . .

الى أن العقيدة الاسلامية كانت مقوماً رئيسياً لشوقى وممدوحيه . الى جانب ذلك نلاحظ أن (ممدوح) شوقى ينتظر منه سبيل الدعاية له ، وتفخيم مكانته من هذا المنظور وأهمها الدينى ليصبح ستارا يدارى تحته كل سلبياته ، ولذا نلاحظ دور وأهمية الشعائر الدينية التى وردت فى شعر شوقى بهذا الكم لتكمل دائرة الفضيلة الدينية بمدلولاتها الجديدة ونلاحظ تداخل العناصر الاسلامية مع العناصر غير الاسلامية فى بعض المواضع من صورته هذه ، ففى قوله المجازى :

(حسامك من سقراط فى الخطب أخطب) (وعزمك من هومير أمضى بديهة)

التكلف واضح فى الصورة ولكن مهارة شوقى فى ايجاد الروابط بين الصور المتنافرة واضحة ، ولعبه بالألفاظ يدل على صنعه إذ أن استخدام شخصيات مثل (سقراط) و (هومير) بعيدة كل البعد عن المجال الذى يتحدث فيه وهو الحرب بين اليونان والأتراك ولا دخل (لهومير) وهو الشاعر ، و (سقراط) وهو الخطيب فى مجال الحرب ، ولكن استخدام شوقى لكلمة (أخطب) و (بديهة) كانت ركيزة ورابطة لربط الصور المتنافرة لديه ، حيث أوجد العلاقة بينهما ، وهذا من مميزاته الأسلوبية حيث لايتسنى لأى شاعر اللعب بالألفاظ بهذه السهولة .

وعند شوقى يبدو الموقف متركزاً فى شخص الخليفة العثمانى إذ يبدو رجل دين ودولة فى آن واحد،قادراً على اجادة التدبير السياسى للحكم ومحققاً المثل الأعلى والقدوة الطيبة لشعبه من خلال العبادات وأداء الفرائض واقامة الشعائر ، ولذا نلاحظ أن شعر شوقى المدحى عبارة عن لوحات تصويرية تجمع بين القيادة والعبادة ، وكأن نجاح الخليفة فى قيادته لم يكن الا نتيجة طبيعية لتمسكه بالشعائر ، بل أن تبنى قضايا الدين والدفاع عنه تتمثل فى قدرة الخليفة على أداء هذه الشعائر والدفاع عن الاسلام والخلافة والجهاد فى سبيله .

وفى بعض الأحيان يأخذ شوقى صوراً ليست فى حقيقة الأمر اسلامية ولكنه يضفى عليها الطابع الاسلامى مثل (قس(*) بن ساعدة) واعتلائه المنابر ، فهو لم يخطب من على منبر وانما كان يخطب على بعير ، كما سجل ذلك من كتبوا عنه من القدماء ، ولكنه باعتبار انه يتحدث عن اجادة المرثى للخطابة فانه سحب على هذا الخطيب الجاهلى

(*) قس : هو قس بن ساعدة الأيادى ، ويضرب به المثل فى بلاغة الخطابة ، ويروى عنه أنه كان يخطب فى الناس فى عكاظ وهو على ظهر بعير .

مفهوماً اسلامياً كما فعل فى كثير من صوره الأخرى التى استخدم فيها عناصر اسلامية أجراها على حضارات وثنية قديمة كما مر بنا .

وشوقى عندما قال قصيدته بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا ، فوصف ما أصاب البلاد سنة ١٩٢٤ م من انقسام وتشاحن وتناحر ، وانتقل الى ذكرى الفقيد فوفاه حقه وشبهه بالخطيب (قس بن ساعده) إذ قال :

إذا جئت المنابر كنت قسا   إذا هو فى عكاظ على السناما [1]

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٢٣

المدائح النبوية :

كان النبي (ص) ــ ومايزال ــ النموذج المثالي الذى تهفو إليه القلوب المؤمنة ، وتتعطر بسيرته الألسنة الذاكرة ، فهو المثل الأعلى والقدوة الحسنة والرجاء المنشود ، كثيراً ما لهج الشعراء بمدحه وأشادوا بمناقبه ، ورددوا سيرته تعبدا وتشفعا وتبركا ، يستوى فى ذلك شعراء الصوفية وغير الصوفية على مر العصور .

ولقد وجد شعراؤنا أمامهم تراثاً ضخماً من المدائح النبوية بدأت من حسان بن ثابت شاعر الرسول (ص) ومن عاصره من الشعراء الاسلاميين ثم من تلاهم من الشعراء على مر الأيام والدهور ، وقد تلونت تلك المدائح بأذواق العصور الاسلامية المتوالية وقبست من كل عصر خصائص الحياة المعاصرة وظروف الدول والأوطان السياسية والاجتماعية ، وحملت قصيدة المدح الى جانب المعانى الدينية أشواق العصر وتطلعات أهله الى المستقبل ورجاء المؤمنين فى حياة أفضل الخ ...

وشاعرنا أحمد شوقى يتجاوب مع هذه المعانى الاسلامية السامية التى تجيش بها قلوب المسلمين نحو خاتم المرسلين فلا تفوته مناسبة إلا يذكر فيها سيرته (ص) مشيدا بفضائله الكريمة وشمائله الرفيعة ، متضرعا ملتمسا شفاعته (ص) مستغيثاً به لتفريج كروب الأمة الاسلامية ، وموجهاً لها لتتخذ منه القدوة والأسوة حتى تستعيد مجدها التليد ، وتسترجع ماضيها المجيد .

وكثيراً ما كانت تهزه مدائح السابقين فينهض لمعارضتها ، كما تدل معارضات شوقى على جانب روافد شاعريته وخاصة فى المجال الدينى ، ومدى صلته بالتراث الشعرى أو لون من هذا التراث المأثور عن أمته ، فان اتجاهه الاسلامى الواضح فى مدائحه النبوية ينم عن متجهه السياسى المتمثل فى موالاة الخلافة ، تلك الخلافة التى اعتبرت استمرار لنهج العهد النبوى من جهة المتحمسين لها ، كما يدل حجم الظاهرة على جانب من التفاعل الفكرى الذى عاشه عصر بداية النهضة العربية منذ منتصف القرن الماضى ، وحتى مرحلتنا الراهنة وانقسام المفكرين وقادة الاصلاح الاجتماعى حول طبيعة النهضة وصورة المستقبل . فمن ساع الى بعث اسلامى ، أو متجه الى النظريات السياسية الحديثة ، وبخاصة الأممية الاشتراكية ، ومن قائل بالأخذ بأسباب الحضارة الغربية كاملة ، فى شطريها المادى والأدبى ، ومن داع الى التوفيق أو التلفيق على اختلاف فى الدرجات والنوع .

ولعل قراءة متأنية للشوقيات (المعلوم منها والمجهول) والمسرحيات واستنطاق هذه المسرحيات فيما تدل عليه من الفكر والسياسة سيؤدى بنا الى أن نجد انعكاسات هذه الاتجاهات كافة عند شوقى ، بما يؤكد المقولة المأثورة فى الدراسات النقدية : ان الفن مرآة المجتمع وان رسالة الشعر لا تستطيع أن تنفك عن تلبية حاجات الناس وتطلعاتهم .

وليس يعفينا أن نفيض فى هذه الجوانب جميعا ، ونكتفى بأن نشير الى أن الجانب الاسلامى ، والمدائح النبوية بخاصة لتكشف عن جانب من نظرة شوقى الى مفهوم التجديد الحضارى والبعث الجديد لدى أمة تعمل للنهوض والتقدم .

وينبغى أن نتأمل السياقات التى جاء فيها ذكر الرسول عليه السلام،لا من حيث الارتباط بمناسبة دينية أو اجتماعية فحسب ، ولكن من حيث استقلال الغرض الشعرى بقصيدة كاملة ، أو التعرض لمدح النبى أثناء أغراض أخرى . ان هذا الجانب الفنى والتفرقة بين التجربة الكاملة ، وجزء من تجربة شاملة عبر المطولات الشعرية يكشف بدوره عن حجم الاهتمام ونوعه ودلالة وقفته عند سيرة الرسول فى مرحلة من قصيدته المطولة « كبار الحوادث فى وادى النيل » ففى هذه القصيدة الطويلة التى ألقاها فى المؤتمر الشرقى الدولي الذى عقد بجنيف عام ١٨٩٤ (وكان مندوب مصر فيه) ، تناول الشاعر عدة مواضيع ومن أهمها طائفة من الخواطر الدينية .

يبدأ شوقى هذه الخواطر بمناجاة رحيمة خاشعة ، تفيض برا وسماحة وتمجيداً . توجه فيها الى الله بالاعتذار عن الانسانية فى طفولتها وتأول ظواهر الوثنية التى كانت تتعاطاهامن قبل أن يتداركها المرسلون تأويلا حكيماً مسدداً يستوجب الرحمة والعطف ، فهو يتمثلها إذ ذاك بريئة طاهرة بل رشيدة مقدرة ، فلم تكد تنظر فى آيات الله وتفقه من أسرار ملكوته على مقدار ما تهيأ لها حتى قدرته ، وهامت به ، وسعت اليه ، غير أن التعبير لم يسعفها ، والطريق لم يستقم لها ، فاذا هى تريد الله فى الواقع ، وتعبد غيره فى ظاهر الأمر فما من اله عبدته ، ولا عظيم نزهته ، الا فيه صفة من الله أو رمز اليه ، أو دلالة على كمال قدرته وشمول سلطانه :

رب شقت العباد أزمان لا   كتب بها يهتدى ولا أنبياء [1]
ذهبوا فى الهدى مذاهب شتى   جمعتها الحقيقة الزهراء

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠

فـإذا لـقـبـوا قـويـا الـهـا فـلـه بـالـقـوى إلـيـك انـتـهـاء
وإذا آثـروا جـمـيـلا بـتـنـزيـه فـان الـجـمـال مـنـك حـبـاء

ثم يشير الى تمجيد الرسول (ص) والى أن مبعثه كان نورا أضاء العالم ، وان (الله) قد اختص برسالته يتيماً أمياً أوحى اليه بالفرقان فجعل من ضعفه قوة ، ومن نطقه ، معجزة ، فلم يفه بنوابغ كلمة حتى انقاد له البلغاء ، ثم يبين فوضى الناس ومسيس حاجاتهم الى وجوده ورحلة جبريل بنور الوحى بين السماء والأرض ، فتألفت بالشريعة قلوبهم وطهرت نفوسهم ، واستحالت ـ بالقرآن ـ وثنيتهم الى وحدانية تدين (لله) وحده بالعبادة وكانت شريعته ضياء وهاجا ، نسج الله به ضياء الشرائع السابقة حيث قامت على سنن الحق وجلال اليقين إذ يقول :

أشـرق الـنـور فـى الـعـوالـم لـمـا بـشـرتـهـا بـأحـمـد الأنـبـيـاء (1)
بـالـيـتـيـم الأمـى والـبـشـر الـمـو حـى إلـيـه الـعـلـوم والأسـمـاء
قـوة الـلـه ان تـولـت ضـعـيـفـا تـعـبـت فـى مـراسـه الأقـويـاء
أشـرف الـمـرسـلـيـن ، آيـتـه الـنـط ق مـبـيـنـاً وقـومـه الـفـصـحـاء

ونجد هنا اشارته الى ميلاد (أحمد) (ص) ، ذلك أن ميلاد الأنبياء فى كل التفاسير الشعبية الدينية دائماً كان مصحوباً بظاهرات طبيعية خارقة ، فلقد بزغ نجم (أحمد) وأشرق بنوره (الرسول) (ص) كما استرشد الحكماء الثلاثة الى مكان الطفل المسيح بنجم السماء ... ونلاحظ أن الشاعر شوقى كرر أثر الميلاد فى الكون ومسرى آياته فى الأرجاء مصحوباً بالظاهرات التى ذكرناها .

ويقبل على العرب يمدحها ويحمد بلاءها فى حماية الدين ، ويشيد بمكانتها من البيان وبمآثرها على العالمين ، فيذكر كيف أشاعت الرشد ، وبسطت العدل وردت الحقوق ، ونشرت النظام وشرعت الشرائع وسنت السنن ، وكيف طبعت الحضارة بطابعها ، ووجهت الدنيا وجهتها ، وكيف صارت سيرتها مثلا عالياً :

وحـمـاهـا غـر كـرام أشـداء عـلـى الـخـصـم بـيـنـهـم رحـمـاء (2)
أمـة يـنـتـهـى الـبـيـان الـيـهـا وتـئـول الـعـلـوم والـعـلـمـاء
تـحـمـل الـنـجـم والـوسـيـلـة والـمـيـزان مـن ديـتـهـا الـى مـن تـشـاء

---

(1) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٤ : ١٥
(2) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٥

وتـنـيـل الـوجـود مـنـه نـظـامـا هـو طـيـب الـوجـود وهـو الـدواء

ويسأل الشاعر بني الظل والماء من الأعاجم : أكان لهم عجبا أن يخرج الله من الفقر هداة للبشر ، وأساتذة للدنيا ، وأن يثير من خيام الصحراء آساد هيجاء ، ومساعر حروب يقضون على الفوضى ، ويقطعون دابر الطغيان ويحلون السلام محل الخصام والحرية محل الاستبداد ، والرحمة محل القسوة ، والأخاء والمساواة محل الأثرة والاستبداد ؟ وأيا ما يكن جوابهم فقد أمضى الله ارادته ، وأتم كلمته ، وأدت العرب الأمانة فأحسنت الأداء وأبلغت الرسالة ، فأحسنت البلاغ ، بشهادة البر والبحر من أقصى الشرق الى أقصى الغرب فى العالم القديم :

أيـرى الـعـجـم مـن بـنـى الـظـل والـمـا ء عـجـيـبـا أن تـنـجـب الـبـيـداء ؟ [1]

وتـثـيـر الـخـيـام آسـاد هـيـجـا ء تـراهـا آسـادهـا الـهـيـجـاء ؟

تـشـهـد (الـصـيـن) والـبـحـار وبـغـدا د و (مـصـر) والـغـرب و (الـحـمـراء)

ويتناول الشاعر (عمرو بن العاص) مثلا لحكام العرب الأولين ، فيذكر كيف استطاع ببراعته فى الادارة والسياسة والحكم أن يوسع عمران مصر ، ويجعل منها قطرا عربى اللغة والدين ، بل يجعل منها ركنا قوياً طالما لجأت اليه الخلافة ، وعول عليه الدين فى عهود الضعف والانحلال ، فكان لهما حمى ونصيرا ، وللقائمين عليهما مثوى كريما وظلا ظليلا !

مـن كـعـمـرو الـبـلاد والـضـاد مـمـا شـاد فـيـهـا والـمـلـة الـغـراء [2]

شـاد لـلـمـسـلـمـيـن ركـنـا جـسـامـا ضـافـى الـظـل دأبـه الايـواء

طـالـمـا قـامـت الـخـلافـة فـيـه فـأطـمـأنـت وقـامـت الـخـلـفـاء

وانـتـهـى الـديـن والـرجـاء الـيـه وبـنـو الـديـن أذاهـم ضـعـفـاء

وما أظن أنه آثر عمرا باختيار لأنه كان يراه فى العرب فرداً وحيداً لا ثانى له ولا ضريب ، ولكن لأنه الوالى الأول على مصر لعهد العرب الأولين .

وينتقل الى بنى أيوب فيمتدح دولتهم ، ويذكر بالخير فضلهم فى حماية الدين وتشجيع العلم ، واكرام مثوى الضيف :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣١

(٢) نفس المصدر السابق

واذكـــر الــغـــر آل أيـــوب وأمـــدح   فـمـــن الـمـــدح لـلـرجـال جـزاء [1]
ثـم حـمـاة الاسـلام والـنـفـر الـبـيـض   الـمـلـــوك الأعـــزاء الـصـلـحـــاء
كـل يـوم بـالـصـالـحـيـة حـصـن   وبـلـبـيـس قـلـعـة شـمـــاء
وبـمـصـر لـلـعـلـم دار ولـلـضـيـفـا   ن نـــار عـظـيـمـة حـمـــراء

والملاحظ أن الشعراء أخذوا ــ بوحى الظروف ــ فى قصائد المديح النبوى (ص) ولم يعودوا يقتصرون على تصوير الخوارق التى كانت تظهر أحياناً فى العهد الأول للرسالة المحمدية ، كما أخذوا يهتمون بابراز محاسن الاسلام والدفاع عنه والدعوة الى الأخذ بتشريعاته والاهتداء بهديه ، وقد أتيح للمداح المتأخرين بأطلاعهم على سير الرسول (ص) وعلى رأسها (سيرة ابن هشام) أن يشاهدوا الصورة الكاملة لحياته ، وأن يشيدوا به على أساس ما ورد فيها من المواقف الباعثة على التقدير عند المسلمين ما لم يتح لأسلافهم من مداحه الأوائل الذين كانوا هم أنفسهم بعض تفاصيل هذه الصورة .

ومن شعراء المديح النبوى المتأخر الشاعر البوصيرى [2] صاحب (البردة) ــ توفى عام ٦٩٥ هـ ــ الذى عارضه شاعرنا أحمد شوقى فى قصيدة (نهج البردة) إذ كان البوصيرى يشيد بالرسول (ص) على أساس سيرته ، ولم يعتمد الشاعر على عملية النظم المجرد وانما أضاف شيئاً من التلوين الفنى جعلت لأبياته تأثيراً أقوى ، وقد تأثر بها شاعرنا (شوقى) .

ونستعرض هنا كلا البردتين لنرى مدى العلاقة بينهما مثلا لقصائد المديح النبوى .

أطلق البوصيرى على قصيدته اسم (البردة) تشبيها لها بالقصيدة التى نظمها كعب بن زهير ، وأتى بها الى الرسول (ص) مستشفعاً بها عنده ، ولأن الرسول (ص) خلع على كعب البردة الشريفة حين قال قصيدته ووصل الى قوله :

ان الـرسـول لـنـور يـسـتـضـاء بـه   مـهـنـد مـن سـيـوف الـلـه مـسـلـول [3]

والبوصيرى استشفع ببردته عند النبى (ص) وعند الله أن يعافيه عندما أصيب

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣١
(٢) صاحب البردة (محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله بن صنهاج بن هلال) الصنهاجى كان أحد أبويه من أبو صير واشتهر بالبوصيرى وهى احدى قرى محافظة بنى سويف ــ توفى بالأسكندرية عام ٦٩٥ هجرية .
(٣) ديوان كعب بن زهير ــ ص ٢٩

بمرض (الفالج) وكرر انشادها ثم نام فرأى النبى (ص) يمسح على وجعه بيده المباركة وألقى عليه البردة فانتبه معافى لذلك [1] .

وتعتبر البردة تطويراً للمدائح النبوية بما امتازت به من عد شمائل النبى (ص) ، فاذا نظرنا الى مطلعها وجدناه يبدأ بالغزل على عادة العرب ، يقول :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم [2]

... ...

أيحسب الصب ان الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم

وعلى طريقة البوصيرى افتتح شوقى قصيدته (نهج البردة) بالنسيب وأحاديث الهوى وذكريات الصبابة ، يقول شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم [3]

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم [٥]

ولا يخفى على أحد المقابلة التى يعتمد عليها شوقى وبراعة الاستهلال فى البيتين السابقين ، وشوقى سار على طريقة البوصيرى فى بردته.أخذ من طريقها ومعانيها وأساليبها وعباراتها وقوافيها حتى موقف زهير من هرم [٥] الذى قال عنه البوصيرى :

ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم [4]

وقد جاء شوقى بنفس الموقف بقوله :

يزرى قريضى زهيرا حين أمدحه ولا يقاس الى جودى ندى هرم [٥]

ويخلص الامام البوصيرى من مقدمته الغزلية الى الحديث عن النفس وهواها ويطلب معينا على نفسه يساعده على رد جماحها وكبح غوايتها،ثم يخلص ذلك كله فى حكمة خالدة ليقول :

---

(١) الوافى بالوفيات — ج ١ — صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدى — ص ٢٨ .
(٢) ديوان البوصيرى — ص ١٤ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٠
(٥) الاجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف .
(٤) ديوان البوصيرى — ص ٢٨ .
(٥) زهير ابن ابى سلمى المزنى كان سيداً غنياً فى الجاهلية معروفاً بالحلم والحكمة ، وشاعراً فحلا .
(٥) هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى ، مدح زهير هرماً فأحسن ووصله هرم فأجز له الصلة وبالغ فى العطاء .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٥

فلا ترم بالمعاص كسر شهوتها ان الطعام يقوى شهوة النهم [1]

ويأتى شوقى ليقف من النفس موقفاً مماثلا فيخاطب نفسه مترفقاً بها وينصحها فى هوادة ولطف ، فالنفس هى التى تغوى الانسان وتزين له الباطل فيهيم به ويلح فى طلبه ، ويبين أن الأمم لا بقاء لها الا بالأخلاق ، والعاقل من يعود نفسه على الأخلاق الحميدة ، إذ يقول :

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتسم [2]

ويخاطب شوقى الدنيا خطاب انسان مجرب لها ، إذ يقول :

هامت على أثر اللذات تطلبها والنفس ان يدعها داعى الصبا تهم [3]

ويأتى بالحكمة على طريقة البوصيرى ، يقول :

والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم [4]
تطغى إذا مكنت من لذة وهوى طغى الجياد إذا عضت على الشكم

ويأتى العنصر المهم بعد الغزل والحكمة وهو مدح الرسول (ص) فالبوصيرى يبدأ مدحه فى خط متتابع يمهد لهذا المدح باظهار تقصير الشاعر بترك النوافل ، معتبراً ذلك منه ظلماً لسنة ذلك النبى (ص) الذى طالما قام الليل الى أن تألمت وتورمت قدماه ، ومن ثم تناول بعض الجوانب من حياة الرسول وخصائصه وصفاته ، فهو الذى تحمل الجوع فى سبيل دعوته ، وصد عن الذهب حين عرض عليه ، ثم هو سيد الكونين وسيد الناس عامة ، وهو شفيع الناس أمام الأهوال ، وهو حبل الله الذى لاينفصم فاق النبيين فى الخلق والخلق والعلم والكرم ، بل انهم جميعاً يلتمسون منه العلم والحكمة ، لأن الله اصطفاه ، ويقارن بين المسيحية والاسلام إذ يقول :

ظلمت سنة من أحيا الظلام الى ان اشتكت قدماه الضر من ورم [5]
وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

---

(١) ديوان البوصيرى — ص ١٥ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٣
(٣) نفس المصدر السابق — ص ١٩٤
(٤) نفس المصدر السابق
(٥) ديوان البوصيرى — ص ١٨

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذى تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيبا بارى النسم
منزه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... وأحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب الى قدره ما شئت من عظم
فان فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيى اسمه حين يدعى دارس الرمم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرص علينا فلم نرتب ولم نهم
... ...
وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فانما اتصلت من نوره بهم
فانه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

والبوصيرى يرد بتفصيل مدحه للرسول محمد (ص) وبتوسع دون أن تظهر فى نفسه حاجة للتعليل والتبرير ، فلو تأملنا ألفاظ المديح الدينى لديه لرأيناها تحوى معان كثيرة كلها تميجد للرسول (ص) يقول : (فاق النبيين ـــ اصطفاه ـــ منزه عن شريك ـــ خير الخلق كلهم ـــ فضل رسول الله ليس له حد ـــ هو شمس فضل ـــ وهو نور آية الرسل) وما دامت هذه الألفاظ تتردد فى سياق مدح الرسول فهى تكتسب طاقة ايحائية خاصة وتؤكد حديث البوصيرى عن تفوق محمد (ص) على سائر الأنبياء وتفرده بكمال المحاسن ، وعظيم فضله على البشرية وأنه خير هذه البشرية ، وأكد البوصيرى قوله بأن الرسول أفضل الخلق باستخدام صيغة التفضيل المطلق (هو خير خلق الله كلهم) وهو خاتم الأنبياء إذ شبهه بالشمس المشرقة ، وقد ردد صيغ التأكيد المطلق بأن الرسول لا يدانيه بشر فى منزلته ، واعتمد على أسلوب مطابقة الصفات التى أعطاها للرسول (ص) ليؤكد هذا التمجيد الدينى ، كقوله :

وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فانما اتصلت من نوره بهم [1]

---

(١) ديوان البوصيرى ـــ ص ١٨

فانه شمس فضل هو كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

وكل ما قيل فى الرسول (ص) من مدح لا يستطيع أن يوفيه حقه ، ثم يقف البوصيرى وقفة الواعى خشية أن تجرفه المدائح ويستبد به الهوى كما استبد بالنصارى فى تعظيم عيسى (عليه السلام) فيقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم [١]

وقد عمد البوصيرى الى هذا الايقاع الموسيقى العالى فى المقاطع وعمد الى تجانس الكلمات ليخاطب العاطفة والاحساس وليجعل تأثيرها فى النفس عالياً ومؤثراً .

أما شوقى فيقول

محمد صفوة البارى ، ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسم [٢]

... ...

سناؤه وسناه الشمس طالعة ... فالجرم فى فلك ، والضوء فى علم

... ...

فاق البدور ، وفاق الأنبياء ... بالخلق والخلق من حسن ومن عظم

... ...

أخوك عيسى دعا ميتا ، فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم

والجهل موت ، فان أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل ، أو فابعث من الرجم

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم

جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا ، وان تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء : كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلم (*)

طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها ... فى كل حين قتالا ساطع الحدم (*)

لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف ، ما انتفعت بالرفق والرحم

---

(١) نفس المصدر السابق — ص ١٧ . .

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٥ : ٢٠١ .

(*) الغلم : الثائر .. الهائج .

(*) الحدم : شدة اختراق النار .

لولا مكان لعيسى عند مرسله وحرمة وجهت للروح فى القدم
لسمر البدن الطهر الشريف على لوحين ، لم يخش مؤذيه ، ولم يجم
جل المسيح ، وذاق الصلب شانئه ان العقاب بقدر الذنب والجرم
أخو النبى ، وروح الله فى نزل فوق السماء ودون العرش محترم
علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات فى زمن ما طال من عمد ، أوقر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة فى الأعصر الغر ، لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش ، واعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ، ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ولم نعد سوى حالات منقصم

* * *

ذكر شوقى الرسول (ص) كما ذكره البوصيرى بالخلق والخلق الكريم وأنه نبى فاق جميع من تقدمه من سائر الأنبياء ، وأثبت أن معجزة محمد (ص) مستمرة لكل الأجيال فهى معجزة معنوية انسانية (أنت أحييت أجيالا) ، ويؤكد سمو هذه المعجزة للرسول (ص) بأسلوبه الحكمى الذى جاء به (والجهل موت) ، وشوقى حينما يتحدث عن قضية الفتح الاسلامى يثبت أنه دين تسامح وليس دين قوة ، فالرسل لم يبعثوا لقتل الناس والاسلام دين حق وليس دين سيف ، ودين منطق واقتناع.فهو يأخذ طابع التوعية الذهنية ، وهذا رد من شوقى على من أتهم الاسلام بأنه دين سيف وحرب. (قالوا غزوت ..) هذه هى التهمة الموجهة للدين الاسلامى من قبل أعدائه ، وقد بين شوقى ان أصل الفتح بالقلم،وأن استعمال السيف فى الاسلام لم يكن إلا مع الجهاد فهو واجب ، وجعل شوقى السيف رمزاً للقوة المادية أما القلم فهو رمز للقوة المعنوية ، وهذه المقابلة أبرزت تكامل هذين العنصرين . أما ضرورة لجوء الاسلام للسيف فقد برره شوقى بالحكمة التالية :

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم [1]

قابل شوقى بين الخير والشر وبين الشر والشر.ويبين لنا أن الشر فى بعض الأحيان

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٠١

سلاح ذو حدين قد يأتى بنتيجة ايجابية إذا ما اقتضت الضرورة ، وكذلك السيف يتمثل في استخدامه حيث يتحقق نفعه .

وشوقي حين يتحدث عن الجهاد فقد تأثر بروح عصره ، وحينما نستعرض ألفاظه التى أوردها فى أبياته السابقة نجدها تخدم موضوع الحرب والسياسة وقد يتخذها شوقى كمقابلات موضوعية أحداث عصره مثل : (القتال ـ الفتح ـ الحرب ـ الجهاد ـ سفك دم ـ قتل نفس) . ومع ذلك فشوقى لاينكر ناموس الحياة ، ولا ينتصر لخلقه فى الموادعة على مطالب الدول فى الحرب وانتظام الأمور (والحرب أس نظام الكون) . أما الدعوة للجهاد فهى جهاد شرعى إذا اقتضت الظروف (دعوتهم لجهاد ..) .

أما آداب الحرب والقتال فهى من لوازم هذه الفلسفة الاسلامية.ولو كانت الحرب غاية فى ذاتها ـ كما يزعم أعداء الاسلام ـ لما كانت لها آداب تشرع ، ولا حرمات ترعى ، لأن الأمر فيها يصبح أمر تخريب وتدمير يقول :

علمتهم كل شيء يجهلون به   حتى القتال وما فيه من الذمم [1]

والاسلام أباح القتال فى حالة الاعتداء ، قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » [2] .

وشوقى حينما ذكر الرسول (ص) وقدمه على سائر الأنبياء ، أعطى معه عيسى المسيح حق الأخوة ودعاه بأخيه (أخوك عيسى).على العكس من البوصيرى الذى جعل تفضيل الرسول (ص) مطلقاً . إذ أن لهؤلاء كل معجزته وقد أرسلهم الله سبحانه لهداية البشرية ، وأشاد بالمسيحية (المسيحية الغراء) و (جل المسيح) و (روح الله) وقد بين شوقى هنا منزلة المسيح من الله من ناحية . ومنزلته من النبى محمد (ص) من ناحية أخرى ، وتاريخ المسيحية الغراء التى احتملت من الغذاب على أيدى الأباطرة الرومان ما هو فوق الطاقة والاحتمال ، وما صنيع (نيرون) ببعيد الذى أحرق مدينة روما ، ثم جاء الملك (قسطنطين) من بعد فأملى للمسيحية فى الدولة ومكن للصليب فى معابد الأوثان ثم غلب الصليب من بعد بقوة السيف يقول شوقى :

لولا حماة لها هبوا لنصرتها   بالسيف ، ما انتفعت بالرفق والرحم [1]

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٠١ .
(٢) قرآن كريم ـ سورة البقرة (آية ١٩٤) .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٠١ .

وقد قابل شوقى بين المسيحية فى الماضى وبينها فى الحاضر ، أما (أشياع عيسى) ويعنى بهم المسيحيين الذين دأبوا على تحريف رسالة عيسى والنيل من الاسلام أيضاً ، فالمقارنة عند شوقى بين هؤلاء تحولت من مستوى العقيدة الى مستوى السلوك عبر الأجيال . ومما يلاحظ فى أبيات شوقى موسيقيتها العالية وكثرة حكمها المدعمة بالحقائق الخالدة ، والقيم المشتركة ، وقد أورد أبياته على شكل سرد ملحمى لهذه الحوادث بأسلوب كلاسيكى فيه تأثر بالقديم ، وهذا العمل يبرز لنا قدرة اللغة العربية على الاحتفاظ بديباجتها الكلاسيكية فى العصر الحديث ، ويبرز لنا مدى ثروة التراث العربى الأدبى . والى جانب ذلك فقد تأثر شوقى هنا بعبارات البوصيرى ونذكر منها ما ورد فى المقطوعة التى ذكرناها سابقاً .

يقول البوصيرى :

وأحييت السنة الشهباء دعوته   حتى حكت غرة (*) فى الأعصر الدهم [1]

ويقول شوقى :

تلك الشواهد تترى كل آونة   فى الأعصر الغر لا فى الأعصر الدهم [2]

العبارة فى بيت البوصيرى قامت على تشبيه تمثيل (الدعوة فى السنة الشهباء : الغرة فى الأعصر الدهم) والمقابلة عنده غير متوازنة (غره ــ أعصر دهم) ، أما شوقى فالمقابلة عنده متوازنة ومتجردة من التشبيه (أعصر غر : أعصر دهم) .

أما الموضوع المشترك الآخر بين البوصيرى وشوقى فهو موضوع الإسراء الذى تناوله كل من الشاعرين :

قال البوصيرى :

يا خير من يمم العافون ساحته   سعياً وفوق متون الأينق (*) الرسم [3]
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر   ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

(١) ديوان البوصيرى ــ ص ٢١ .
(*) غرة القوم : شريفهم ، وهى البياض .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٠٢
(٣) ديوان البوصيرى ــ ص ٢٣
(*) الأينق الرسم : النوق الشديدة الوطء لقوتها ، حتى أنها ترسم فى الأرض لقوتها .

سريت من حرم ليلا الى حرم ... كما سرى البدر فى داج من الظلم
وبت ترقى الى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم يرم
وقدمتك جميع الأنبياء بها ... والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع ... فى موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق ... من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالاضافة اذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أى مستتر ... عن العيون وسرّأى مكتتم
فخرت كل فخار غير مشترك ... وحزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ماوليت من رتب ... وعز ادراك ما أوليت من نعم

تكملة لما أورده البوصيرى فى حديثه عن الرسول (ص) وتفضيله على سائر المخلوقات من البشر توسع أكثر فى خصال الرسول ذاته وبين مكانته عند الله بكل فخر وخير مقام،واستمر فى تتابع الأحداث بشكل متسلسل بضرب من الموسيقى العالية . وتسلسل أحداث البوصيرى جاء بنفس غنائى صوفى،لأن البوصيرى أحد شيوخ الطرق الصوفية إذ أن صاحبه هو الشيخ أبو العباس المرسى الأنصارى،وكان إمام الواصلين وأحد شيوخ الطرق الصوفية ، وقد جعل البوصيرى موضوع الاسراء بين موضوع اعجاز القرآن وموضوع جهاد الرسول والمسلمين فى سبيل الله،وحاول ربط حلقات هذه المواضيع متوسعاً فى نداء الرسول (ص) لتكون موضوعاته متتابعة ومتسلسلة ، وقد أهمل البوصيرى الحديث عن ركوبة الرسول (ص) (البراق) فهى عنده من دواب الناس ، بينما شوقى ذكر (الأينق الرسم) لينزه دابة الرسول عن أن تكون منها وهو من باب اشتراك العبارة بين البوصيرى وشوقى .

يقول شوقى :

ركوبة لك من عز ومن شرف ... لا فى الجياد ، ولا فى الأينق الرسم [1]

وقد شبه البوصيرى الرسول (ص) بين بقية الرسل بالعلم فى معنى القائد بين جنده ، أما شوقى فقد شبه الرسول (ص) بالعلم فى معنى المقتدى به عامة،وشبهه بالبدر، وصورة شوقى أكثر وضوحاً وايغالا إذ يقول شوقى :

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ١ ـــ ص ١٥١

أسرى بك الله ليلا ، إذ ملائكه والرسل فى المسجد الأقصى على قدم [1]
لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم

صورة شوقي في البيتين السابقين وصف فيها الرسول بين الملائكة والرسل بالعلم بين الجند .

ويقول شوقى :

صلى وراءك منهم كل ذى خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمم [2]
جبت السموات أو ما فوقهن بهم على منورة درية اللجم
ركوبة لك من عز ومن شرف لا فى الجياد ، ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى ، وصنعته وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح ، ولا يسعى على قدم
وقيل : كل نبى عند رتبته ويا محمد ، هذا العرش فاستلم
... ...
وضاعف القرب ما قلدت من منن بلا عداد ، وما طوقت من نعم

موضوع الاسراء عند شوقى يتكون من مجموعة من الصور لها طاقة كافية لخلق جو ملحمى ، فهو يتحدث عن الاسراء وعن أهم العناصر البارزة فى هذه الحادثة بسرعة ويتنقل بينها دون حسن تخلص ، فهى عنده بمثابة الحلقات لكن دون تسلسل بعكس البوصيرى .

والى جانب اشتراك شوقى مع البوصيرى فى الموضوعات مع الاختلاف فى طريقة الصياغة ، فإن شوقي يقتفى أثر البوصيرى وغيره من القدماء بعدة أمور.منها المقاطع والصور والموسيقى والوزن والقافية والعبارات والتراكيب والمقابلات . وذلك من باب اطالة النفس فى القصيدة من ناحية ومن ناحية أخرى لتطعيم الشعر بهذا الموروث وأساليبه لأن الموروث يكسب القصائد جلالة القدم خاصة إذا كان من الأسماء القديمة كالأعلام مثل (هرم بن سنان) ممدوح زهير بن أبى سلمى . وغيره ولكن شوقى لايخضع فى اقتباساته للترتيب .

فمن أمثلة اشتراك الشاعرين البوصيرى وشوقى فى بعض المواضع يقول البوصيرى :

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٩٨ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٩٨ : ١٩٩ .

وأحيت السنة الشهباء دعوته ... حتى حكت غرة فى الأعصر الدهم [1]

ويقول شوقى :

تلك الشواهد تترى كل آونة ... فى الأعصر الغر ، لا فى الأعصر الدهم [2]

استخدم شوقى العبارة الجاهزة (الأعصر) التى وظفها لتدخل فى مقابلة متوازنة ولتعطى طاقة دلالية وذلك بحبين استعماله لها . وقد مر بنا مثال (الأينق الرسم) وهو من باب اشتراك العبارة بين البوصيرى وشوقى .

ومن أمثلة اشتراك البوصيرى وشوقى فى الألفاظ والتراكيب وترتيب عناصر الجملة يقول البوصيرى :

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى اليك ولو أنصفت لم تلم [3]

ويقول شوقى :

يا لائمى فى هواه ــ والهوى قدر ــ ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم [4]

وقد أخذ شوقى بعض معانى الشاعر البوصيرى وتصرف فيها وجعلها توافق أبياته بحيث لا نشعر بأنها معارضة فتبدو كأنها من مكونات أبياته الشعرية إذ يقول شوقى :

وضاعف القرب ما قلدت من منن ... بلا عداد ، وما طوقت من نعم [5]

ويقول البوصيرى :

وجل مقدار ما وليت من رتب ... وعز ادراك ما أوليت من نعم [6]

سلك البوصيرى سبيل تعظيم دور الاسراء فى تقوية المعجزة ، بينما سلك شوقى سبيل الالحاح .

ويقول شوقى من باب التصرف فى المعنى :

---

(١) ديوان البوصيرى ــ ص ٢١

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٠٢

(٣) ديوان البوصيرى ــ ص ١٤٠

(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٩١

(٥) نفس المصدر السابق .

(٦) ديوان البوصيرى ــ ص ٢٤ .

ان قلت فى الأمر (لا) أوقلت فيه (نعم) فخير الله فى (لا) منك أو (نعم) (١)

ويقول البوصيرى :

نبينا الآمر الناهى فلا أحد أبر فى قول (لا) منه ولا (نعم) (٢)

فالبوصيرى أجمل دور الرسول فى الأمر والنهى وبعد ذلك فصله أما شوقى فقد عبر عنه كناية وردد كلمتى (لا) و (نعم) للتوكيد ولتعزيز موسيقى البيت .

والى جانب تصرفه فى المعانى يتصرف شوقى ببعض الصور فيأخذ بعض عناصر الصورة ويتصرف فيها مثل ذلك قوله :

الحاملات لواء الحسن مختلفا أشكاله ، وهو فرد غير منقسم (٣)

ويقول البوصيرى :

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم (٤)

الصورة مشتركة بين الشاعرين مع اختلاف ان البوصيرى وصف بها الرسول ، وشوقى وصف بها النساء .

وشوقى ينفى عن نفسه بعض المواضع بأنه عارض الامام البوصيرى شيخ المدائح النبوية ، وجعل شوقى نفسه تابعاً لصاحب البردة واعترف بالضعف أما عبقرية البوصيرى . يقول :

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم (٥)
مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم
وانما أنا بعض الغابطين ، ومن يغبط وليك ولايذمم ، ولا يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس ترمى مهابته سحبان (٥) بالبكم

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٠١
(٢) ديوان البوصيرى — ص ١٧
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩١
(٤) ديوان البوصيرى — ص ١٧
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١١٩ : ٢٠٠ .
(٥) سحبان وائل من بنى باهله . كان يضرب بفصاحته المثل .

والملاحظ على شوقى أنه حرص على تسمية قصيدته (نهج البردة) لتختلف بهذه التسمية عن (بردة البوصيرى) ، كأنما رأى ان هذا القدر من الابانة لا يستقل بالكشف عن قصده ، فهو لذلك ينوعه ويضيف إليه ، أو كأنما رأى أنه لايريد أن يكشف عن قصده منذ اللحظة الأولى ، فهو يجعله فى اسم القصيدة ليكون أول ما يعلم الناس عنها من شىء . ومن حق شوقى أن ينفى عن نفسه ما يشاء ، وأن يتخذ لهذا النفى من أساليب البيان ما يشاء ، كما أن له أن يكثر من هذه الأساليب ، وأن ينوع فيها ، ويعدد مواضعها . والواقع أن نهج البردة الشوقية تتفق مع البردة البوصيرية فى الموضوع وفى الوزن والقافية بل فى طابع الأسلوب . كلتاهما فى مدح الرسول ، وكلتاهما من وزن البسيط ، وكلتاهما تصطنع البديل ما وجدت اليه سبيلا . أما باقى الموضوعات الأخرى التى وردت فى البردتين ولم نتناولها بالتفصيل مثل معجزة القرآن الكريم،والدعاء والتوسل الى الله، ومدح الصحابة وغار حراء وغيرها فكلها تقاس على ما تناولناه فى شرح القصيدتين من موضوعات .

أما (الهمزية النبوية) فنلاحظ أنها قصيدة من قصائد المديح النبوى . فالبوصيرى له همزية وشوقى كذلك والملاحظ أن البوصيرى وشوقى يتفقان فى الأغراض. والاتفاق هنا هو وحدة الموضوع كما لا يخفى ، ولكن شوقى يختلف عن البوصيرى بمثل ما اختلف عنه فى (نهج البردة).إذ يختص دونه بحديث مستفيض عن الاشادة بخصائص الاسلام ونظم حكمه ومنهجه فى سبيل الاصلاح . يقول شوقى وقد أطلق اسم الهدى على الرسول (ص) إذ لم يسبقه أحد من الشعراء لهذا الاسم :

بك يا (ابن عبدالله) قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء [1]
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

بينما تقارب الشاعران فى تناول دعوة الاسلام حين بدت غريبة واهية القوى ، ثم مضت عزيزة مرهوبة الجناب ، استبد خصومها بغطرسة الكثرة ، وغرر العدة واستعصم دعاتها بركن الحق ، وبأس العزم ، فسقط تحت أقدامهم جبروت الباطل ، ومضى جند

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٦ .

(الله) أعزة فى موكب النصر،عن تلك المعانى أفصح الشاعران ، (فالبوصيرى) يعرض فى أناة صوراً بديعة هادئة يقول فيها :

وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء [1]

وهو يدعو الى الاله وان شق عليه كفر به وإزدرا

ويدل الورى على الله بالتو حيد وهو المحجة البيضاء

وشوقى يسوق تصويره فى حماسة قوية متلاحقة وعرض سريع أخاذ :

الحق عوض الله كل أبيه بين النفوس حمى له ووقاء
هل كان حول محمد من وقومه الا صبى واحد ونساء
فدعا فلبى فى القبائل عصبة مستضعفون قلائل أنضاء

* * *

كما يتقارب الشاعران فى استشفاع الرسول والتوسل اليه ، فالبوصيرى مطيل جداً (عدد أبياته أكثر من مائة) لكن الأقسام على الرسول يذهب منها بأربعة وخمسين ، يقسم عليه بما آتاه من العلم وبعض ما أيده به من معجزات ، ثم نراه يفزع من ذنوبه ويقر بها ويلتمس التدارك بالعناية الإلهية فيقول :

يا أبا القاسم الذى ضمن أقسا مى عليه مدح له وثناء [2]
... ...
يا رحيما بالمؤمنين اذا ما ذهلت عن أبنائها الرحماء
يا شفيعا بالمذنبين إذا أشفق من خوف ذنبه البرآء
جد لعاص وما سواى هو العا صى ولكن تنكرى استحياء
وتداركه بالعناية مادا م لهُ بالذمام منك ذماء

---

(١) ديوان البوصيرى ــ ص ٥٤ : ٥٥ ــ شرف الدين أبى عبدالله محمد بن سعيد ــ تحقيق محمد سيد الكيلانى ــ ط ٢ ــ طبع ونشر مصطفى البابى الحلبى ــ ١٩٧٣ .

(٢) ديوان البوصيرى ــ ص ١٠٢ .

أخرته الأعمال والمال عما ... قدم الصالحون والأغنياء
كل يوم ذنوبه صاعدات ... وعليها أنفاسه صعداء

* * *

أما شوقى فانه ينسى نفسه ويتشفع بالدعاء لقومه ، فهم ضعاف متفرقون فى ظل اتهام المستشرقين للمسلمين بالتواكل والضعف،فظلموا الشريعة بتخلفهم عن حضارة مشت سلفاً فى أضوائها :

يا من له عز الشفاعة وحده ... وهو المنزه ما له شفعاء [1]

... ...

ما جئت بابك مادحا بل داعيا ... ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوك عن قومي الضعاف لأزمة ... فى مثلها يلقى عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم ... ركبت هواها والقلوب هواء
متفككون فما تضم نفوسهم ... ثقة ، ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهم نعيم باطل ... ونعيم قوم فى القيود بلاء

* * *

وواضح من هذا التقابل ان بين الشاعرين من البعد ما بين الايثار والاثره من فارق ، وحسبى فى التعليق عليهما ما أبداه الاستاذ (على النجدى ناصف) من أن شوقى : « بحكم مواهبه ، ورسوخ ملكة الشعر عنده ــ يجعل من نفسه لساناً لقومه ، يصف للرسول الكريم أدواءهم ويسأل لهم الطب والشفاء ، فهو جماعى زعيم ، واسع النظرة ، مشترك الفضل ، مؤمن بقوة الترابط فى الأمة الواحدة ، وتأثر آحادها بما تتأثر به جملتها ، وان اختلفوا فى مبلغ هذا التأثر ومداه .

أما البوصيرى فكما رأيت من الأثرة والفردية ، يبغى الخير لنفسه ، ويخصها به وحدها كأنه لايفكر الا فيها ، ولايعمل الا لها ، ولايريد أن يكون لها فيما تشتهى شريك مع أن حال المسلمين لعهده كانت أكثر سوءاً ، وأشد فساداً منها لعهد شوقى ، فالفتن قائمة ، والحروب متداركة ، والاضطراب شامل ، والفوضى تكاد تفشى كل مكان [2] .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٩ .
(٢) الدين والأخلاق فى شعر شوقى ــ على النجدى ناصف ــ ص ١٤٥ .

ويختتم الشاعران قصيدتهما بما ينتظر أن يكون ختاماً لأمثالهما من الصلاة والتسليم على رسول الله ، فيقول البوصيرى :

فسلام عليك يترى من الله وتبقى به لك البأواء (*) (١)
وسلام عليك منك فما غيرك منه لك السلام كفاء
وسلام من كل ما خلق الله لتحيا بذكرك الاملاء

ويقول شوقى :

صلى عليك الله ما صحب الدجى حاد وحنت فى الفلا وجناء (١)
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم بجنان عدن آلك السمحاء
خير الوسائل : من يقع منهم على سبب إليك فحسبى الزهراء

* * *

أما قصيدة (ذكرى المولد) التى قالها شوقى فهى قصيدة من قصائد المديح ألنبوى وتعتبر من أحسن ما نظم فى هذا المجال،إذ لم ينظمها معارضة أو محاكاة مثل (نهج البردة) و (الهمزية) ولذلك نراها تفضلهما شأناً وفناً ، وبدت أدل منهما على شخصية الشاعر ، وأشبه به ، وأحق بالانتساب إليه ، والقصيدة طويلة ، أبياتها واحد وسبعون ، متعددةالأغراض ، وأغراضها هى : (١) النسيب ، (٢) وصف الدنيا ، (٣) الحكمة ، (٤) مدح الرسول والتوسل به . والذى يهمنا فى مجال بحثنا هذا هو مدح الرسول (ص) .

ومدار المدح فى القصيدة ثلاثة أمور : أولها البر ، وعمل النبى له ، ونجاحه فى الدعوة اليه ، وجمع الناس عليه بعد أن تفرقوا فيه ، وضلوا عن سوائه بعد المسيح عليه السلام ، والثانى لمحات سريعة عن بيان الرسول ، وأثره فى الهدى الى الله ، وعن جهاده فى أداء الرسالة ، والتمكين لها ، واعلاء كلمتها ، ثم عن فضله على الأعقاب من بعد ، إذ هداهم الطريق الأرشد الى المجد وعلمهم كيف تكون الأمرة على العالمين يقول :

---

(١) ديوان البوصيرى — ص ١٠٤ .
(*) الباواء : الرجوع .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٩ .

وأرسل عائلا منكم يتيما ... دنا من ذى الجلال فكان قابا [1]
نبى البر بينه سبيلا ... وسن خلاله وهدى الشعابا
تفرق بعد عيسى الناس فيه ... فلما جاء كان لهم متابا
وشافي النفس من نزعات شر ... كشاف من طبائعها الذئابا
وكان بيانه للهدى سبلا ... وكانت خلية للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى ... أخذنا امرة الأرض اغتصابا

* * *

وكما عودنا شوقى فى مدائحه نراه يعتمد على المأثور القرآنى وفى البيت الأول (عائلا يتيما ، قابا) مصدقا لقول الله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » [2] ، وقال الله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » [3] . ونرى الشاعر فى البيت الرابع متأثراً بمذهب المتشائمين ، ثم نلاحظ أن الحكم التى ينثرها شوقى هنا وهناك لاتكاد تخلو منها قصيدة إذ يقول :

وما نيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا [4]
وما استعصى على قوم منال ... إذا الأقدام كان لها ركابا

ومما يدور عليه مدح الرسول (ص) — اشارة عابرة الى مولده والبشائر التى لازمته والفضل الذى أسدته أمه الى العالمين ، إذ أتت الدنيا به كما تأتى السماء بشهاب جديد فملأ الحجاز أول العهد به نوراً ، ومازال نوره يسطع ، يقول :

تجلى مولد الهادى وعمت ... بشائره البوادى والقصابا [5]
وأسدت للبرية بنت وهب ... يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهاجا منيرا ... كما تلد السموات الشهابا

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٤ .
(٢) قرآن كريم — سورة الضحى — آية ١٣ .
(٣) قرآن كريم — سورة النجم — آية ٩ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٤ .
(٥) نفس المصدر السابق — ص ٦٥ .

فقام على سماء البيت نورا ... يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا ... وفاح القاع أرجاء وطابا

والشاعر يقدم سؤاله بمدح الرسول والشفاعة به عند الله وقد جاوز الشاعر قدره بالجرأة على مدحه . ولكن ما منحه الشجاعة فى هذا المدح هو انتسابه للرسول الكريم واتصاله به ، وأولى دلائل هذا الانتساب والاتصال هى أن الشاعر من أمة النبى محمد (ص) ثم أنه يدعى الانتساب الى البلاغة والفصاحة التى هى مشرع من نبع الرسول الفياض ، ولمكانة الرسول (ص) من الفصاحة والبلاغة ومن الكرامة والتفضل على غيره من الناس فان شوقى حين يمدحه فانما يرتفع بذلك الى عليا سماوات الفخر والاعتداد بالنفس ، يقول :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى ... بمدحك بيد أن لى انتسابا [1]
فما عرف البلاغة ذو بيان ... إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرا ... فحين مدحتك اقتدت السحابا

ثم يصير الى التوسل ، فنراه فيه كما رأيناه فى توسل الهمزية حدبا غيورا على قومه ، يألم لحالهم ، ويسأل الله فيهم ويتوسل بالنبى اليه أن يبدلهم من النحس سعدا وأن يهديهم سواء السبيل :

سألت الله فى أبناء دينى ... فان تكن الوسيلة لى أجابا [2]
وما للمسلمين سواك حصن ... إذا ما الضر مسهم ونابا
كأن النحس حين جرى عليهم ... أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا ... وكان من النحوس لهم حجابا

والشاعر فى توسله هنا أدق تعبيرا ، وأبعد فى خطابه من الايهام والتشكيك ، فهو يتوجه الى الله بالسؤال والى النبى بالرغبة أن يكون وسيلته إليه ، ليستجيب الدعاء .

ولا تخلو بعض قصائد الشاعر التى قالها بمناسبة الحج وغير ذلك من مدح الرسول (ص) وذكر لمعجزاته وتشريعات القرآن الكريم .

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ١ ـــ ص ٦٥ .
(٢) نفس المصدر السابق .

شعر المناسبات الدينية :

- المناسبة تمثل قيمة تنبع منّ العقيدة . وتمتد الى الأخلاق أو السلوك ، هى احياء لتاريخ أو حدث مؤثر ، مستمر التأثير بصورة أو بأخرى . من هنا يأتى اهتمام الشاعر ويتحدد اطار عمله الشعرى ، انه عادة يتجه الى احياء الأصل ، واعلاء القيمة ، وتأمل المغزى ، وما يثير ذلك كله من تنظير أو رجاء أو توجيه .
- ان الاتجاهات النقدية الحديثة ترفض شعر المناسبات جملة وتفصيلا ، وسنرى أن شاعرنا أحمد شوقى قد ناله الكثير من اللوم لاسرافه فى هذا النوع من القصائد . والرافضون لشعر المناسبات لايفرقون بين مناسبة دينية وأخرى وطنية مثلا ، على اعتبار أن المناسبة فى ذاتها أمر مفروض من الخارج ، وليس نابعاً من وجدان الشاعر ، وانه موقوت بيوم محدد ، وهذا يعنى - فى عرف الرافضين - أن التجربة لم تولد فى ظروف طبيعية ، وبدوافع حرة ، وانما اصطنعت اصطناعا لكى تصادف وقتها وتتحرك فى الاطار المفترض فيها ، فشعر المناسبات محدود القيمة الفنية من جانب ، ومفتعل زائف من جانب آخر .

ومع هذا فأننا لابد أن نفرق بين مناسبة تلمس الوجدان العام ، وتعبر عن روح الأمة ، وليس غريباً أن يتحمس لها الشاعر تحمساً حقيقياً وأن يبدع فيها ، ومناسبة مصطنعة كاحياء ذكرى عظيم مات ، ولا يرى الشاعر فيه شيئاً من العظمة يثير شاعريته ، ولكنه يجد نفسه متورطاً فى قصيدة بهذه المناسبة التى يتوقع الناس أو بعضهم أن يقول فيها شيئاً .

وربما ترفقت كلمات حسين عن أبيه فى كتابه (أبى شوقى) فلم تشر الى ما يعتبر نقداً أو انتقاداً لسلوك هذا الأب فى حياته العملية . ولكن مصادر أخرى كتبت عن شوقى من موقف قريب من حياته الشخصية أشارت الى أنه كان يملك سلوكاً يمكن أن يوصف بأنه متحرر،لقد كان يشرب كثيراً وكان يسمى قصره الخاص كرمة ابن هانى ، ولهذا الاسم مغزاه ويسمى مجلسه الخاص (عش البلبل) ، ومن المعروف أنه لم يتم رحلة الحج بصحبة الخديوى.ولعل هذه الأمور المتناثرة تدل على أن شوقى لم يكن متديناً بالمعنى التقليدى لهذه الكلمة.ومع هذا فان أموراً أخرى كانت موضع رعايته واحترامه العميق.والفكر الدينى واضح تماماً فى قصائده واعجابه بشخصية الرسول محمد لايدانيه اعجاب بمخلوق آخر ، ولعل هذا يعنى فى النهاية أن المستوى الفكرى لشوقى كان يفترق

بعض الشيء عن المستوى السلوكى العملى ، وانه كان يؤمن بالاسلام وبنبيه وعظمائه كقيماً رفيعة تضمن الخير للبشرية وتؤسس عظمة الأمة الاسلامية التى لا غنى لها عن هذا الدين،وهذه النقطة هى التى يمكن أن نوفق فيها بين اشادته بالقيم الاسلامية وبعض المخالفات الصغيرة التى أشار اليها بعض القريبين منه .

والمناسبات الدينية من الموضوعات التقليدية التى عالجها الشعر قديماً وحديثاً ، ذلك أن المناسبة تبين قضايا كثيرة تثور فى كل مجتمع على مر العصور،وأصبح قول الشعر فى هذه المناسبات تقليداً يلتصق التصاقاً وثيقاً بقلوب الملايين من المسلمين الذين يولون الاحتفالات الدينية أكبر قدر من الاهتمام .

والمسلمون على اختلاف مذاهبهم يعبرون بأشكال منوعة وبدرجات تختلف عن ظاهرة اجتماعية أصيلة حين يقيمون احتفالاتهم كل سنة بمناسبة المولد النبوى وذكرى هجرة الرسول (استهلال العام الهجرى) وغزوة بدر الكبرى ، وتهتم اهتماماً شديداً بذلك اليوم الذى عرج فيه الرسول الى السماء ، ثم هناك اهتمامات أخرى من المسلمين بشهر رمضان وتقديس لاحد له لشعائره الدينية . ومن أجل ذلك عبر الشعراء عن احساساتهم تجاه شهر الصيام . ولم تكن فريضة الحج أقل حظاً من صيام رمضان فى نفوس المسلمين لذلك برزت مظاهره فى الشعر أيضاً .

تضاف الى ذلك كله مناسبات أقل أهمية من هذا . لكن الشعر لم يهملها وانما أشار اليها ، وهى الاحتفال بذكرى شهر رجب،ثم التعبير عن الفرحة بالعيد وغير ذلك من المناسبات التى تلتصق مظاهرها بمعانى الدين . فأما الاحتفال بالمولد النبوى ومولد الأئمة وذكرى وفياتهم فهو يلتصق التصاقاً بمدائح الرسول وآل البيت ومراثى آل البيت أيضاً . وقد غالت بعض فرق الشيعة فى المراثى وخاصة مراثى الحسين الشهيد .

وحين استعرضنا ما يقوله الشعر فى هذه المناسبات الدينية تبين لنا أنها تتعرض الى موضوعات مختلفة،منها موضوعات تتصل اتصالا وثيقاً بالدعوة الاسلامية ، ويتضح ذلك خاصة فى مناسبتى هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة ، ومعركة بدر التى ثبتت فيها قواعد الاسلام . وهناك موضوعات دينية أصيلة تتعلق بشخص الرسول حين تتحدث عن اسرائه ومعراجه ، وموضوعات دينية أخرى تتعلق بالعبادات ، ويدخل فى

اطارها الحديث عن رمضان وعن ليلة القدر ، والاشارة الى الحج ، وآخرها تصور مظاهر اجتماعية علاقتها المباشرة بهذا التفكير الدينى الأصيل ، وهى الاحتفال بعيد الفطر المبارك وبليلة النصف من شهر شعبان المكرم وغير ذلك ، هذا الى جانب ما يتداخل فى نسيج أحاسيس الوجدان الخاشع أثناء زيارة البيت الحرام فى الحج أو فى العمرة . ولقد ظهر لنا أن أكثر الموضوعات أهمية وأبرزها فى مجال الشعر هو موضوع الهجرة ، ولعلها تقف على رأس الموضوعات فى شعر المناسبات الدينية .

وقد وقف التاريخ الاسلامى والعربى يتحدث عن هذه الخطوة الفاصلة فى تاريخ المسلمين يبرز فى شخصية الرسول (ص) أعلى درجات التضحية والفداء . لقد فصلت الكتب التاريخية أو شبه التاريخية فى موضوع الهجرة وكتبت القصص وألفت الروايات . ووقف الشعر منذ القديم يصور فى ثنايا هذا التاريخ هذا الحدث العظيم الذى يعد حدا فاصلا بين عهدين فى الدعوة الاسلامية،فهو بداية مرحلة جهادية جديدة تناضل فى سبيل نشر الدعوة وقد تحول من أسلوب الهدوء والصبر والاحتمال الصابر الى أسلوب الجهر بالدعوة والجهاد فى سبيلها ، لذلك وجد الشعراء فى موضوع الهجرة مجالات فسيحة تتصارع فيها الوجدانيات والأفكار ، وتحتشد الحوادث والأعمال المجيدة المبهرة ، ومن هؤلاء الشعراء شاعرنا شوقى.ولابد من أن نشير الى أن القرآن الكريم قد سبق الشعراء وقص علينا خبر الهجرة،كما سبقت أيضاً الأخبار والتاريخ فى هذا . لذلك لم يكن جديداً أن يتحدث الشعراء عن خروج محمد وصاحبه من مكة الى المدينة ، وعن المخاطر التى تعرض لها الاثنان حين غادرا مكة الى يثرب وما صادفا من أحداث تثير الحب والقلق وأخيراً الفرحة بسلامة الوصول ثم روعة استقبال الأنصار للنبى الكريم ولأبى بكر صاحبه .

وقد أشار أحمد شوقى الى ذلك فروى قصة الهجرة ، وفصل الحديث عنها وذكر اصطحاب الرسول لأبى بكر ، وتحدث عن هجرة الرسول ليلا بصحبة أبى بكر ، وأشار الى شجاعة النبى (ص) فى الاقدام عليها ليلا تخفياً من المشركين ، كما أشار الى دخولهما الغار وملاحقة كفار قريش لهما :

هاجر من أم القرى مأذونا ... وما درى أو سمع المؤذونا؟ (١)
فى ليلة بلختل كانت موعدا ... قد نصبتها شركاً أيدى العدا

---

(١) دول العرب وعظماء الاعلام ـــ ص ٢٨ .

ائتمرت في الندوة الأعيان وانتدبت للفتكة الفتيان
وقعدوا ناحية كمينا ليغدروا في داره الأمينا
فخرج الله من البيت به لم يره الجمع ولم ينتبه
وسار في ركابه الصديق وفي البلاء يعرف الصديق
فانتشرت خيل قريش تطلبه من ينصر الرحمن من ذا يغلبه ؟
مروا على الغار مضلَّلينا وأخذوا السبل مسائلينا

ولا شك أن شوقي كان أميناً في نقل هذه الصورة كما جاءت تماماً في القرآن الكريم ، وقد استوحى صورها منه بل حتى معانيها وبعض ألفاظها . أبرز الشاعر عزيمة الرسول وشجاعته وتضحيته من خلال بعض أبيات القصيدة .

ولقد صار من تقاليد القصائد التي تتحدث عن الهجرة الاشارة الى ذكر أبي بكر الصديق (رض) ، ولا غرابة في ذلك ، فقد أكد ذلك القرآن نفسه وأشار الى صحبة الصديق لرسول الله ، لذلك يكرر شوقي ذكر أبي بكر في معرض حديثه عن الهجرة يقول :

فحققت الهجرة وهي مرة ما وصفت الا لنفس حرة (١)

ويقول :

هاجر من أم القرى مأذونا وما درى أو سمع المؤذنا (٢)
وسار في ركابه الصديق وفي البلاء يعرف الصديق

وفي قصائد الهجرة تبرز مدينة يثرب ، والتحدث عن فضلها ونصرها محمداً (ص) والمسلمين ووقوفهافيوجهأعداء الدعوة المحمدية . والشاعر شوقي أعطى دون ريب لهذه المدينة حقها من التعظيم والاجلال وتبدو عواطفه تجاه أهل يثرب حين يشير الى الموقف الخالد الذي وقفه أنصار الرسول في المدينة . ثم يضع صورة لموقفهم المشرف من الرسول ودعوته . وتبدو ملامح الصورة حين يتحدث عن استقبال أهالي يثرب للرسول (ص) ، يقول :

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ــ ص ٢٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ــ ص ٢٨ .

فكان للقادم منهم آهل ومنزل رحب الفناء سهل [1]
باليمن ألقى رحله فى الخروج كأنه من أرضه لم يخرج

وهذا الوصف دفع اليه ايمانٌ شديد بهذا الدين ، فهو الذى أوحى للشاعر بهذه المعانى ، وهو الذى أدى الى ابداء هذه المشاعر الصادقة .

وما كان لشاعر مهما يكن أن يغفل عن حب يثرب والاجلال لموقف الأنصار وما فطروا عليه من ايمان وفطرة على التضحية فى سبيل نصرة الاسلام الذى آمنوا به وبرسوله عن بعد .

ولقد انتزعت جزئيات هذه المعانى والأحداث من الأخبار التاريخية فتتبع الشعراء حركة الحدث حركة حركة وما كان لهم أن يفعلوا غير ذلك ، فان سلوك الأنصار ورد الفعل عند الرسول (ص) ورفيق رحلته قد أوجد جماعة مسلمة لأول مرة على أرض لاتخشى فيها البطش والعذاب ، فأصبح الموقف كله مشحوناً بالشعر ومعانى الشعر ، ولعل فضل الهجرة لايقف عند استقرار المسلمين فى يثرب ، وانما يكمن فى الأعمال والاصلاحات التى حققها رسول الله بعد استقراره فى المدينة . فكان على الشعراء ألا يكتفوا بالاشارة الى المعنى النضالى للهجرة فحسب ، وانما تعدوا ذلك الى الكلام على أثرها وفضلها على المسلمين ، ودفعها الى ما حققه النبى بعد استقراره فى يثرب .

ومع كل ذلك،فأننا نرى أن الشعر الذى تحدث عن هجرة الرسول لم يبلغ الشأو الذى تدفع إليه حقيقتها فلم يوفق أكثرهم فى استيحاء المعانى الأصلية للهجرة ، وعرض الواقع الباهر من خلال ذلك وخاصة إذا قارنا ذلك الشعر بالشعر الذى قيل فى مدح النبى (ص)،أو رثاء آل البيت الذى نرى من خلاله عرضاً جيداً للعصر ولوجدان المسلمين . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن هذه الموضوعات لها جذور قوية فى الشعر القديم لم يستطع الشاعر أن يستغلها أما شعر أحداث التاريخ الفاصلة والعظيمة فتراث الشعر فيه أقل .

وتعود أهمية هذه المناسبة الى معانيها التى توحى بها ، وهى التضحية من أجل العقيدة ، والبذل والفداء من أجل المبدأ ، وهى معان يمكن الافادة منها فى هذه الظروف القاسية التى تمر بها الأمة العربية .

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ـــ ص ٢٩ .

فاستخدام الشاعر لمعانى الهجرة إذن كان قصده أن يأخذ الناس العبرة من هذه المعانى ليثوروا على واقعهم ويجاهدوا فى سبيل تغييره ، وكذلك استخدم الشاعر أسلوب المقارنة بين عظمة الهجرة والهدف منها ، وبين الواقع الهزيل الذى آل اليه المسلمون يقول :

ما أجمل الهجرة بالأحرار ان ضنت الأوطان [1] بالقرار

أما الاحتفال بذكرى معركة بدر ، فتعود أهميته الى أن هذه المعركة لم تكن مجرد تعبير عن الفداء والتضحية ، وانما هى تعبير عن قوة العزيمة وعمق الايمان الذى تجلى بالبطولات التى رافقت المعركة ، لقد كانت أول امتحان وأقسى تجربة لايمان المسلمين الذين آزروا دعوة محمد (ص) وأرخصوا من أجلها الأرواح ، وتسابقوا الى الشهادة ليفوزوا بالجنة التى وعدوا بها .

ولهذا كان احتفال المسلمين بهذه الذكرى احتفاء بتلك المعانى التى عبرت عن ايمان أصحاب الرسول (ص) الذين وقفوا يدافعون عن دين الله الذى تهدده الكفر منذ فجره ، فكانت تلك المعركة حداً فاصلا وقف من بعده المسلمون يرفعون بناء الدين الجديد ويقيمون شعائره السمحة . ومن يومها بدأ المسلمون يفرضون وجودهم بذلك التحدى الذى تصدوا به لقريش .

ولهذه الأسباب كلها وقف العالم الاسلامى يحتفل بذكرى معركة الايمان ، معركة الاسلام ، ومن يومها أصبحت هذه المعركة الهاماً للشعراء فى حديثهم عن أمجاد المسلمين .

ومرة أخرى يسير الشعر وراء التاريخ يفيد منه ويبعثه ليؤدى دوره المستقبلى ، فالشاعر يتغنى فيها بأبطال بدر الذين بنوا بجماجم شهدائهم صرح الاسلام . وقد وقف بعض الشعراء،ومنهم شوقى،يسردون قصة المعركة كما رواها التاريخ ، فتحدثوا عن الايمان الذى تصدى لكفار قريش ، وأشاروا الى بطولة الرسول (ص) ، وقيادته المثالية للمعركة ، كما أشاروا الى بطولات الصحابة والى التحام جيش المسلمين بجيش المشركين .

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ــ ص ٢٩ .

يقول شوقى :

فكانت الحرب لدفع الحيف ... قد تؤخذ السلم بحد السيف [1]
وكان (بدر) مطلع الأيام ... ورفعة الصلاة والصيام
وأول العهد بعز الملة ... وبارتداء المشركين الذلة

ويقول :

قف بقريش بعد بدر وسل ... ما غرها بأبن أبيها المرسل ؟ [2]

ولما كانت بدر أول معركة يخوضها المسلمون من أجل الاسلام وكان النصر حليفهم بشكل مذهل ، فقد صارت لها فى تاريخ المسلمين مكانة ممتازة وأصبحت رمزاً للجهاد من أجل الحق .

ومن المناسبات الدينية التى تتعلق بشخص الرسول (ص) الاحتفال بليلة الاسراء والمعراج ، وهذه المناسبة الجليلة تثير فى نفوس المؤمنين الصادقين أرق المشاعر الدينية ، وتعيد الى أذهانهم تلك المعجزات والخوارق التى صحبت رسالة محمد .

ومثل هذه الموضوعات لها شأنها فى صفوف الصوفية التى تتخذ منها مادة تحيي فيها مناسباتها وتدعم بها أفكارها التى جاوزت الخوارق الى خرافات لا صلة لها بالاسلام .

ويكاد الاسراء يكون المعجزة الوحيدة التى قام بها الرسول (ص) الى جانب اعجاز القرآن نفسه ، لذلك أصبح لموضوعه جاذبية خاصة عند المتصوفة بالذات ويسير الشعر على نهج القرآن الكريم ، فيحكى قصة اسراء النبى على البراق . وعروجه الى السماء واستمد الشعراء أفكارهم وألفاظهم من القرآن الكريم نفسه حينما أشاروا الى اقتراب الرسول من عرش وذكروا ان محمداً امام والملائكة اقتدت به من خلفه ثم ذكروا تكريم الله لرسوله إذ حباه أعز منزلة وأرفع مقام .

وقد أشاد شوقى بالاسراء والمعراج فى تصوير جليل ، فجعلهما مرحلتين متصلتين أو مرحلة ذات شقين ، وأنكر على المتسائلين عن حقيقة الاسراء والمعراج هل بالروح أم بالجسد أم بهما معاً ؟ ورد عليهم بأنهما كانا بالروح والجسد معاً .

---

(١) دول العرب وعظماء الاسلام ــ ص ٢٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ــ ص ٣٠ .

وكان شوقى بارعاً فى فصله بين التساؤل والمسئول عنه بالجملة الحالية (وأنت أطهر هيكل) من قوله :

يتساءلون — وأنت أطهر هيكل — بالروح أم بالهيكل الاسراء؟[1]

وقد أراد شوقى أن يمهد لما سيجهر به من الاسراء بالجسد والروح ، وكان بارعاً فى وصف الجسد بما وصف به الروح من النور والبهاء والروحانية ، ليؤكد أن الذى يصدق السرى بالروح حق عليه أن يصدق العروج بالجسد الروحانى المطهر ، ثم قطع شوقى الشك الذى قد يتسرب الى بعض النفوس بقوله :

فضل عليك لذى الجلال ومنة والله يفعل ما يرى ويشاء[2]

ثم صور رسول الله وهو يعرج الى السماوات بأنه كان جمالا فيها ، وحلية لها ، وقلادة على جيدها ، وبأنه كان النقطة الزهراء فى مناطق النور . وصور اعجاب الرسول بما رأى تصويراً شعرياً خالصاً لا علاقة بينه وبين أخبار الاسراء والمعراج المأثورة ، وليس له نظير فى قصيدة البوصيرى التى احتذاها شوقى وقلدها ، إذ كان رسول الله مشدوهاً بما يرى من جمال وجلال ولكنه كان هو الجمال والجلال ، فكأنما كان وهو يتملى بالنظر الى جمال السماوات وجلالها يتملى بالنظر الى نفسه ، فهو الجميل ، وهو الجمال ، وهو الناظر الى الجمال ، وهو الجميل بيده مرآة يرى فيها جماله . وفى هذه الصورة سبحات صوفية ، ومبالغة فى الوصف الجسدى وتشبيه بالحسناء التى بيدها مرآة ، وهو تشبيه لايناسب المقام .

ثم صور شوقى تقريب الله تعالى لرسوله الكريم بأنه أعد له منزلا رفيعاً فى حاشية من قدسه عند سدرة المنتهى لم يبلغه أحد غيره فصار العرش تحته ، وجبريل متكأ له ، وأحسب أن التحتية هنا لا معنى لها ، وكان انسجام الصورة يقتضيه أن يقول : العرش أمامك أو فوقك أو الى جوارك أو بالقرب منك ، كما أن تصوير النبى وهو يتخذ من مناكب جبريل مستنداً له وتكأة فيه لون من الجفوة ، لأن هنا التصوير لايليق لا بالحامل ولا بالمحمول .

قال شوقى :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ ص ٣٩ .
(١) نفس المرجع السابق .

يا أيها المسرى به شرفا الى ... ما لا تنال الشمس والجوزاء [1]
يتساءلون ـ وأنت أطهر هيكل ـ ... : بالروح أم بالهيكل الاسراء ؟

ويقول :

العرش تحتك سدة وقوائما ... ومناكب الروح الأمين وطاء [2]

وقال فى قصيدة (نهج البردة) :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم [3]
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتمم

وهذه الصورة تتفق مع مكانة رسول الله ومع شريعته وأنه خاتم الأنبياء وخيرهم .

ثم تحدث شوقى عن المعراج وعن البراق ، وعما انكشف للرسول (ص) من أسرار ، وما منحه الله من نعم ، ورفع الشك فى الاسراء والمعراج بحجة لاسبيل الى انكارها ، وهى أن كل مستحيل علينا هين سهل إذا تعلق بقدرة الله تعالى .

وبعد هذا صور تقدم النبى على الأنبياء بأنه هو وحده الذى أذن له فى أن يستلم العرش :

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم ... على منورة درية اللجم [4]
وقيل : كل نبى عند رتبته ... ويا محمد : هذا العرش فاستلم

وهو فى هذا التصوير يزيد على قصة المعراج أن النبى قرأ اللوح المحفوظ ، ولمس القلم ، يريد أن الله أطلعه على كثير من الخفايا والأسرار . وما من شك فى أن شوقي بارع فى قوله :

وقيل كل نبى عند رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ص ٣٩ .
(٢) نفس المرجع السابق
(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ص ١٩٨ .
(٤) نفس المرجع السابق

لأن هذه الصورة جمعت بين القول المجيد والأمر المكرم والاستماع المستجيب والحركة المرتبة ، فقد تجلت فى هذه الصورة الشوقية براعة الرسام .

ومن موضوعات المناسبات الدينية موضوعات تتعلق بالعبادات وهى مناسبات تتمثل بعلاقة العبد بخالقه . وقد احتفى شوقى ببعض هذه المناسبات . ومنذ القدم احتفل المسلمون بشهر رمضان المبارك ، فخصوه بأوقات معينة يمارسون فيها شتى أنواع العبادة كالصلوات والدعاء ، ويعبرون فى بعض الأحيان عن مراسيم معينة يحتفلون فى ظلها بهذا الشهر الذى كرمه الله حين أنزل فيه القرآن على رسوله .

ولذلك تعددت المعانى التى تحدث فيها الشعر عن أحداث هذا الشهر العظيم ، وهو أكثر اهتماماً من جانب الشعراء ، ولذلك أفرد بعضهم قصائد كاملة للحديث عن ليلة النزول أى ليلة نزول القرآن وهى (ليلة القدر) كما وردت فى القرآن الكريم . ويصور شوقى هذه الليلة وكيف أن الله يستجيب لعباده الضعفاء ويمحو بها الذنوب عنهم ، يقول فى وصف (ليلة القدر) ومن يقومها ويتوب فيها ، قالها من قصيدة يصف فيها شوقه لمصر وهو فى المنفى :

فى ليلة من ليالى الدهر طيبة محا بها كل ذنب غير مغتفر [(1)]

والشعر الدينى يقف بأحداث شهر رمضان ، وعلى رأس المعانى التى يشير اليها فضل شهر الصيام وأثر الصيام فى بناء المجتمع وطبع نفوس أبنائه بطابع الخير والرحمة . فالمعروف ان الاسلام لم يقر فريضة الصيام من أجل أن يمتنع الناس فيه عن الطعام والشراب ، وانما قصد من وراء ذلك معانى روحية اذ يقول شوقى :

وصل صلاة من يرجو ويخشى وقبل الصوم صم عن كل فحشا [(2)]

ويضيف شوقى الى أن القصد من الصيام أن تزول الفوارق الطبقية التى يعلو فيها الاغنياء على الفقراء ، فاذا الناس كلهم سواسية حتى فى حالات الحرب اذ يقول :

يابن الذين اذا الحروب تتابعت صلوا على حد السيوف ، وصاموا [(3)]

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ٢ ص ١٢٤ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ٤ ص ٣٥ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ص ٢٢٧ .

وسخر شوقى من الذين يصلون ويصومون ولكنهم لايزكون ، وأنذرهم بأن لله قد أحصى نصيب الفقراء من أموال الأغنياء ،والذى يؤثر ماله على طاعة الله وحبه خاسر .

ثم ضرب مثالا لآثار الزكاة ، فقال ان كثيرا من الفقراء واليتامى أصحاب نبوغ ، فالخير للأمة فى رعايتهم .

وجهر بأن الأموال فى أيدى أصحابها عارية ، فيجب أن تكون شركة بينهم وبين المحتاجين ، لأن الله الرزاق اذا كان قد يسر للأغنياء سبل الثراء فأنه لم يغفل حقوق الفقراء والضعفاء فيها .

وحذر الأغنياء من البخل بمالهم ، لأن بخلهم يحنق الفقراء عليهم ويمهد لهم الثورات .

وصور ضيقه بالبخلاء ، وضيق الدعاة الى الخير بهم من قبله . ثم عاد يرغبهم فى البذل ، ويدلل على المساواة ، فقال ان الهواء يخترق الأكواخ كما يخترق القصور ، وان الشمس ترسل أشعتها الى الخصيب والجديب والى الغنى والفقير ، وأن الماء يروى الأسود والكلاب ، وان الموت حتم لايهرب منه ثرى ولا معدم ، وأن الناس جميعا يتساوون بعد الموت فيرقدون فى الثرى ، ليزهدهم فى اكتناز المال ، ويذكر الأغنياء البخلاء بأن الموت مدرك لهم ، وسيتركون مالهم لغيرهم ، وكان الخير لهم أن يقدموا من مالهم عملا صالحا ينفعهم عند الله :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ... ظواهر خشية وتقى كذابا [1]
وتلفيهم حيال المال صما ... اذا داعى الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه ... كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئا ... كحب المال ضل هوى وخابا

* * *

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٠ .

الفصل الرابع
تأثير الاسلام والموروث التاريخي والأدبى

- الموروث الدينى .
- الموروث التاريخى .
- الموروث الأدبى .

تأثير الاسلام والموروث التاريخى والأدبى :

وجد الشاعر شوقى رهن تصرفه تراثاً شديد الغنى ، متنوع المصادر فأقبل على هذا التراث يستمد منه ومن ينابيعه السخية أدوات يثرى بها تجربته الشعرية ويمنحها شمولا أكثر وأصالة أعظم ، وفى نفس الوقت يوفر لها أغنى الوسائل الفنية بالطاقات الايحائية وأكثرها قدرة على تجسيد هذه التجربة وترجمتها ونقلها الى المتلقى .

ويهدف هذا القسم الى دراسة المصادر التراثية التى استمد منها الشاعر أحمد شوقى مادته الشعرية ، خاصة أنه أدرك،كما أدرك غيره من الشعراء،أن شعرنا العربى لن يستطيع أن يثبت وجوده ويحقق أصالته ، الا اذا وقف على أرض صلبة من صلته بتراثه وارتباطه بماضيه .

ويمكننا مبدئياً تقسيم هذه المصادر التراثية التى تأثرها الشاعر أحمد شوقى فى أشعاره الى أقسام :

١ ـــ الموروث الدينى .
٢ ـــ الموروث التاريخى .
٣ ـــ الموروث الأدبى .

على أن هذه المصادر ليست فى الحقيقة دائماً بهذا التمايز والانفصال،فبينها من التشابك والتداخل ما لايمكن تجاهله ، فأية شخصية دينية هى بالضرورة شخصية تاريخية ، ومثل ذلك يقال عن الشخصيات الأدبية والصوفية والأسطورية ، وهكذا فأننا فى نهاية الأمر نرى تشابكها وتداخلها ولكن يبقى لكل مصدر تراثى ملامحه ومواصفاته الخاصة التى تميزه ، على المستوى النظرى على الأقل .

الموروث الدينى :

كان التراث الدينى ولايزال فى كل العصور ولدى كل الأمم مصدراً سخياً من مصادر الالهام الشعرى ، حيث يستمد منه الشعراء نماذج وموضوعات وصوراً أدبية ، والأدب العالمى حافل بالكثير من الأعمال الأدبية العظيمة التى محورها شخصية دينية أو موضوع دينى ، أو التى تأثرت بشكل أو بآخر بالتراث الدينى . فقد كان « الكتاب المقدس »

مصدراً للشعراء الأوربيين الذين استمدوا منه الكثير من الشخصيات والنماذج الأدبية ، وقد فتن الرومانتيكيون بشكل خاص بهذه الشخصيات الدينية المتمردة المطرودة ـ كشخصية (الشيطان) وشخصية (قابيل) القاتل الأول ـ وقد جعلوا من هذه الشخصيات نماذج للتمرد على كل ما هو عادى ، وكل ما هو مقرر ومفروض ، وعبروا عن تعاطفهم الكبير مع ما عانته هذه الشخصيات من غذاب ولعنة من جراء تمردها .

وإذا كان « الكتاب المقدس » هو المصدر الأساسى الذى استمد منه الأدباء الأوروبيون نماذجهم الدينية ، فان عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الدينية الاسلامية ، وفى مقدمتها « القرآن الكريم » واستمدوا من هذه المصادر الاسلامية الكثير من الموضوعات والشخصيات التى كانت محوراً لأعمال أدبية عظيمة .

ومن الشعراء الأوربيين الكبار الذين استلهموا المصادر الاسلامية فى أعمالهم الأدبية الشاعر الايطالى الكبير « دانتى » فى ملحمته الشهيرة « الكوميديا الالهية » حيث استلهم فيها حديث المعراج النبوى وغيره من المصادر الاسلامية والعربية [1] . ومنهم أيضاً الشاعر الألمانى الكبير « جوته » الذى قرأ القرآن فى ترجمته الألمانية ، وترجمته اللاتينية ، وأعجب به اعجاباً كبيراً [2] ، دفعه الى أن يستلهمه ويستمد منه كثيراً من النماذج الأدبية والموضوعات والصور فى ديوانه المشهور « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » [3]

ومنهم أيضاً الشاعر الفرنسى العظيم « فيكتور هوجو » الذى قرأ القرآن بدوره فى بعض ترجماته الفرنسية ، واستلهم منه الكثير من الموضوعات والنماذج الأدبية فى ديوانه « المشرقيات Les Orientales » وسواه من أعماله الشعرية ، ومن الشخصيات التى استمدها من التراث الاسلامى شخصية « ابليس » الذى يطلق عليه نفس الاسم الذى أطلقه القرآن عليه ـ وموقفه من الله سبحانه وتعالى ـ الذى يسميه أيظاً بأسمه الاسلامى ـ كما استمد فى بعض أعماله تصوير المصادر الاسلامية للعالم الآخر ، وما فيه من نعيم للطائعين حيث يسكن (الحور) العين فى قصور الجنة ، ويعذب العاصون فى

(١) د . محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ـ ط ثالثة ـ مكتبة الأنجلو بمصر ـ ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) د . عبدالرحمن بدوى : من تصديره لترجمة (الديوان الشرقى للمؤلف الغربى) ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤ ـ ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ـ ص ٧٩ وما بعدها .

(جهنم) التى تسمى الطبقة السابعة منها (السجين) وهو يستعمل هنا أيضاً نفس الأسماء الاسلامية لكل هذه المعطيات [1] .

وإذا كان هؤلاء الثلاثة من أبرز من تأثروا بالمصادر الدينية الاسلامية ، فهناك غيرهم كثيرون من الشعراء الأوربيين الذين استوحوا التراث الاسلامى ، ورحل بعضهم الى الشرق مصدر هذه التراث الاسلامى ــ ومهد الديانات السماوية كلها ــ ونهلوا من معينه السخى .

فلم يكن غريباً إذن أن يكون الموروث الدينى مصدراً أساسياً من المصادر التى عكف عليها شعراؤنا الاحيائيون ومنهم أحمد شوقى واستمدوا منها مادتهم الشعرية وعبروا من خلالها عن جوانب من تجاربهم ، ويمكن أن نصنف الشخصيات التى استمدها شوقى من الموروث الدينى الى مجموعات :

١ ــ شخصيات الأنبياء .
٢ ــ شخصيات مقدسة .
٣ ــ شخصيات منبوذة .

١ ــ شخصيات الأنبياء :

وشخصيات الأنبياء عليهم السلام هى أكثر شخصيات التراث الدينى شيوعاً فى شعر الشعراء ، ولا غرو فقد أحس الشعراء من قديم بأن ثمة روابط وثيقة تربط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء ، فكل من النبى والشاعر الأصيل يحمل رسالة الى أمته ، والفارق بينهما أن رسالة النبى رسالة سماوية ، وكل منهما يتحمل العنت والعذاب فى سبيل رسالته ويعيش غريباً فى قومه ، محارباً منهم أو فى أحسن الأحوال غير مفهوم منهم ، وأخيراً فان كلا من الرسول والشاعر يكون على صلة بقوى عليا غير منظورة . ولذلك فقد طاب للشعراء أن يشبهوا فترة المعاناة التى يعيشها الشاعر قبل ميلاد قصيدة من قصائده ، بفترة الغيبوبة التى كانت تنتاب الرسول أثناء الوحى ، ولذلك أيضاً دأب شعراؤنا المعاصرون على استعارة شخصيات الرسل ليعبروا من خلالها عن بعض أبعاد تجاربهم المعاصرة ز وأكثر شخصيات الرسل شيوعاً شخصية محمد (ص) و (عيسى) وأيوب وأدريس ويوشع وغيرهم عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) Al. Buy: La C'reation mythique Chez, Victor Hugo, pp. 122 - 124

وشخصية محمد الرسول (ص) هى أكثر الشخصيات شيوعاً عند الشعراء ومنهم أحمد شوقى ويليها باقى شخصيات الأنبياء .

وشوقى الشاعر بما انطبعت عليه نفسه من ايمان بالله وبالغيب ، ومن حب لرسول الله (ص)،أكثر من مديح الرسول (ص) حتى عد من أبرع الشعراء الذين قالوا فى المدائح النبوية فى العصر الحديث ، وكذلك فى موقفه فى الدفاع عن الاسلام وتفنيد المزاعم الأجنبية فى محاربتها الاسلام .

فاذا ما التمسنا شوقياً فى موقف الدفاع عن الاسلام وعن شخصية الرسول وجدناه ينشد قصيدة عالية حقاً يرد بها على (اللورد كرومر) ويفند مزاعمه فى الاصلاح إذ يقول :

من سب دين محمد فمحمد   متمكن عند الاله رسولا [1]

وكان (اللورد كرومر) قد طعن على الدين الاسلامى فى تقريره سنة ١٩٠٦ م ، فزعم أنه دين لايصلح لهذا العصر ، لذا رد عليه شوقى بهذه القصيدة .

وفى قصيدة (نهج البردة) والتى تعتبر من مدائح شوقى الجيدة ، صور الشاعر حالة الرسول (ص) قبيل البعثة ، فبين أن محمداً اختاره الله من أكرم العناصر العربية ، وصور مجد أبوة الرسول (ص) ، وأشاد بالفضل الذى أفاء على النجوم من انتمائها اليه ، تصويراً بين فيه صفات الرسول الجليلة وذلك فى الأبيات من قوله :

محمد صفوة البارى ورحمته   وبغية الله من خلق ومن نسم [2]

الى قوله :

نموا اليه فزادوا فى الورى شرفا   ورب أصل لفرع فى الفخار نمى

وقد أخذت شخصية الرسول محمد (ص) دلالات متنوعة كثيرة فى كثير من شعر الشعراء ومنهم أحمد شوقى ، وقد تكون شخصية محمد (ص) فى رأيى رمزاً شاملا للانسان العربى سواء فى انتصاره أو فى عذابه.فحين تحدث شوقى فى قصائده عن الرسول (ص) عن جهاده ومقاومته للكفار في بداية الدعوة ومالاقاه من غذاب واهانة من قومه

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ ص ١٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق

حيث كانوا فى جهالة وعنجهية عمياء وفوضى تسود حياتهم واضطراب فى العقائد فعبدوا الأصنام واتخذوا منها آلهة من دون الله ، وكيف أنهم ساروا على سياسة حكامهم ، القوى يأكل الضعيف ويسخره لمصالحه الشخصية ، ولما جاء محمد (ص) بالدعوة الاسلامية ساس الناس بحكم عادل وعلاج حاسم لمشكلاتهم ، واتخذ شوقى من شخصية الرسول رمزاً لهذا الانسان العربى الذى عانى من كل أصناف العذاب وفى النهاية كتب له الانتصار .

يقول شوقى :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... الا على صنم ، قد هام فى صنم (١)

ويقول :

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبهم (*) ، أو كالحوت بالبكم (*)

ولما جاء الرسول (ص) الى هذه الأمة كان رمزاً للانسان العربى الذى يخلص الأمة من الآمها وهوانها. وقد جاء مولد هذا الرسول مصحوباً بالبشائر كما قال الراهب بحيرا .

يقول شوقى :

لما رآه بحيراً قال نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء والسيم (٢)

والمعجزات التى حدثت على يدى الرسول (ص) مخلص هذه الأمة ، كثيرة منها نبع الماء بين يده الشريفة حين طلب الصحابة منه الاستسقاء من شدة الظمأ الذى أصابهم من قلة الماء وندرته، ومنها تظليل الغمامة له ، ومنها نزول جبريل طالباً منه أن يقرأ فأجابه : ما أنا بقارىء ولما تكرر ذلك قال له جبريل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ... » (٣) .

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ١ ص ١٩٨ .
(*) البهم : جمع بهمة ، وهى ولد الضأن والماعز .
(*) البلم : صغار السمك .
(٢) ديوان شوقى ـــ ج ١ ص ١٩٨ .
(٣) قرآن كريم ـــ سورة العلق آية ١ .

والمعجزة الكبرى الخالدة التى أنزلها الله على رسوله هى القرآن الكريم إذ أن المعجزة شملت تشريعاً سماوياً خالداً ودستوراً يجعل من يسير عليه ينال الصدارة فى قيادة الأمم ورعاية الشعوب .

يقول شوقى :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم [1]

وقد كان للقرآن أثر بالغ لا فى العرب وحدهم بل فى العالم كله ، فأوجد الحضارة الاسلامية ، وافتتح صفحة جديدة فى تاريخ الانسانية مشرقة بالخير والنور لم تر الدنيا أفضل منها .

قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » [2] .

ونرى شوقى فى بعض المواضع وقد شبه محمداً (ص) بالأم والأب يقول :

واذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء [3]

واستخدم شوقى الوصف القرآنى للرسول (ص) وهو لفظ (الأمى) إذ قال :

يا أيها الأمى ، حسبك رتبة فى العلم أن دانت بك العلماء [4]

وقال تعالى : « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » [5] .

جاء النداء هنا محصوراً فى بيت واحد غير متبوع بنداء آخر مباشرة فيكون بمثابة المفتاح الجديد لموضوع جديد عنه شوقى ، فقد ورد هذا البيت بقصيدة طويلة عند شوقى نوع فيها المنادى الواحد وهو الرسول (ص) فسماه (الأمى) و (ابن عبدالله) وهذا من باب التمجيد الدينى من ناحية وحتى لايشعر القارىء بطول القصيدة من ناحية أخرى .

ومن أسماء الرسول (ص) (أحمد) وقد سمى الشاعر به تيمناً باسم الرسول الأكرم ، ومع هذا لم يستخدم شوقى أكثر من شرف الانتساب لاسم الرسول (ص) إذ كان

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ١٩٧ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الحجر ــ آية ٩
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٣٤ .
(٤) نفس المرجع السابق ــ ص ٣٦ .
(٥) قرآن كريم ــ سورة الأنفال ــ آية ٦٤ .

يتحرج من أن يعبر بشخصية الرسول عن ذاته أو أن يتخذها قناعاً يوحى من خلاله بأفكاره الخاصة ، تأثماً من أن ينتحل لنفسه شخصية الرسول أو أن ينسب اليه بعض صفاتها .

والى جوار هذه الدلالات السابقة هناك دلالة أخرى قريبة منها لشخصية الرسول فيقصيدة شوقى ، وهى احياؤه النفوس حين أخرجها من ظلمات الشرك والضلال الى نور الايمان والتوحيد ، وهى دلالة الثائر المتمرد على الظلم والحامل لواء النضال فى سبيل الحق والخير الانسانى ، يقول :

أخوك عيسى دعا ميتا ، فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم (•) (١)

والجهل موت فان أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم (•)

وعيسى النبى هنا أحيا الموتى باذن الله ولكن محمداً (ص) أحيا النفوس باخراجها من الظلم . وشوقى أثبت أن معجزة محمد معنوية لا مادية كمعجزة عيسى ، ومعجزة عيسى هنا محدودة مكاناً فهى لم تشمل من الأموات الكثيرين (دعا ميتا) واحداً وقد فاقتها معجزة محمد التى شملت الانسانية جمعاء (أجيالا من الرمم) . والى جانب ذلك فقد أعطى للنبى (عيسى) عليه السلام ما هو حقيق به من الفضل الى جانب الرسول (محمد) (ص) فدعاه بأخيه (أخوك عيسى) ولاثبات فكرة التوحيد فى الرسالة السماوية . وهذه المفردات التى استعملها شوقى هنا ذات طابع دينى .

وقد رأى الشاعر شوقى فى صورة المسيح عيسى بن مريم كثيراً من القيم مجسمة ، وماحفت بعيسى (عليه السلام) من ظروف كثيرة ، فحيثما اتخذ عيسى صورة نجد سلاماً ومحبة وتسامحا ، يقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروات ، والهدى ، والحياء (٢)

وقد أحس الشعراء ازاء شخصية المسيح أنهم أكثر حرية ومنهم أحمد شوقى الذى أطلق لنفسه العنان فى تأويل ملامح الشخصية وانتحالها لنفسه وهنا نراه يشبه نفسه بابن مريم :

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٢٠١ .
(•) الرمم : البالى .
(•) الرجم : القبور .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٢٨ .

ولابت الا كابن مريم ، مشفقاً   على جسدى ، مستغفرا لعداتى [1]

ويقول :

خلقت كأننى (عيسى) ، حرام   على قلبى الضغينة والشمات [2]

وهذا الاستخدام (أى تشبيهه نفسه بابن مريم) كثيراً مايرد عند شوقى فى شعره، وهو من باب وصف الانسان بالانسان فهو أحياناً يستخدم أعلاماً من الحاضر أصحابها ، ممن عاصر الشاعر ، وأحياناً يستخدم أعلاماً من الماضى من تاريخ الأدب أو التاريخ الاسلامى العام أو الأنبياء وهذا من باب تعويض المحسوس بالمحسوس عنده .

ومعظم ملامح السيد المسيح فى شعر شوقى مستمدة من الموروث الدينى المسيحى وخصوصاً (الصلب) و (الفداء) و (الحياة من خلال الموت) و (المعجزات) .

ويأخذ شوقى من خلال هذه العناصر المستمدة من الموروث المسيحى دلالات يسقطها على شعره ، فعلى ملمح الصلب والصليب يسقط كل الآلام التى يتحملها الجند، ويبرز اخلاصهم فى سبيل الدفاع عن الوطن سواءاً كان هذا مادياً أم معنوياً ، فهو فى قصيدته (الأسطول العثمانى) والتى وجه الخطاب فيها للسلطان محمد رشاد يبرز مدى اخلاص الرعايا النصارى واليهود فى القتال والدفاع عن السلطان نتيجة لما أظلهم به السلطان من العدل والأمان يقول :

حمل الصليب اليك من فتيانه   جندا ، وقاتل دونك (الحاخام) [3]

فالصليب هنا كناية عن المسيحية وهو عند شوقى رمز السلام والحاخام كناية عن اليهود .

وقد جمع شوقى بين الصليب والهلال وهو رمز الإسلام والتسامح فى هذه المواقع :

والى الله من مشى بصليب   فى يديه ، ومن مشى بهلال [4]

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ ص ٩٨ .

(٢) نفس المرجع السابق — ج ٣ — ص ٤٧ .

(٣) نفس المرجع السابق — ج ١ — ص ٢٢٧ .

(٤) نفس المرجع السابق — ص ١٨٨ .

ويقول :

مـزقـتـم الـوهـم ، وألـفـتـم أهـلـة الـلـه عـلـى صـلـبـة [1]

وهذه من كنايات شوقى التى تقوم على رموز مشتركة .

والى جانب ذلك فهناك مفهوم اسلامي،أو بمعنى أدق اسلامى مسيحى ورد فى شعر شوقى يتمثل فى تلك الملامح من شخصية المسيح التى وردت فى القرآن الكريم ــ مع ورود بعضها فى الأناجيل ــ من مثل قدرته على احياء الموتى ، ففى القرآن الكريم قال تعالى : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى » [2]

قال شوقى فى تشبيه السلطان عبدالحميد بالنبى عيسى عليه السلام فى احيائه الموتى ، فالسلطان عبدالحميد يحيى العرش،والنبى عيسى يحيى الموتى بهذه العلاقة (الاحيائية) ربط شوقى بين الاثنين :

فأحييت ميتا ، دارس الرسم ، غابرا كـأنـك فيمـا جئت عيسى المـقـرب [3]

لقد انتقدت هذه الظاهرة فى الشعر العربى منذ القدم وذلك لأنها تعتبر من اساءة الأدب بحق الأنبياء والدين ، وفى هذا المعنى ردد الشاعر مهيار الديلمى :

رآك وميت الآمـال حى بـجـودك والـندى الأعـمـى بـصـيـر [4]
فـآمـن « بـالـمـسـيـح» وآيـتـيـه وأن نـشـأت مـن الـطـيـن الـطـيـور
وأيـقـن أن « مـوسـى » شـق بـحـرا بـأن شـقـت بـفـكـيـك الـبـحـور

والمتنبى ردد نفس هذا المعنى بقوله :

أنـا فـى أمـة تـداركـهـا الـ ـلـه غـريـب كـصـالـح فـى ثـمـود [5]

وقد ظهر الى أى مدى تأثر شوقى بالمتنبى ومهيار فى شعره.وقد تعدى هذا التأثر الى المعارضة فى بعض الأحيان ان لم يكن فى معظمها.وهذه الظاهرة عالجها نقاد شوقى من

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٧٢ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة المائدة ــ آية ١١٠ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٤٣ .
(٤) ديونا مهيار الديلمى ــ المجلد الأول ــ ص ٣٥٨ ــ ط أولى .
(٥) ديوان المتنبى ــ ج ١ ــ ص ٣٢٤ ــ شرح العكبرى ط ١٩٧١ .

منظورين مختلفين أحدهما للبرهنة على عمق ارتباطه بالتراث الشعرى واستثماره له وشدة معايشته لشعرائه وتمثله بهم ، بل تحديه لهم وتفوقه عليهم . والثانى لتتبع ما أخذ وماترك ، ما أبدع وما سرق ، واحصاء استطعاماته للاعجاب حيناً بلحظات التوفيق ، والتثريب حيناً آخر عند التقصير .

أما ملمح (الحياة والموت).ففى الموروث المسيحى أن المسيح بعد أن صلب ودفن ذهبت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الى قبره ، فلم يجداه فى القبر وأخبرهما ملاك الرب أنه قد بعث وسبق تلاميذه الى الجليل كما وعدهم [(١)]. وبذلك استخدم شوقى هذا العنصر فى قصيدته (على قبر نابليون) وما يحويه هذا القبر من رفات بطل من أبطال التاريخ النوابع وعباقرة الحرب ، وبأن نابليون غلاب القياصرة ، ولكن هناك قوة غالبة اقتلعته الا وهى الموت ، فالموت حقيقة والحياة تافهة فمهما حاول الانسان بكل ما يملك من عظمة وجبروت أن يؤله نفسه فأن قوة الله فوق كل شيء واليه المآب . يقول شوقى بأسلوب فلسفى :

أيــهـــا الــغـــالـــون فـــى أجـــداثـــهـــم ابحثوا فى الأرض : هل عيسى دفين [(٢)]

الملاحظ هنا أن شوقى يتنازعه شعوران ، أولا شعور بعظمة نابليون ، وثانياً شعور بتفاهة الحياة وبحقيقة الموت . ومن هنا فهو ينتقد هذه الفخامة التى تتجلى فى ضريح نابليون ويرى أن القبور كلها تستوى أمام حقيقة الموت ، فعيسى وهو النبى العظيم الذى اصطفاه الله لايعرف له قبر أصلا ، فما قيمة الاسراف فى اتخاذ القبور الفخمة المصنوعة من المرمر المسنون إذا كان كل الناس فى قاع القبر سواء لافرق بين عظيم صنع التاريخ ورجل لم تعن حياته شيئاً فى مسيرة البشرية .

ولاتقل شخصية النبى موسى شيوعاً عن شخصية النبى عيسى عند شوقى ، فالنبى موسى واحد من الرسل الذين بشروا بقيم سماوية نبيلة ، وتحملوا فى سبيل دعوتهم الكثير من العنف والتضحيات ، وقد لقى من عنت اليهود أنفسهم الكثير . والقيم التى جاء بها النبى موسى تتنافى كلية ما ما تمثله الصهيونية المعاصرة من عدوان وشر . وقد يستخدم بعض الشعراء شخصية النبى موسى كمقابل تصويرى للقوى الصهيونية المعتدية ، وهذا من

---

(١) انجيل متى (الاصحاح الثامن والعشرون) ــ ص ٥٠ .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٢٥٥ .

المزالق الفنية التى يقعون فيها ولكن شوقى على العكس من ذلك يفخر بنشأة النبى موسى بمصر ، ويردد قوله فى هذا المعنى :

مصر موسى عند انتماء ، وموسى مصر ان كان نسبة وانتماء (١)
فبه فخرها المؤيد ، مهما هز بالسيد الكليم اللواء

وهى مثال الوحدة الوطنية وهو بذلك يرى فى كثير من أعلام الأديان السماوية قبل الاسلام مثله العليا .

وقد صور النبى موسى وماحف به من ظروف ، ومن ذلك تشبيهه مصر — حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وخرج الى المنفى — بأم موسى حين ألقته فى اليم صبياً وسألت الله أن يكفله ، قال :

كأم موسى ، على اسم الله تكفلنا . وبأسمه ذهبت فى اليم تلقينا (٢)

ويربط شوقى بين المعلم وبين النبى فى تقاربهما فى تعليم الحقيقة للناس على الرغم من التباعد فى درجة الحقيقة ومصدرها ويتخذ من النبى عيسى والنبى موسى مثالا لذلك :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا (٣)
... ...
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
... ...
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الانجيلا

وشبه شوقى المعلم بموسى فى رشده وفى ظلاله كأنه السامرى وذلك فى رثائه (لعلى بهجت) فقيد العلم فى قصيدة نشرت بجريدة الأخبار فى ١٠ مايو ١٩٢٤ م . قال :

إذا رشد المعلم كان موسى وان هو ضل كان السامريا (٤)

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ ص ٣٧ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ ص ١٠٤ .
(٣) نفس المرجع السابق — ج ١ ص ٨٠ — ١٨١ .
(٤) ديوان شوقى — ج ٣ ص ١٨٥ .

وقابل شوقي بين (رشد) وهي الرشد والاهتداء الى الحقيقة ، و (ضل) من الضلال ضد الهدى والسامري كان من الضالين ، إذ حكم موسى على السامري بالوحدة في الدنيا لأنه اتخذ عجلا من الذهب للعبادة وفتن قوم موسى،واستغل اعجاب القوم الدفين بسادتهم المصريين وتقليدهم لهم في عبادة الأوثان وكان على ضلال .

قال تعالى : « قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري » (١) .

وفي رثائه لزعيم مصر الخالد سعد زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧ م ربط بين الزعيم سعد وثورته في سبيل الحق التي لم تخمد أبداً وما عمله في الثورة العرابية وهو في مقتبل شبابه وتحديه كل الصعاب ، وبين النبي موسى (عليه السلام) وقصة تحديه لفرعون وسحرته بالعصا فكانت كما ورد في القرآن ، إذ قال تعالى : « فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون » (٢) .

وقال شوقي بهذا المعنى :

رقد الثائر الا ثورة في سبيل الحق لم تخمد جذاها (٣)
قد تولاها صبيا فكوت راحتيه ، وفتيا فرعاها
... ...
أعلمتم بعد (موسى) من يد قذفت في وجه (فرعون)عصاها

ويشبه شوقي سعد زغلول وصاحبيه في مقابلتهما لممثل بريطانيا في مصر سنة ١٩١٨ مطالبين باستقلال البلاد شبههما (بهارون وأخيه موسى) وشبه الممثل البريطاني (بفرعون) بقوته وطغيانه إذ قال :

بعثنا فيك (هارونا وموسى) الى (فرعون) فابتدآ الكفاحا (٤)

وقصة فرعون وموسى (عليه السلام) تبرز الجوانب اللا نسانية للقيادة المنحرفة المتمثلة في (فرعون والملأ) لأنها تمثل الظلم والطغيان والكبر والاستعلاء .

---

(١) قرآن كريم ــ سورة طه ــ آية ٨٥ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الشعراء ــ آية ٤٥ .
(٣) ديوان شوقي ــ ج ٣ ص ١٧٨ .
(٤) ديوان شوقي ــ ج ٤ ص ٣٠ .

وشخصية النبى (يوشع) عليه السلام هى (مثال الاعجاز) وقد استخدمها شوقى بملامحها التوراتية وبشعور دينى فى قصيدة (توت عنخ آمون) [1] وكان يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام نبياً من بنى اسرائيل قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس لغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم ، يقول شوقى :

قفى ــ يا أخت (يوشع) ــ خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

والخطاب فى البيت السابق حيث كنى عنها بأخت يوشع .

وفى رثائه (محمود تيمور) الأديب الكبير والقصصى الاجتماعى الذى لم يمهله الموت وهو فى عز شبابه سنة ١٩٢١ م ، صور حزن أمه وأبيه عليه وتمنى لو أن أباه يملك سر النبى يوشع ليرد شمس الغائب (المرثى) يقول :

وانظر أباك وثكله ورزوحه تحت المصاب [2]
لو كان يملك سر يوشع رد شمسك من غياب

استخدم شوقى حرف التمنى (لو) ليوافق المناسبة ولأن الموقف مستحيل أن يتحقق ، وكما أوردنا فالشمس كانت معجزة النبى يوشع .

٢ ــ شخصيات مقدسة :

ومن الشخصيات المقدسة التى وردت فى شعر شوقى شخصية مريم العذراء (عليها السلام) ، وقد استخدم شوقى ملامح هذه الشخصية للتعبير عن تجارب مختلفة ، منها الطهر ، إذ شبه الشاعر بعض من مدحهم أو رثاهم من النساء ومنهم (أم المحسنين) والدة الخديوى عباس حلمى الثانى بمريم العذراء بقداستها وطهرها . فقد اتخذ شوقى شخصية مريم ليستخدمها نظيراً لشخصياته حيناً ، وحيناً آخر يكون استخدامها فى اطارها الحقيقى مثل فرحها وتهللها بمقدم الرسول محمد (ص) ومثل هربها الى أرض مصر خوفاً على ابنها من القتل .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٦٦٦ .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ٣ ص ٢٧ .

والطهر ملمح من ملامح شخصية مريم (عليها السلام) ، وقد شبه شوقى والدة الخديوى عباس بها ، ففى القصيدة التى قالها فى رثاء أم المحسنين (والدة الخديوى) المتوفاة بالاستانة ١٩٣١ م يقول :

وربة العرشين فى دولتها قد ركبت اليوم عرش العالمين [١]
أضجعت قبلك فيه (مريم) وتوارى بنساء المرسلين

(أم المحسنين) هذه المرأة الطاهرة تشبه مريم العذراء بهذه الصفة حتى أن نعشها قام (جبريل) عليه السلام بحراسته لأن النعش يحوى ذخيرة من الذخائر المقدسة .

ويعود شوقى فى أبيات أخرى يردد (طهر) مريم (عليها السلام) كصفة بارزة فى شخصيتها فيقول :

وأشبه طهر فى النساء بمريم فتاة على نهج المسيح تسير [٢]

واستخدم شوقى شخصية مريم (عليها السلام) فى اطارها الحقيقى لأنها حظيت فى التراث الدينى بلون من القداسة فذكرت فى الكتب السماوية كلها ، إذ أن مريم (عليها السلام) تهللت واهتزت سرورا بولادتها عيسى (عليه السلام) الذى هو امتداد لنبوة سلف وتمهيد لنبوة خلف ، والمسيح هو كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه يقول :

أثنى المسيح عليه خلف سمائه وتهللت واهتزت العذراء [٣]

يشير الى تبشير عيسى (عليه السلام) بمحمد (ص) ، وفى القرآن الكريم ما يشير الى هذا ، وهو قول الله تعالى على لسان عيسى : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد » [٤] .

وقد صور شوقى لجوء مريم العذراء وابنها الى أرض مصر خوفاً على ابنها من القتل أحسن تصوير، ففى قصيدته التى قالها وهو يناجى أبا الهول سنة (١٩٢١ م) ، أراد أن يوضح بأن مصر أرض الرجال الذين صحبوا رسول الله (ص) مثل عمرو بن العاص ، ومريم (عليها السلام) من الشخصيات المقدسة الذين جاءوا لمصر ، وهذا حين أمر

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٣ ص ١٦٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ــ ص ٨٢ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٣٥ .
(٤) قرآن كريم ــ سورة الصف (آية ٦) .

هيرودس [*] بقتل كل طفل فى بيت لحم ، فألقى على يوسف النجار فى منامه أن يذهب بالطفل وأمه الى مصر ، فنزلوا عين شمس وبقوا بها الى أن هلك هيرودس ، وكان عيسى (عليه السلام) عندها فى السابعة من عمره ، وكان ثمة شجرة زال أصلها منذ أمد قريب كانت تسمى شجرة العذراء يقال انهما كانا قد استظلا بها ، ولايزال الناس يزورون مكانها الى اليوم ، ويذهب بعض المفسرين الى أن المراد بالربوة التى ذكرها الله تعالى فى قوله : « وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » [١] ، هى مصر .

وقد أراد شوقى التصدى للمواجهة بين مصر الفرعونية ومصر القرآنية ، فجاء بحل لطيف أرضى به ضميره الشعرى وضميره الدينى ، ويتلخص هذا الارضاء فى معادلة مفادها أن الأنبياء والشخصيات المقدسة هم ضيوف الفراعنة لجأوا اليهم فى محنهم ، فيقول فى مواضع أخرى من قصائده :

أين الفراعنة الألى استذرى بهم ... عيسى ويوسف والكليم المصعق [٢]

البيت السابق من قصيدته (أيها النيل) التى قالها شوقى فى الاربعين من عمره قبل نفيه الى أسبانيا ، وتعتبر فاتحة عبقريته الكبرى وهى من أقوى قصائد الشعر العربى لما تتسم به من معانى القوة والخلود .

ومن الشخصيات التى استخدمها شوقى الى جانب هذه الشخصيات البشرية ، شخصيات الملائكة ومنهم (جبريل) عليه السلام . (فجبريل)رمز للقوة التى تصل الانسان بالسماء وهو الروح الأمين ، وهو (برهان العناية) الالهية ، وهو رفيق الرسول محمد (ص) فى رحلة المعراج ، وهو الوحى المبشر بالرسالة إذ هو أول من حمل للرسول (ص) رسالة ربه السماوية . وقد استخدم شوقى شخصية (جبريل) عليه السلام فى أغلب المواقف استخداماً قصصياً يذكر فيه قصة الوحى والرسالة والإسراء والمعراج ، وهذه كلها حقائق معروفة وردت فى القرآن الكريم ، إذ لم يضف لها بعداً جديداً سوى أنه أوردها فى القصائد حتى تلائم المناسبة مثل ميلاد الرسول (محمد) (ص) يقول فى ذكرى مولد الرسول (ص) من قصيدته العظيمة (١٩١٢ م) :

(*) انجيل برنابا (٦ : ٣) .

(١) قرآن كريم ــ سورة المؤمنون (آية ٥١) .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٦٦ .

ولـد الـهـدى فـالـكـائـنـات ضـيـاء وفـم الـزمـان تـبـسـم وثـنـاء [1]
الـروح والـمـلأ الـمـلائـك حـولـه لـلـديـن والـدنـيـا بـه بـشـراء

(الهدى) اسم خلعه شوقى على الرسول (محمد) (ص) ، وهو أول من استخدم هذا الاستخدام وأول من أسماه (بالهدى) وأسماه (المختار) [*] أيضاً .

والروح الأمين (جبريل) عليه السلام من الملائكة ، وهو أول من حمل الى النبى (ص) الوحى وبشر بالرسالة السماوية ، وإليه يشير قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين) [2] .

ويشير شوقى الى حديث المعراج النبوى الذى كان فيه جبريل (عليه السلام) رفيقاً للرسول محمد (ص) فى رحلته يقول :

الـعـرش تـحـتـك سـدة وقـوائـمـا ومـنـاكـب الـروح الأمـيـن وطـاء [3]

يشير شوقى الى تقريب الله تعالى الرسول (ص) وادنائه منزلة منه (العرش تحتك) والعرش هو سرير الملك . ولكن شوقى أضافه الى الله تعالى على التشبيه بجعل العرش ظلة تظل الرسول وقوائم يقوم عليها على وجه التشبيه ، وقد كان الروح الأمين (جبريل) بصحبة الرسول (ص) حين عرج به فى السماء وارتقى.وعلى سبيل الكناية جعل شوقى منكبى (جبريل) عليه السلام كالمهاد للرسول (ص) ، إذ الحمل على الكتف لايكون الا لمن يوليه العناية الكبيرة ، وتتكرر صورة جبريل (عليه السلام) على هذه الحال عند شوقى كما فى قوله :

لدى الباب جبريل الأمين ، براحه رسـائـل رحـمـانـيـة الـنـفـحـات [4]

وقوله :

فـلـجـبـريـل جـيـئـة ، ورواح وهـبـوط الـى الـثـرى ، ارتـقـاء [5]

(1) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٣٤ .
(*) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٣٩ .
(2) قرآن كريم ــ سورة الشعراء (آية ١٩٣ : ١٩٤) .
(3) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٣٩ .
(4) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٩٨ .
(5) نفس المصدر السابق ــ ص ٣٠ .

جبريل (ع) الوحى يحمل الرسالة السماوية من اللّه سبحانه وتعالى الى رسوله محمد (ص) وقد قابل شوقى بين المجيىء والرواح وبين الهبوط والارتقاء ، وهذه مقابلة مركبة أدت دوراً هاماً لأنها وحدة مركبة من عناصر متقابلة ومتضادة وضحت لنا المعنى.

ويقول من قصيدة (فى سبيل الهلال الأحمر) :

جبريل ، هلل فى السماء ، وكبر واكتب ثواب المحسنين وسطر (١)

استخدم شوقى المطالع المحذوف فيها حرف النداء (يا) فبعث هذا الحذف الحيوية فى كامل القصيدة إذ أن النداء يساهم فى بنية القصيدة الداخلية ، وحذف حرف النداء أسلوب شائع فى شعره . وهو من خصائص المطالع ، فأكثر ما كان منه فى صدر البيت يتنزل المنادى بعد الحذف فى صدارة البيت فيبرز بذلك لفظه ويقوى به معناه ويعتبر هنا من باب التمجيد الدينى لدى شوقى . ومما يماثل هذا الموقف قوله :

(جبريل) ، أنت هدى السما ء ، وأنت برهان العناية (٢)

واستخدم شوقى شخصية (جبريل) عليه السلام فى ارسال تحيته لمصر من أسبانيا ، اذ لم تكن تحية عادية وانما كانت تحية مقدسة يحرسها (جبريل) . ويعمد شوقى الى توظيف صورته هذه ليعبر عن شوقه الى وطنه الحبيب شوقا قدسيا . يقول :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا	بعد الهدوء ، ويهمى عن مآقينا (٣)
بالله ان جبت ظلماء العباب على	نجائب النور محدودا (بجبرينا)
حتى حوتك سماء النيل عالية	على الغيوث ، وان كانت ميامينا
فقف الى النيل ، واهتف فى خمائله	وانزل ، كما نزل الطل الرياحينا

فالتحية ترسل مع البرق الى المحبوبين هى صورة بسيطة تقليدية شائعة فى الشعر القديم ، ولكن الجديد عند شوقى هو محاولته اسباغ السمو والتقديس على هذه التحية المرسلة الى مصر فجعل البرق كما لو كان قافلة تمضى على ابل نجيبة كريمة ، ولكن

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ١٤٩ .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ص ٢٩١ .
(٣) نفس المصدر السابق ــ ج ــ ص ١٠٥ .

هذه الأبل انما هى من النور (نجائب النور) ومما زاد المعنى قدسية هو جعل جبريل (عليه السلام) هو الذى يحدو هذه الابل .

وكما أن شخصية (جبريل) عليه السلام كانت معادلا موضوعيا للقوة التى تصل الانسان بالسماء عند شوقى فان شخصية (عزرائيل) هى معادل موضوعى لقوى الفناء والموت التى تسحق الانسان وتهدد أمنه ، وللجهل الذى يقضى على الانسانية بصورة عامة ، ويقول شوقى من قصيدته عن الحرب العثمانية اليونانية [1] والتى قال عنها محمد حسين هيكل « اقرأ قصيدته العظيمة العامرة عن الحرب العثمانية اليونانية والتى مطلعها :

بسيفك يعلو الحق ، والحق أغلب   وينصر دين الله أيان تضرب

اقرأ أيا من هذه القصائد التى قيلت قبل الحرب الكبرى ، أو اقرأ غيرها مما قيل بعد الحرب على اثر انتصار الأتراك على اليونان ، وانك لمؤمن حقا بأن هذه القصائد التركية هى أقوى قصائده عن الحوادث وأصدقها حسا وعاطفة » [2]

يقول شوقى :

فمثل بناء الترك لم يبق مشرق   ومثل بناء الترك لم يبن مغرب [3]
تظل مهولات البوارج دونه   حوائر مايدرين ماذا تخرب
اذا طاش بين الماء والصخر سهمهما   أتاها حديد مايطيش وأشرب
يسدده عزريل فى زى قاذف   وأيدى المنايا والقضاء المدرب
قذائف تخشى مهجة الشمس كلما   علت مصعدات انها لا تصوب

رسم شوقى صورته هذه ليصف عجز السفن الحربية اليونانية عن أن تنال من تلك الحصون التركية ، ويرسم صورة عزريل وهو ملك الموت ورمز القوة والفناء،وهو يسدد هذا الرصاص بوجه العدو ، فهو كالمنايا يقبض أرواحهم أى يقتلون بالرصاص كما يقبض

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٤٧ .

(٢) محمد حسنين هيكل ، مقدمة الطبعة الأولى ، الشوقيات ــ ج ١ ــ سنة ١٩٦١ ــ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ــ ص ١٤ .

(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ص ٤٧ .

عزرائيل الأرواح . وقد استخدم شوقى الكناية هنا فكنى بعزرائيل عن الفناء والموت فى صورته هذه .

وشبه شوقى (الجهل) بيدى (عزرائيل) لأن كليهما يؤدى الى الفناء ، يقول :

الجهل لاتحيا عليه جماعة كيف الحياة على يدى عزريلا [1]

وفى البيت جناس ناقص بين (تحيا والحياة) .

٣ ـ شخصيات منبوذة :

وردت فى شعر شوقى بعض الشخصيات التى ارتكبت خطيئة فحلت عليها اللعنة ، ويمكن التمييز بين نوعين من هذه الشخصيات ، النوع الأول : شخصيات حلت عليها اللعنة لتمردها على ارادة الله ، وعلى قمة هذا النوع يقف (الشيطان) ، والشيطان عند شوقى معادل موضوعى لقوى الشر والتمرد والخروج على الارادة ، ويتخذه رمزاً لذلك ويبنى ذلك على حقائق دينية مشتركة ، فهو عندما يصف علم الترك يرمز له بالملك أما أعلام الأعداء فرمز لها بالشيطان ، فالمحور مشترك عناصره زوجان متقابلان الملك والشيطان إذ يقول :

هذا الهلال الذى تحيون ليلته أبهى الأهلة عند الله ألوانا [2]
أراه من بين ألام الوغى ملكا وما سواه من الأعلام شيطانا

ويستخدم شوقى شخصية ابليس أو الشيطان رمزاً للعصيان حتى فى بعض أشعاره الغزلية معطياً لها صبغة قرآنية يقول :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده [3]
... ...
جحدت عيناك زكى دمى أكذلك خدك يجحده ؟
وهممت بجيدك أشركه فأبى ، واستكبر أصيده

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٨٢ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٤٧ .
(٣) نفس المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ٢٩١ .

التفت شوقى الى قول الله تعالى : « الا ابليس أبى واستكبر »[1] وتكررت صورة الشيطان عند شوقى بنفس الصيغة وهى رمز للعصيان ، فمن قصيدته التى نظمها بمناسبة ميلاد الأمير السابق محمد عبدالمنعم رمز لليأس بالشيطان الرجيم وجعل شخصية الممدوح (أملا شهابا) وقابل بين اليأس والأمل ، وبما أن الشهب هى التى تطرد الشيطان كما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى : « فاتبعه شهاب ثاقب »[2] ، فقد جعل شوقى ممدوحه أملا شهابا طارداً لليأس (الشيطان الرجيم) وقال تعالى : « وما هو بقول شيطان رجيم »[3] .

يقول شوقى :

أرى مستقبلا يبدو عجابا   وعنوانا يكن لنا كتابا[4]
وكان « محمد » أملا شهابا   وكان اليأس شيطانا رجيما

واستخدم شوقى شخصية ابليس كمعادل موضوعى لشخصية المبغض الكاره ، ففى قصيدته التى نظمها بمناسبة حج الخديوى (عباس حلمى) استخدم شوقى شخصية ابليس نموذجا يعادل به كل كارهى الخديوى ومبغضيه وهذه من مبالغات شوقى فى شعر البلاط الخديوى التى ترددت لديه كثيراً ، إذ يقول :

ويرمون ابليس الرجيم فيصطلى   وشانيك نيرانا من الجمرات[5]

فابليس هو رأس الشياطين ، وهو الذى زين لآدم (عليه السلام) الخروج من الجنة ، وهو الذى تراءى لابراهيم (ع) حين هم بذبح ابنه تنفيذاً لما رأى فى منامه ، ورؤيا الأنبياء وحى ، لصده عن أمر ربه ، فرماه ابراهيم (ع) بجمرات سبع ، وهذا ما يفعله الحجاج (بمنى) تمثلا بما فعله ابراهيم (عليه السلام) ، وأنهم على سنن ابراهيم نابذين لما يوسوس به ابليس ، وشوقى جعل كل أعداء الخديوى يستحقون الرجم مع ابليس .

---

(١) قرآن كريم ــ سورة البقرة (آية ٣٤) .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الصافات (آية ١٠) .
(٣) قرآن كريم ــ سورة التكوير (آية ٢٥) .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٣٢ .
(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٨ .

أما النوع الثانى : فهى الشخصيات التى لم تحل عليها اللعنة بسبب تمردها على الشرائع والتعاليم وانما بسبب خطيئة أخلاقية لاتقبل التبرير ، أو جريمة فى حق الانسان ، فقد ارتبطت عند الشعراء فى التعبير عن جوانب الشر والجريمة والسقوط ، ومن أشهر هذه الشخصيات شخصية المسيح الدجال الذى يأتى قبل قيام الساعة ليفتن الناس عن دينهم [1] ولكن شوقى لم يذكرها فى شعره انما ذكر شخصية ابليس وحدها.

الموروث التاريخى :

يلاحظ القارىء لشعر شوقى انه يكشف عن ثقافة تاريخية واسعة وعن ادراك ووعى بالعمق التاريخى للأمة العربية والاسلامية . واحساس شوقى بالمدرك الأساسى لكلمة التاريخ يتجلى كأوضح ما يكون فى أبياته التى أوردهافى قصيدته التى تحمل عنواناً معبراً (تحلية كتاب) يقول :

غال بالتاريخ ، واجعل صحفه	من كتاب الله فى الاجلال قابا [2]
قلب الانجيل ، وانظر فى الهدى	تلق للتاريخ وزنا ، وحسابا
رب من سافر فى أسفاره	بليالى الدهر والأيام آبا
واطلب الخلد ، ورمه منزلا	تجد الخلد من التاريخ بابا
عاش خلق ومضوا ، ما نقصوا	رقعة الأرض ، ولازادوا الترابا

ولشوقى قصيدة طويلة أخرى (كبار الحوادث فى وادى النيل) [3] تدل دلالة واضحة على مدى عمق احساسه بتاريخ وطنه وتراث أمته.فهو يفخر بالتراث التاريخى الطويل لمصر ويقوم بدور روايته ، إذ يعرض للخطوط العامة لحركة التاريخ المصرى بشكل ينبىء عن مدى المامه بحوادث هذا التاريخ على مر العصور ، فهو يبدأ القصيدة بتقرير تفوق التراث التاريخى لأرض الكنانة :

قل لبان بنى فشاد فعالى	لم يجز مصر فى الزمان بناء [4]

(١) صحيح الترمذى ــ ج ٩ ــ ص ٧٨ وما بعدها .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١٨ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٧ .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٨ .

ويأخذ فى استعراض التاريخ المصرى فى خطوطه العامة منذ الفراعنة مروراً بالغزو الهكسوسى سنة ١٦٧٥ ق . م . حتى الغزو الفارسى . ويستمر فى استعراضه هذا حتى ظهور الاسلامى فتتجلى روايته هنا ممزوجة بشعوره العميق بالايمان الاسلامى :

أشـرق الـنـور فـى الـعـوالـم لـمـا ... بـشـرتـهـا بـأحـمـد الأنـبـيـاء [١]

والنور الذى يعنيه شوقى هنا ليس نوراً حقيقياً وانما هو نور الهداية والايمان والعودة الى صفاء التوحيد ونقائه بعد أن عاد الناس يرتكسون فى ظلمات الشرك منذ عهد عيسى (عليه السلام) . وإذا كان شوقى يعنى هنا مولد رسول الله (ص) فان بشارة الأنبياء السابقين بظهوره واظلال دعوته لم تكن ملازمة لمولده بل تمت قبله بقرون طويلة . ولكن شوقى هنا يختصر الزمن فيجعل العالم يشرق ببشارة الأنبياء بمولده وكأن هذا النور قد امتد منذ تلك البشارة حتى مولده ولكنه نور يفطن اليه المؤمنون وغاب عن أنظار الكثيرين ممن حرفوا الكلم عن مواضعه من اليهود والمسيحيين .

ويسجل شوقى تاريخ مصر الاسلامية منذ فتحها عمرو بن العاص تحت راية الاسلام ، حتى يصل الى صلاح الدين ، وحركة الجهاد الاسلامية ضد العدوان الصليبى

يـوم سـار الـصـلـيـب والـحـامـلـوه ... ومـشـى الـغـرب قـومـه والـنـسـاء [٢]
بـنـفـوس تـجـول فـيـهـا الأمـانـى ... وقـلـوب تـثـور فـيـهـا الـدمـاء
يـغـمـرون الـدمـار لـلـحـق ولـلـنـا ... س وديـن الـذيـن بـالـحـق جـاءوا
ويـهـدون بـالـتـلاوة والـصـلـبـان ... مـا شـاد بـالـقـنـا الـبـنـاء

ويسجل تاريخ المماليك ، والأتراك العثمانيين ، وقدوم نابليون بونابرت والحملة الفرنسية . وإذا ماذكر محمد على وأسرته ابتدأ المديح يظهر فى أبياته . وهذه القصيدة تكشف بوضوح عن المكانة التى يحتلها التاريخ فى تكوينه الثقافى ومدى امتزاج ذلك كله بشعوره الدينى الفياض . ونلاحظ أن شوقى حتى فى ذكره تاريخ العرب فى الجاهلية يستقى ذلك من الأمثلة التى وردت فى القصص القرآنى من منظور دينى ، فهو حينما يصور الفتن الداخلية فى مصر والمجاعة المتولدة عنها بحرب البسوس وبالسنين الصعاب السبع التى فى قصة يوسف إذ يقول :

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٩ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٢ .

أمن حرب البسوس الى غلاء يكاد يعيدها سبعا صعابا [١]

قال تعالى : « وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف » [٢]

وفى موضوع التاريخ نراه يقف بشكل لافت أمام أعلامه وكبار حوادثه ، ففى الهمزية النبوية يستعرض السيرة النبوية فى خطوطها العامة منذ ميلاد الرسول (ص) ، يقول :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء [٣]

وإذ يسرد لنا السيرة النبوية فى اطار شعرى انما يلبى حاجة ثقافية قديمة متجددة فى المجتمع الاسلامى ، تنشد معرفة سيرة الرسول عليه السلام . وقد شهدت عصور الثقافة الاسلامية كتابة السيرة النبوية وروايتها بشكل متكرر فهى تلبى حاجة المسلمين القارئين من ناحية وتشبع رغبة المؤلفين فى التعبير عن حبهم لرسول الله (ص) .

وإذ أدرك شوقى حقيقة الوظيفة الحضارية للتاريخ ،فقد أشار فى هذه القصيدة نفسها الى حاضر الأمة الاسلامية وما أصابها من الوهن والتمزق ، فذكر أن المسلمين قد ركبوا هواهم وتفككت عراهم ولم تعد الثقة تجمع بينهم ، يقول :

أدرى رسول الله أن نفوسهم ركب هواها والقلوب هواء [٤]
متفككون فما تضم نفوسهم ثقة ، ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغمرهم نعيم باطل ونعيم قوم فى القيود بلاء

والحقيقة أن شوقى دائماً يعزو أسباب الوهن الاسلامى الحاضر الى عوامل أخلاقية بحتة ، يقول من قصيدة (العلم والتعليم) :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا [٥]

وقد وجد الشاعر فى سيرة الخلفاء الراشدين كثيراً من المواقف التى استغلها للتعبير عن رؤيته لهذه السيرة ومدى ما يمكن أن يستغله فى مديحه لخلفاء آل عثمان . إذ يتقدم

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٤ .
(٢) قرآن كريم — سورة يوسف (آية ٤٣) .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١ : ٢٩ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١ : ٢٩ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٤٤ وما بعدها .

للمدوح بصحائف مشرقة من تاريخ الخلافة الاسلامية مسجلا بها القدوة الحسنة رغم ماشهدت من مواقف سلبية مثل ظروف مقتل الخليفة عثمان بن عفان . وقد شبه شوقى الخليفة العثمانى فى كثير من مواقفه بالرسول (ص) انطلاقاً من سيرة الرسول ، يقول :

هـذا مـقـام أنـت فـيـه مـحـمـد أعـداء ذاتـك فـرقـة فـى الـنـار (١)

وهذا دليل على حب شوقى للخليفة العثمانى وعلى أن الخليفة انما يستمد شرعيته وسياسته من روح الشريعة الاسلامية ، وبهذا استطاع شوقى ربط القيم السامية المشتركة بين ممدوحه من آل عثمان وبين أبطال التاريخ والخلفاء الراشدين ، إذ نفذ من خلال التراث ليسجل لنا فى هذا الشعر عالمه المرئى الذى يعيشه مع عالمه الذهنى الذى تصوره من الماضى . ومن هذه القيم التاريخية جمع بين الخليفة عمر بن الخطاب (الفاروق) وعلى بن أبى طالب (أبى تراب) فى سياق واحد ليشبه الخليفة العثمانى (محمد رشاد الخامس) بهما تشبيهاً سريعاً مبتسراً ليصف الخليفة باستتباب الأمن وتحقيق السعادة للشعب مع تقى الخليفة :

فكأنك (الفاروق) (*) فى كرسيه نعمت شعوب الأرض تحت ظلاله (٢)
أو أنت مثل (أبى تراب) (*) يتقى ويهابه الأملاك فى أسماله (*)
عهد النبى هو السماحة والرضا (بمحمد) (*) أولى ، وسمح خلاله
يابن الخواقين (*) (الثلاثين) (*) الأولى قد جملوا الاسلام فوق جماله

ويعتبر هذا من شوقى اسرافا فى الاشارات والاعلام التاريخية فى قصيدة (عيد الدهر) التى كانت الابيات السابقة من ضمنها.وهذا الأسراف لم يسبقه اليه شاعر آخر حتى المتنبى الذى أكثر من ايراد اشارات تاريخية وأسماء أعلام فى قصيدته التى قالها فى

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٧ .
(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٩ .
(*) الفاروق : لقب عمر بن الخطاب .
(*) أبو تراب : كنية على بن أبى طالب .
(*) الأسمال : الثياب البالية وأحدها سمل بفتح الميم :
(*) محمد رشاد : الخليفة العثمانى .
(*) الخواقين : جمع خاقان ، وهو اسم لكل ملك من ملوك الترك .
(*) الثلاثين : هم آباء الخليفة العثمانى الذين سبقوه للسلطة العثمانية .

مدح الفضل بن العميد ، ولكن هذه الأعلام والأسماء لم تزد عن سبعة مشهورة وهى لذلك لاتعتبر كثيرة اذا ماقيست بالأعلام التى أوردها شوقى فى قصيدة واحدة تزيد على خمسة وعشرين اسماً . ويؤدى هذا التزاحم فى القصيدة الواحدة عند شوقى الى خفاء المعنى الا على من نال حظاً من العلم ، واثارة من التاريخ ومأأقل هؤلاء اليوم .

ومن تشبيهاته التى جمع فيها بين الماضى المتصور والحاضر المرئى هذه الصورة الشاذة النادرة التى شبه فيها الرغوة التى تعلو أفواه خيل الترك بالعرق المتصبب على فرس الرسول (ص) ، من باب الاشتراك فى القيم التاريخية السامية والتقريب بين الوضعين فى مستوى الرسالة والهدف على الرغم من المبالغة الواضحة فى القصيدة :

تذكر الارض مالم تنس من زبد كالمسك من جنبات (السكب) (*) منسكب (1)

ولم يترك شوقى من المخزون التاريخى حقبة الا أخذ منها،من العصر الاموى الى العباسى ، اضافة الى ماسبق الاسلامى والجاهلى والفرعونى ، والعثمانى . وفى حديثه عن عصر بنى أمية وخلفائه مثل معاوية وهشام وعبد الملك بن مروان يقدم لنا آيات ثنائه واعجابه بخلفائهم منذ بدأت الوراثة بمعاوية وأولاده ، ثم يذكر لنا بعض النماذج والسلبيات التى وردت فى هذا العصر من منطلق دينى،أو مواقف يشبهها بعالمه المرئى الذى يعيشه . والملاحظ أن شواهد التاريخ فرضت نفسها على خيال شوقى فتكررت عنده لها نظائر كثيرة ، وكأنه وجد فى التاريخ مصدراً ومرجعاً يستشهد به ، كما وجد فيه بابا يتوارى وراءه اذا أراد نظم الشعر فى احداث عصره الضخمة الشائكة ، ففى قصيدة (بين الحجاب والسفور) التى مطلعها :

صداح يامَلِك الكنا ر ويا أمير البلبل (2)

نرى أنفسنا أمام قصيدة رمزية ، يمكن أن تفسر تفسيرا سياسيا واجتماعيا ، بمعنى أن الشاعر يرمز بطائر الكنار وتغير أحواله الى موضوعات ومشكلات عامة فى بيئته .

---

(1) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٣

(*) السكب : فرس من أفراس النبى (ص) .

(2) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٩ .

وقد استمذ شوقى من التاريخ أمثالا ضربها مثل حادثة التحكيم [١] بين الامام على ومعاوية بن أبى سفيان عندما اختارا أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وكانت الفتنة على أشدها بين على ومعاوية ، وما حدث بينهما من تحكيم فى (دومة الجندل) على أثر الحرب العنيفة التى دارت بين على ومعاوية فى صفين . وقد قارن شوقى بين العالم المتصور (معاوية وعلى) كما ذكرنا وبين العالم المرئى (ابراهيم الوردانى) وهذا السياق المشترك (الظلم والحيلة) فى كلا الأمرين ، إذ تردد صدى عطف الناس على الوردانى الذى أراد أن يجنب وطنه الكوارث السياسية.ولكن الحياة لاتكون للمستكين وانما هى للفاتك الذكى ، ويعرض بالذين يتخذون من القرآن والدين وسائل للوصول الى مآربهم ، يقول :

أسمعت بالحكمين فى الـ   إسلام يوم (الجندل) [*] . [٢]
فى الفتنة الكبرى، ولو   لا حكمة لم تشعل
...   .
قالوا : الكتاب ، وقام   كل مفسر مسؤول
حتى إذا وسعت (معا   وية) ، وضاق بها على
...   .
نزلوا على حكم القوى ،   وعند رأى الأحيل

وقد أورد شوقى هذا المثال ليشبه الفتنة التى حدثت عند مقتل بطرس غالى بالفتنة التى حدثت بين معاوية وعلى .

ويذكر شوقى مكانة الخليفة الأموى (معاوية) ، ويقارن بينه وبين أشخاص الخلفاء الحاليين على الامتداد الزمنى وكأن التاريخ يصبح عنده مصدراً للمقارنه يستقى منه مايريد ، إذ يقول فى قصيدة (تكليل أنقره وعزل الأستانة) :

---

(١) انظر الكامل فى التاريخ ــ ابن الاثير ــ ص ١٦٨ ــ ادارة الطباعة المنيرية درب الاتراك ــ ج ١ ــ مصر ــ ١٣٥٦ هجرية .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٧٩ .

(*) (دومة الجندل) واحة وبلدة فى جوف السرحان ، نزلها بنو كنانة ، بعث الرسول خالد بن الوليد لغزوها ٤ هجرية / ٦٢٥ ، جرى فيها التحكيم بعد معركة صفين بين أنصار على وأنصار معاوية بشأن الخلافة .

ان الـذيـن تـوارثـوك عـلـى الـهـوى   بعد (ابن هند) (•) طالما كذبوك (١)
لـم يـلـبـسـوا بـرد الـنـبـى وانـمـا   لـبـسـوا طـقـوس الـروم إذ لـبـسـوك

ويشير شوقى فى هذين البيتين الى أن الخلافة منذ أيام معاوية بن أبى سفيان قد تحولت من جماعة لها امام يهتدى بهدى الشرع والسنة الى ملك عضوض يتوارث أبا عن جد ويهتم فيه الخلفاء بمظاهر الملك وأبهة السلطان أكثر مما يهتمون فيه بجوهر القيم الاسلامية . فنظرته هنا نظرة نقدية الى ماضى التاريخ الاسلامى منذ انتهاء عصر الخلفاء الراشدين . وعلى الرغم من اعترافه بعظمة بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين فانه لايخلى هذا الماضى من نقده إذ يقول أن القيم السامية التى كانت أساساً لاقامة كيان الأمة على عهد الرسول (ص) ومن تبعه من خلفائه الراشدين قد استحالت الى مجرد مظاهر أشبه ماتكون بما كان يصطنعه قياصرة الروم وأكاسرة الفرس !

وشوقى لايريد للخلافة أن تبتلى بمثل ما ابتليت به من حاكم فاسق معتوه (كيزيد) أو (كالحاكم بأمر الله) الخليفة الفاطمى اذ يقول :

أو أن تزف لك الوراثة فاسقاً   (كيزيد) (•) أو(كالحاكم) (•) المأفوك (١)

وفى قصيدة (الاسطول العثمانى) التى قالها وقد شاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من المانيا ، وعز عليه أن يرى المسلمين فى أقطار الأرض قاعدين عن اعانة أسطول الدولة . وجه شوقى الخطاب فى مطلعها للسلطان محمد رشاد الخامس وجعله عز الاسلام . وهو هنا يتخذ من التاريخ مصدراً ، يقارن فيه بين ممدوحة الخليفة وبين الخلفاء من بنى عباس ، وكأن التاريخ عنده شاهد على مايقول ، فيتخذ من ترتيب الأحداث وذكر أسماء الخلفاء شاهداً على صدق قوله فى تصوير ممدوحة بالمقابلة بين صفاته

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٨ .
(•) (ابن هند) : معاوية بن أبى سفيان .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٨ .
(•) يزيد : بن الوليد من ملوك بنى أمية كان من أصحاب الفسوق .
(•) الحاكم : هو الحاكم بأمر الله أحد الملوك الفاطميين فى مصر كان فاسقاً مختبلا وكانت له بدع وضلالات يحمل الناس عليها قسراً .

وصفات أسلافه من خلفاء بنى العباس الذين يراهم قد أقاموا للناس حكما عادلا ، فيقول :

عرش النبى محمد جنباته نور ، ورفرفه الطهور غمام (١)
لما جلست سما وعز ، كأنما هارون وابناه عليه قيام

ومن الأعلام التاريخية الدينية والسياسية التى اعتمدها شوقى فى تصويره خلفاء بنى العباس ، مثل هارون الرشيد والأمين والمأمون ، والمعتصم والمنصور وبعض أبطال المسلمين ، مثل خالد بن الوليد وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبى .

ومن آيات ثنائه على الخلفاء العباسيين مقارنته بغداد ــ (دار السلام) عاصمة الخلافة العباسية (بروما)دار الشرائع بقضائها وقوانينها وخطبائها وشعرائها . وكان من عادة العومانيين أنهم إذا نزل بهم الأمر العظيم نفروا الى بعض أماكنهم العامة ، فخطبهم الخطباء ، وأنشدهم الشعراء ، وكان لفصاحة ألسنتهم فى الناس تأثير عجيب ، ومع هذا فما دانو فى قضائهم قضاء بغداد ، التى كان يقضى فيها بدين الله ، وهو أجل من أن يقاس به غيره ، ويوازن به ما سواه ، ولابلغوا فى فصاحتهم شأو فصحاء الدولة العباسية الذين قالوا فى كل باب فهزوا النفوس ، وخلبوا الألباب . يقول وهوي فخر ببغداد وما وضعت من دراسات فى فروع الدين الحنيف وشريعته حتى لتسمو على روما وقوانينها :

دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألقت يد السلم (٢)
ما ضارعتها بياناً عند ملتأم ولاحكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها على رشيد (*) ، ومأمون (*) ، ومعتصم (*)

ولشوقى بعض المواقف التاريخية ، وذلك واضح فى مدى توظيف المشاهد وخلق العلاقات بين قديمه التاريخى وواقعه الحضارى فهو يستهل قصيدته (روما) بهذا الأمر :

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٢٧ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٠٥ .
(*) رشيد : هارون الرشيد .
(*) مأمون : هو عبدالله المأمون ابن هارون الرشيد الخليفة العباسى المشهور .
(*) معتصم : هو أبو اسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، ولى الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون .

قف بروما وشاهد الأمر واشهد ان للملك مالكا سبحانه

فهذه الافتتاحية تنبهنا الى أننا سنشهد تجربة جديدة فى نوعها ، هى تجربة الاحساس الكلى بتاريخ الحضارة الانسانية .. وليس هناك بطبيعة الحال ما هو أعمق وأرحب من تجربة مثل هذه التجربة ، وهذا ماندركه ولاسيما حين يقول « ان للملك مالكا سبحانه » ولذلك فان ما ننتظره من الشاعر هو أن يحيى لنا تاريخ روما فى سطوتها وجبروتها وفى عزها وسؤددها . وننتظر منه أن يحيى الحضارة الرومانية فى شخصية روما ، قطب العالم القديم وسيدته لفترة من التاريخ ، فهل استطاع الشاعر ذلك ؟

ولكى نجيب عن هذا التساؤل ، ينبغى أن نحدد هدف الشاعر من قصيدته . والقصيدة إذا قسناها بمقاييس الشاعر العربى القديم ، الذى تأثره شوقى فى شعره اكتشفنا انها من نوع الوقوف على الأطلال الذى كان يتخذ فيه الشاعر القديم من المقابلة بين الماضى والحاضر وسيلة لتشخيص احساسه بجبروت الزمن وتغير أحوال الناس.أو بعبارة أخرى يتخذ من هذه المقابلة وسيلة للشكوى من الفناء الذى لايملك الانسان أمامه قوة تحول بينه وبين هذا الفناء . وقد اتخذ شوقى من المقابلة بين ماضى روما فى غناها وقوة جيشها . وتسلطها على الأمم القديمة واستعبادها لأبنائها وعصبيتها للجنس الرومانى وحياتها بكل ماكانت تحفل به من لهو غنى ، وبين واقع روما الذى يتمثل له فى صورتين احداهما هذه الآثار الباقية من تماثيل وبقايا قصور وغيرها مما يشخص هذا الماضى فى صورته التى آل اليها بعد غلبة الزمن عليه . والأخرى صورة روما الحديثة التى انتقلت فيها من رمز على الاستعمار والاضطهاد الدينى الى رمز على التسامح والبساطة .

لقد اتخذ من هذا كله وسيلة للمقابلة بين الماضى والحاضر ، بين البقاء والفناء ، على طريقة الشعراء القدماء ، بخلاف بسيط يتمثل فى استخدامه للغة التاريخ وأحداثه استخداماً فنياً موحياً ، وبذلك يكون قد حقق غاية القصيدة المتمثلة فى الاحساس بوطأة الزمن وأثره فى حياة الناس ، تلك الوطأة التى ظلت هدفا يتغنى به الشعراء فى قصائدهم . ومعنى ذلك أن شوقى قد استطاع أن ينتزع من أغراض القصيدة القديمة غرضاً أساسياً هو الوقوف على الأطلال ليجعل منه وحده موضوعاً لقصيدة .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٤٨ .

الـصـبـر والاقـدام فـيـه اذا هـمـا قـتـلا فـأقـتـل مـنـهـمـا الأحـجـام

... ...

هـذى الـبـقـيـة ــ لـو حـرصـتـم ــ دولـة صـال الرشيد (•) بها ، وطال هشام (•)

فـى الـبـيـت الأول مـقـابـلـة بـيـن (الـيـأس) و (الـرجـاء) ، و (خـلـف) و (أمام) ، وهذا التقابل الى جانب أثره الدلالى فهو يخلق نوعاً من التلائم يتيح لموسيقى البيت أن تتأكد وتتدعم ، بتناسق حركة المعنى وانتظامها والى جانب ذلك فان هذا التضاد والتقابل أكسب الصورة قوة تعبيرية وشحنة عاطفية هائلة .

وقد تولد لدى شوقى من هذا الموقف التاريخى معنى جديد فمن الواضح ان الاشارة هنا الى الخطبة المعروفة لطارق بن زياد (عند فتح الأندلس)وهى التى يقول فيها (أين المفر؟ العدو أمامكم والبحر من ورائكم)فعبر شوقى عن هذا المعنى تعبيراً جديداً فجعل لقاء العدو وهو فاتح باب الأمل وجعل البحر الذى خلفوه من وراء ظهورهم رمزاً لليأس ، وقد وفق شوقى فى هذا الاستغلال للموقف التاريخى القديم توفيقاً عظيماً ، فقد كان الأتراك يقاتلون البلغار وقد تركوا البحر وراء ظهورهم وكان نهوضهم لقتال العدو واستبسالهم فى حربه هو الذى فتح أمامهم أبواب النصر بعد أن خلفوا الخوف واليأس من ورائهم .

كذلك ينص موقف البطل (خالد بن الوليد) الذى شبه شوقى به (شكرى)بطل أدرنه المدافع عنها أثناء شهور حصارها وحربها مع البلغار ، يقول :

عـرض الـخـلافـة ذاد عـنـه مـجـاهـد فى الله ، غاز فى الرسول ، همام (١)

... ...

عـثـمـان فـى بـرديـه يـمـنـع جـيـشـه (وابـن الـولـيـد) عـلـى الـحـمـى قـوام

علم الزمان مكان (شكرى) (•) ، وانتهى شـكـر الـزمـان الـيـه والإعـظـام

ونود أن ننوه الى حسن استغلال شوقى لأسماء الشخصيات التاريخية الاسلامية وايحاءاتها حينما شبه شكرى بطل (أدرنة) فى قتاله للبلغار من أجل حماية خلافة

(•) الرشيد : هارون الرشيد الخليفة العباسى .

(•) هشام : هو ابن عبدالملك أحد خلفاء بنى أمية .

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٢٣٨ .

(•) (شكرى) : هو بطل أدرنة وقائد حاميتها الذى تولى الدفاع عنها أثناء شهور الحصار .

ولنقرأ هذه الأبيات :

دولة فى الثرى ، وأنقاض ملك هدم الدهر فى العلا بنيانه [1]
مزقت تاجه الخطوب ، وألقت فى التراب الذى أرى صولجانه
طلل ، عند دمنه ، عند رسم كتاب محا البلى عنوانه
وتماثيل كالحقائق ، تزدا د وضوحا على المدى وابانة
... ...
وبقايا هياكل وقصور بين أخذ البلى ودفع المتانة
... ...
بلد كان للنصارى قتادا صار ملك القسوس ، عرش الديانة
... ...
رومة الزهور فى الشرائع ، والحكمة فى الحكم ، والهوى ، والمجانة

ففى هذه الأبيات تلعب المقابلة بين الماضى والواقع دوراً كبيراً فى تجسيد احساس الشاعر بسطوة الزمن وقسوته ، وهى مقابلة تذكرنا بأشعار المتنبى الذى كان يحرص على أن يتخذ منها وسيلة لصياغة حكمة بالغة تلخص فلسفته فى الحياة والناس .

ومن بين أبطال التاريخ الذين كثرت اشارات الشاعر اليهم فى قصائده (خالد بن الوليد) و (طارق بن زياد) ولهما مواقف معروفة ، وقد إستلهم شوقى من هذه المواقف التاريخية ليصور حاضره المرئى ، ففى سنة ١٩١٢ جاءت الأنباء بغلبة البلغار على مدينة « أدرنة » العثمانية وانتصارهم عليها فى الحرب وهذا مما حز فى نفس الشاعر ، فقابل بين موقف الأتراك بموقف البطل (طارق بن زياد) بطل الأندلس المعروف الذى عبر البحر ليقاتل الأعداء (حسب الروايات التاريخية) ، فأمر فأحرقت السفائن ثم خطب فى الجيش وقال : « ان البحر وراءكم والعدو أمامكم » . والبحر خطر عظيم لجهل الجيش العربى به فاذا نكص الجندى عن القتال وقع بين عدوين ليس منهما غير الهلالك ، فالترك بين اليأس والرجاء فى موقفهم فى حربهم مع البلغار ، يقول :

وقف الزمان بكم كموقف (طارق) اليأس خلف ، والرجاء أمام [2]

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٢٥١ : ٢٥٢ .

(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٢٣٨ .

(آل عثمان) ب (خالد بن الوليد) بطل فتوح الشام في ظل الخليفة الراشد (عثمان بن عفان) فقد وفق شوقي هنا حينما أشار الى أن الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) وهو بعيد عن ميدان المعركة (ملتفع ببردة) في المدينة المنورة متابعاً فتوح المسلمين وملقياً بأوامره الى قواده ، بينما كان (خالد بن الوليد) يقود غمار المعارك تماماً كما كان يفعل القائد (شكري) وهو يحارب من أجل رفع لواء الخلافة الاسلامية ، وكأن اسم (عثمان) كان هو الرابطة بين هاتين الصورتين اللتين تفصل بينهما قرون طويلة ولكن يجمعهما خدمة القضية الاسلامية والتغني ببطولات قوادها . وهذه ظاهرة شاهدناها كثيراً في شعر شوقي ومردها الى حسن المامه وسعة اطلاعه على أحداث التاريخ الاسلامي القديم .

ومن تاريخيات شوقي ما جاء في قصيدته (الرحلة الى الأندلس) وهي التي احتذى فيها "سينية" البحتري في وصف ايوان كسرى ، ونستطيع أن نقول عن هذه القصيدة أن شوقياً بلغ فيها من حيث الاحساس بجلال التاريخ الاسلامي وعظمة الحضارة الاسلامية وانفعاله بها انفعالا وجدانياً نابعاً من حبه لعقيدته وغيرته عليها درجة عالية من التجويد الفني ، وتلك هي الحقيقة الجديدة في شعر شوقي أو التحول الجديد نتيجة للمعاناة التي عاناها من جراء نفيه الى الأندلس. ومن هنا كان لهذا الحب تأثيره العميق في انطلاق خياله مُفعماً بعاطفة حية . واعية قادته الى تصوير احساسه بروعة الآثار الاسلامية في الأندلس تصويراً يكشف عن عمق افتتانه بماضي الأندلس . فأبدع من الصور والرموز ماتميز من حيث الصبغة البيانية بلون من الجمال تعلوه مسحة خفيفة من الطرافة والقوة .

وقد استهل شوقي وصفه للحمراء بقوله :

من (لحمراء) جللت بغبار الدهر ، كالجرح بين برء ونكس [1]
كسنا البرق ، لو محا الضوء لحظا لمحتها العيون من طول قبس

ثم يأخذ الشاعر في التنقل بين الآثار ويقف لحظات أمام كل أثر لينظر اليه ويتملاه ويستقرئه ماضيه . ثم يعبر عن احساسه بما شاهد وبما يجد أنه خير وصف له .. فهو يقول عن حصن غرناطة ودار بني الأحمر :

---

(١) ديوان شوقي ــ ج ٢ ــ ص ٥٠

ويقترب شوقي من ساحة الحضارة الأندلسية بقوله :

مشت الحادثات في غرف (الحمراء)　　مشي النعي في دار عرس [1]
هتكت عزة الحجاب ، وفضت　　سدة الباب من سمير وأنس

هنا لباب الصراع التاريخي الذى نشب بين الحضارة العربية والحضارة الغربية ، وجاء اللباب بديعاً وعميقاً بغير شك ، يحدث فوق أطلال القصر من سحب الأسى التى تصيب الوجدان بغصة الحسرة والألم ، فالبيتان متكاملان فى تصوير خلاصة الصراع التاريخي وينبضان بمشاهده التى تستنفر الشعور الذى يحس ويدرك وتستنفر الخيال الذى يصور ما أحس الشعور وأدرك .

وعندما يذكر شوقي الساحة التى كانت ترابض فيها خيول الملوك والأمراء والقادة ، يقول بأنها أصبحت هى الأخرى آثاراً وأطلالا متكاملة مع القصور التى هجرها فرسانها :

عرصات تخلت الخيل عنها　　واستراحت من احتراس وعس [٥] [2]

ووصفه لقصر الحمراء عامة يقوم فى أساسه على المقابلة بين ماضى هذا القصر وواقعه ، بل نستطيع أن نلمح فى هذا الوصف حرص شوقى على أن يمزج الماضى بالحاضر مزجاً يخلص منه الى تجسيد أحاسيسه بمأساة العرب فى الأندلس من خلال تجسيده ما آل إليه أمر هذا القصر ، قصر الحمراء . فهو يتخذ من ماضيه رمزاً على قوة العرب واتساع وعظمتهاحضارتهم فى الأندلس،كما يتخذ من وصف ما حل بهم من خراب رمزاً على واقع العرب عامة ومأساتهم فى الأندلس خاصة . ولم يعبر شوقى عن أى من هذين الرمزين تعبيراً مفرداً وانما مزج،كما قلت،بين الماضى والحاضر مزجاً ممتعاً فهذا القصر الذى كان يحفل بالحركة ويكثر عليه الوافدون وتمتلىء مجالسه بالأنس والسمر قد خلا من ذلك كله ، فلا أنيس ولا وافد الا من جاء للتفرج عليه وتذكر الماضى من خلاله .

وقد صور نهاية ملك المسلمين فى الأندلس وتسليم أبى عبدالله مفاتيح المدينة للملكين الكاثوليكيين،ثم خروج موكبه الحزين الصامت ليتخذ منفاه فى المغرب :

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٥١ .

(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٥١ .

(٥) عس : طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

حصن (غرناطة) ، ودار بنى (الأحمر) : من غافل ، ويقظان ندس (*) (١)

... ...

مشت الحادثات فى غرف (الحمراء) مشى النعى فى دار عرس

عرصات تخلت الخيل عنها واستراحت من احتراس وعس

... ...

لا ترى غير وافدين على التاريخ ساعين فى خشوع ونكس

هذا هو الجو العام الذى يحيط بالحصن ودار بنىالأحمر ، فكل من يشاهد آثارها يخيل إليه أن كل ما بهما من صروح وعمد وغرف وتماثيل ومصورات وكأنها حشد من الناس أسكرهم عمر الزمان فاذا هم بين غافل وكأنه فى نعاس عميق وبين متفتح العين فى تحفز واع فطن . ويدهش الشاعر شوقى بروعة منظر الثلج الذى توج بعض القصور وكأنه أوشحه من القطن الناصع البديع . وتصور خياله ان مطارف الثلج فى بياضها تشبه بياض الشيب الذى يذكر بالموت أما هذا المشيب الذى يجلل القصور فهو عجيب .. انه لايعرف الموت وكأن الزمان قد نسيه أو أنه عجز عن أن يطويه :

جلل الثلج دونها رأس (شيرى) فبدا منه فى عصائب برس (*) (٢) ،

سرمد،شيبه ، ولم أر شيبا قبله يرجى البقاء وينسى

وقد نجح شوقى فى أن ينمى احساسه بمناظر قصر الحمراء والحصن وغيرهما من الآثار الداخلة فيهما أو الملحقة بهما وذلك بتصويرها من خلال اطار المناخ الطبيعى الذى كانت عليه ساعة مشاهدته لها . لينمى احساسه بما يستخرج منها ألفة أو وحدة تضفى أصباغاً من الجلال والروعة على الآثار ، وبذلك جعل للثلج وبياضه صلة انسانية بالتاريخ وبالزمان وحروفه وأن يشترك الاثنان معاً فى تجسيد العلاقة التاريخية بين الحصن ودار بنى الأحمر من ناحية وبين كل من الثلج والمشيب من ناحية أخرى .. إذ أن ايجاد أو ابداع تلك الصلات لخليق بأن يطلعنا على مشاهد فنية حية تتفاعل عناصرها مع تفاعل الاحساس ليزيدانا متعة بجمال الآثار وعظمة الحضارة الاسلامية بالأندلس .

---

(١) نفس المرجع السابق .

(*) ندس : الفهم

(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٥٠ .

(*) عصائب برس : بيض كالقطن .

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس (*) (1)
فتراها ، تقول : راية الجيش ... باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم ... عن حفاظ ، كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس

فقد رسم صورة حزينة لأبى عبدالله وقد سلم مفاتيح مدينته أى ملك أبائه الى عدويه وخرج فى ذلة بجيشه وكأنه يشيع جنازة،وركب السفن هارباً الى منفاه وكأنه قد حمل على نعوش كانت بالأمس عروشاً لآبائه . وقد حرص شوقى لتصوير هذه اللحظة الحزينة فى تاريخ الأندلس على استغلال المقابلة بين الأمس والحاضر استغلالا لغوياً ومعنوياً فصنع منها صورة مشجية جسدت مأساة الأندلس ممزوجة بأحزانه عليه .

ولعل هذه الأبيات فى تصوير مأساة السقوط الأخير هى أجمل ما فى قصيدة شوقى ، ففيها حياة لانراها فى أوصافه السابقة .

« ويستخلص شوقى كعادته من المأساة موعظة خلقية حول سياسة الممالك وتدبيرها وما تنتهى اليه حينما تقبض على مقاليدها يد حمقاء وضيعة » (2) :

رب بان لهادم ، وجموع ... لمشت ، ومحسن لمخس (3)
إمرة الناس همة ، لاتأتى ... لجبان ، ولا تنسنى لجبس (*)
وإذا ما أصاب بنيان قوم ... وهى خلق ، فانه وهى أس

* * *

وكما يكرر شوقى رقم أسماء الخلفاء فانه يكرر ذكر الأماكن الاسلامية بما لها من دلالات مقدسة ، فهى صورة من صور الدين ترتبط بشعائره وترتبط بالعبادات والتقاليد

(1) ديوان شوقى ــ ج 2 ــ ص 51 .
(*) ضرسه الزمان : اشتد عليه .
(2) فصول ــ الأندلس فى شعر شوقى ونثره ــ د . محمود على مكى ــ ص 200 ــ المجلد الثالث ــ العدد الأول ــ سنة 1982 م .
(3) ديوان شوقى ــ ج 2 ــ ص 51 : 52 .
(*) جبس : جبان .

الدينية ، وللناس تجاه هذه الأماكن كثير من المشاعر الدينية التى تشدهم إليها إذ يقول فى ذكر يثرب ومكة ومايرتبط فى سياقهما من الطهر :

يـدانـى ثـراهـا ثـرى مـكـة　　　ويـقـرب فـى الـطـهـر مـن يـثـرب [١]

ويقول من قصيدة (البردة) :

هـنـاك أذن لـلـرحـمـن ، فـامـتـلأت　　　أسـمـاع مـكـة مـن قـدسـيـة الـنـغـم [٢]

الدعاء لله سبحانه وتعالى بهذا (النغم القدسى) الطاهر المنزه عن كل تطريب وايقاع شعيرة من شعائر الدين تقام فى هذا المكان المقدس (مكة) الذى تهفو إليه نفوس الناس ، وهو حين يتحدث عن تاريخ الأماكن الاسلامية يقوم بربط مكانة الذى يتحدث عنه من أنبياء وخلفاء وطبيعة نسبتهم الى هذه الأماكن المقدسة ، فهو حينما يذكر الرسول (ص) واقامته فى حراء الليالى والأيام فى بطحاء مكة ويرتبط هذا الذكر بالقدسية ونسبة الرسول (ص) الى هذا المكان المقدس ، يقول :

كـم جـيـشـه وذهـاب شـرفـت بـهـمـا　　　بطحاء [٥] مكة فى الاصباح والغسم [٥] [٣]

وشوقى مشغول بمكة ويثرب كانشغاله بعرفات إذ يقول من قصيدة (نجاة) التى نظمها يهنىء فيها الخليفة من قذيفة ألقيت عليه وشاء الله النجاة منها سنة ١٩٠٥ م :

يـكـاد يـسـيـر الـبـيـت شـكـرا لـربـه　　　اليك ، ويسعى هاتفا عرفات [٥] [٤]

ويربط شوقى بين العتيق (البيت الحرام) وبين الأزهر الشريف فى سياق واحد وهى مكانتهما الطاهرة (فالعتيق مثابة) ، (والأزهر كوثر) ينهل منه الناس العلم بلا حدود ، ونلاحظ هنا هذا النفس القرآنى إذ قال تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . » [٥]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١٤٩ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٩٦ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٩٥ .
(٥) البطحاء : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى .
(٥) الغسم : الامساك وظلمة الليل .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٢ .
(٥) عرفات : مكان على مقربة من مكة ، الوقوف به ركن من أركان الحج .
(٥) قرآن كريم ــ سورة البقرة (آية ١٢٥) .

وقد يتجاوز شوقى الأسماء أو الأماكن الاسلامية بما لها من دلالات دينية مقدسة الى الأحداث الاسلامية ذاتها ، وهنا غالباً ما يكون الشاهد وثيقة تاريخية لها أهميتها ودلالتها على صدق مايقول ، والموقف يعتمد أساساً على مدى علاقة الشاعر بالتاريخ أو بمعنى أدق على البعد الحقيقى لثقافته التاريخية من وحى أحداث المجتمع الاسلامى فى الماضى،ومعارك اسلامية دارت فى زمن الرسول والخلفاء الراشدين . وقد اتخذ شوقى (غزوة بدر) بمدلولها التاريخى والاسلامى مثلا دينياً لانتصار المسلمين على الشرك بالتأييد الالهى ليدخل ذلك فى مقارنة مع حاضره وما تدور به من أحداث ، إذ يقول من قصيدة (أيها النيل) :

فتح الفتوح ، من الملائك رزدق [*] فيه ، ومن أصحاب بدر) زردق [1]
يبنون لله الكنانة بالقنا والله من حول البناء موفق

فيصور نزول الاسلام مصر واستضاءتها بنوره . وليس فى دفاع شوقى عن الفتح الاسلامى لمصر شىء من الخيال أو المبالغة ، لأن العرب فتحوا مصر ، فنقلوا إليها الدين واللغة ، وسرعان ما أقبل المصريون على الاسلام وعلى اللغة العربية ، ولم تكد تنقضى بضعة أحقاب حتى صارت مصرحصناًمن حصون الاسلام والعربية ، وهؤلاء الفاتحون الذين بنوا مصر برماحهم وبتأييد من ربهم ، حاربوا فى نصرة الحق . وفى هذين البيتين نلاحظ بروز مقاطع الجملة الشعرية اضافة الى الوقع الموسيقى ، وهذا ما لاحظناه عند قراءة القصيدة كلها بالاضافة الى توظيف الاستفهام عنده . وهذا نوع من خلق التطريب الموسيقى الذى استخدمه شوقى لنفى الرتابة والجمود وخلق تجانس صوتى بين الكلمات كنوع من المظاهر الأسلوبية عنده .

عقد شوقى وجه شبه بين (أهل بدر) وهم أول الغزاة مع الرسول محمد (ص) ، وبين النوابغ من العلماء ، إذ قال من قصيدة فى رثاء عثمان باشا غالب الذى كان طبيباً نابغة وعالماً بالنبات يشار اليه بالبنان عندما توفى فى باريس سنة ١٩٢٠ م ، يقول :

ان النوابغ (أهل بدر) ما لهم من سيئات [1]

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٧٣ .
(*) رزدق : أصل الكلمة فارسية — أى الصف من الناس .
(٢) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ٥٠ .

وعلى الرغم من اجادة شوقى فى استغلال المواقف التاريخية وتوظيفها فى شعره فانه قد كان بعيداً عن التوفيق فى بعض المواضع كما نرى فى اشارته الى شهداء بدر فى مرثيته (لعثمان غالب) ، ونحن نخالف شارح الديوان والمعلق عليه حينما أشاد بهذا البيت فقال (أهل بدر) هم أول الغزاة مع محمد (ص) شبه النوابغ بهم ، ووجه الشبه بينهما هو سبق كل منهما لاحراز أسمى مراتب الشرف والرفعة .. وهذا نوع من وجه الشبه لم نر شاعراً فطن إليه قبل شوقى ، فعلى الرغم من اعجاب هذا الشارح بذلك النوع من وجه الشبه الذى لم يفطن إليه شاعر قبل شوقى ، فاننا نراه أمراً لا معنى له ولا نرى مبرراً للجمع بين وفاة طبيب عظيم وعالم نبات وبين استشهاد أبطال معركة بدر ، أما النبوغ الذى أشار إليه شوقى فهو وجه شبه واه الى أبعد حد ، والقصيدة بوجه عام من أقل مرثيات شوقى قيمة وحظاً من صدق التجربة الشعرية .

وقد تظهر المؤثرات الاسلامية أكثر وضوحاً عند شوقى حين يستعين بوقائع من ماضى التاريخ الاسلامى كما مر فى (غزوة بدر) فهو اذ ذاك يستخرج من ذاكرته التاريخية مامر فى هذه الغزوة ، ويتكرر الموقف معه حين يذكر جرحى (خيبر) اذ يقول من قصيدته فى (سبيل الهلال الاحمر) وذلك فى سياق واحد وهو المقارنة بين جرحى خيبر فى عهد الرسول (ص) وهذه المعركة مشهورة فى التاريخ [1] وبين المجاهدين فى سبيل الوطن ، ولاتخفى جهوده فى جمع التبرعات لجرحى الهلال الاحمر وتضميد الجراح وتخفيف الالآم والقيام بالاسعافات الأولية الضرورية فى الحوادث ، يقول :

فى أعين البارى ، وفوق يمينه   جرحى نجلهم ، كجرحى خيبر [2]

ويؤكد شوقى وعيه التاريخى بقوله : « والشعر ابن أبوين : التاريخ والطبيعة » [3] ، فالتاريخ عنده له مفهوم خاص فقد اتسع ليشمل الكون والطبيعة والرسالة الاجتماعية والحضارات عامة ، فالتاريخ بالنسبة اليه كالمستودع للنظام الأمثل ، وكان حاضراً فى وعى شوقى يتمثله حيا فى شعره، يصور أحداثه ورجاله تصويراً صادقاً يثير التقدير والاعجاب ، وقيمه تجسدت فى صور كثيرة حفل بها ديوانه ، الى جانب ذلك تاريخ الأتراك بحروبهم وانتصاراتهم ، وخلفائهم ، ومآثرهم تنطق به صوره ،

---

(١) حياة محمد ــ هيكل ــ ص ٣٩٣ ــ دار المعارف بمصر . الطبعة السادسة عشرة ــ ١٩٨١ م .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٥٠ .

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص٢٥٠٠ . مقدمة قصيدة دوما .

وكأنما التاريخ أمامه خزانة مفتوحة ينتقى من جواهرها مايشاء ، الاعلام واسماء الاماكن والاجداث يستحضرها مجرد استحضار سريع خاطف فيظهر وجه الشبه أحياناً واضحاً وأحياناً مفتعلا ولكنه على كل حال يدل على اجلال شوقى لهذا التاريخ،ومحاولة تذكير سامعيه به فى كل مناسبة . وكانت حاجاتهم شديدة الى تذكر هذا التاريخ فى كل أزمة حاضرة وما أكثر أزمات المسلمين المحدثين .

ولايكتفى باثارة الصور التاريخية ، واستدعائها ووصف آثارها ، وانما يتجاوز ذلك الى استخدام دلالتها ومشاهدها وخاصة ما كان منها مذكورا فى القرآن الكريم فى عقد الكثير من الصور التى تعبر عن الطبيعة والمشاعر الذاتية وان كانت من غير التاريخ الاسلامى ، فالطبيعة فى جمالها تشبه بلقيس وابن داود .

يقول :

كشف الغطاء على (الطرول) وأشرقت ... منه الطبيعة غير ذات ستار [1]
شبهتها (بلقيس) فوق سريرها ... فى نضرة ومواكب وجوارى
أو (بابن داود) وواسع ملكه ... ومعالم للعز فيه كبار
هوج الرياح خواشع فى بابه ... والطير فيه نواكس المنقار

(تشبيه معكوس) .

ولكن (بلقيس) لم تذكر فى القرآن الكريم باللفظ وانما وردت الآية كما يلى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » [2]

وقد وليت بلقيس أمر اليمن كله ، ولها ملك عظيم،أورد القرآن الكريم قصة اسلامها مع النبى سليمان ... « وسليما ابن داود عليه السلام ملك من ملوك بنى اسرائيل أتاه الله النبوه واتسع ملكه وتوافرت له أسباب العظمة ومظاهر الأبهة ، وقد خصه الله بخصوصيات خارقة للعادة ، فقد علمه منطق الطير وسخر له الريح كما سخر الجن تقضى حاجاته ،

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٧ .
(٢) قرآن كريم — سورة النمل — آية ٢٣

وتصنع له العجائب » [1] ، قال تعالى : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين » [2] .

ومن الظواهر الواضحة فى شعر شوقى التاريخى أنه فى كثير من الأحيان لا يصور لنا تجربة حقيقية انفعل بها وانما وقف عند كونه استاذاً وواعظاً ، فهو فى كثير من تأملاته التاريخية يختمها بتوجيه نداء الى سامعيه أو قارئيه على نحو تقريرى وعظى يجعله أقرب الى الأستاذ المدرس منه الى الشاعر الحقيقى ، بل هو يصرح فى بعض الأحيان بأنه لايقدم هذه الاشارات التاريخية إلا من أجل العظة أو استحثاثهم المصريين الى التمسك بماضيهم والمسلمين الى تذكر أمجادهم الماضية فى نبرة خطابية خالصة ، يقول من قصيدة (على قبر نابليون) :

عظة قومى بها أولى وان ... بعد العهد ، فهل يعتبرون ؟ [3]
هذه الأهرام تاريخهم ... كيف من تاريخهم لايستحون ؟
يا كثير الصيد للصيد للعلا ... قم تأمل : كيف صادتك المنون ؟

* * *

الموروث الأدبى :

من الطبيعى أن يكون الموروث الأدبى هو الأقرب الى نفوس الشعراء ، ومن الطبيعى أيضاً أن تكون شخصيات الشعراء من بين الشخصيات الأدبية هى الألصق بنفوس الشعراء ووجدانهم ، ولا غرابة أن تكون شخصيات الشعراء من أكثر الشخصيات ذيوعاً فى التراث الأدبى والتأثر به . وكان لابد لشوقى فى أن يرفد موهبته الشعرية بمدد لاينقطع من شعر التراث ونثره ، وأن يتخطى ماتراكم حوله من رواسب التقليد فى عصره وفى العصور السابقة القريبة منه ويتجاوز ذلك كله الى الينابيع الصافية والنماذج المشرقة فى عصر الأصالة الزاهية .

---

(١) معجم الألفاظ والاعلام والقرآنية ــ محمد اسماعيل ابراهيم ــ القاهرة ــ دار الفكر العربى ــ ١٩٦٨ م ــ ص ٢٥١ .

(٢) قرآن كريم ــ سورة النمل ــ (آية ١٦) .

(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٥٨ : ٢٥٩ .

وكان له في اتصاله بشعر التراث ونثره موارد استقى منها ، أشار اليها بعض معاصريه وخاصة مصطفى صادق الرافعي الذى قال : « والكتاب الأول الذى راض خيال شوقى ، وصقل طبعه ، وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينه الذى كانت منه بصيرة حافظ .. أى كتاب (الوسيلة الأدبية) للمرصفى . وليس السر فى هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان فى مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقى ، ولكن السر ما فى الكتاب من شعر البارودى لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب ان كان الصواب ، وعلى خطأ ان كان الخطأ .. واكب البارودى على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول .. وكانت فيه سليقة فخرجت مخرج مثلها فى شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفى .. وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر والطريقتان معاً غير طريقة البارودى . تحول بهذا الشعر لا الى طريقة البارودى . ولكن تحوله كان عن طريقة معاصرية من أمثال الليثى وأبى النصر وغيرهما . فترك الأحياء وانطلق وراء الموتى فى دواوينهم التى كان من سعادته أن طبع الكثير منها فى ذلك العهد : كالمتنبى وأبى تمام والبحترى والمعرى » [1] .

وقال عز الدين التنوخى : « تخرج شوقى فى اللغة على الأستاذ النابغة المرصفى صاحب (الوسيلة) وكان أحب الشعراء إليه ــ كما أجاب به سائلا ــ هو المتنبى ، قال ما نصه : وأنا أعده أستاذى الأول ، ثم يلى المتنبى ابن الرومى . ومن ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبى الشعراء أبى الطيب المتنبى .. وتأثرت بعده بلغة ابن الرومى ، ثم بلغة من عارضهم من فحول الشعر وصاغة القريض كالبحترى الذى عارضه فى سينيته ، والحصرى فى داليته ، والبوصيرى فى البردة والهمزية ، وابن زيدون فى أندلسيته النونية ، وأمثالهم .. وانما تأثرت لغة شوقى بمعارضة قلائدهم المشهورة لأن المعارضة تدعو الى المضارعة » [2] .

---

(١) ذكرى الشاعرين ــ أحمد عبيد ــ ص ٤٤٧ / ٤٧٩ ــ المكتبة العربية بدمشق ــ سنة ١٣٥١ هجرية .
(٢) ذكرى الشاعرين ــ أحمد عبيد ــ ص ٣٩٣ .

وقد أكثر الباحثون من الاشارة الى تأثر شوقى بالبارودى والمتنبى والبحترى وأبى تمام ، وتتبعوا أبياته التى رأوا أنه أخذ ألفاظها ومعانيها وصورها منهم [٢] ، وعنوا عناية خاصة بتتبع تأثره بالمتنبى وما أخذه من شعره [٣] .

ولكن الموضوع بحاجة الى دراسة تفصيلية لبيان مدى التأثر بكل شاعر وتفاوت هذا التأثر بين الشعراء المختلفين ، ولا يتسع لها المجال . ويضاف الى ذلك التأثر بالشعراء ينبوع أساسى من الينابيع التى أوردها شوقى واستقى منها وتأثر بهاوهو الشعر الذى اختاره أبو تمام لشعراء الجاهلية والقرنين الأول والثانى الاسلاميين ، وجمعه فى (ديوان الحماسة) وأصبح فى طليعة الكتب التى كان الناشئة يعكفون عليها ويتمرسون بها — قراءة وفهماً وحفظاً — لتكون أساساً متيناً عليه بعد ذلك.

وقد نقل المرصفى فى كتابه (الوسيلة الأدبية) مقتطفات ونماذج كثيرة من الشعر الذى اختاره أبوتمام ، ففى شعر هؤلاء الشعراء المطبوعين ، الذين اختار لهم أبو تمام ، وجد شوقى مايريد فاستزاد منه على الرغم من أن أغلب هؤلاء الشعراء من غير المكثرين ومن غير الفحول المشهورين ، وممن لم تكن طبعت لهم دواوين على عهد شوقى ، وحتى يومنا هذا لم تعرف لأكثر هؤلاء أى دواوين مخطوطة أو مطبوعة ، وانما عرفناهم من خلال (ديوان الحماسة) وظل أثر ذلك الشعر فى نفس شوقى عميقاً حتى ظهر فيما بعد فى شعره فى مواطن كثيرة منه لا سبيل الى تتبعها كلها ويكفى من قلادتها ما أحاط بالعنق ومن أمثلة ذلك يقول شوقى :

يـا طـيـر ، والأمـثـال تـضـر	ب لـلـبـيـب الأمـثـل [١]
دنـيـاك مـن عـاداتـهـا	ألا تكون لأعزل
أو لـلـغـبـى ، وأن تـعـلـل	بـالـزمـان الـمـقـبـل
جـعـلـت لـحـر يـبـتـلـى	فـى ذى الـحـيـاة ويـبـتـلـى
يـرمـى ، ويـرمـى فـى جـهـا	د الـعـيـش غـيـر مـغـفـل

(١) نفس المصدر السابق — ص ٣٩٤/ ٣٩٨ / ٤٨٠ / ٤٨٥ .
(٢) مجلة أبولو — العدد الرابع من السنة الأولى — ديسمبر ١٩٣٢ م — ص ٤٤٧ — ٤٥٧ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٩ .

الأبيات السابقة من قصيدة (بين الحجاب والسفور) وهى قصيدة تعالج قضية ، وتجنح الى الرمز والمجاز ، وكل من قرأها أدرك أنها تجربة شعرية جيدة ومعاناة فنية ، وما استعمال الرمز إلا لاخفاء هذه المعاناة الناتجة عن التملق والتوازن فى آن واحد .

وفى (الوسيلة الأدبية) مما نقله المرصفى من خماسة أبى تمام قول يزيد بن الحكم الثقفى يعظ ابنه بدرا :

يا بدر . والأمثال يضر بها لذى اللب الحكيم [1]
دم للخليل بوده ما خير ود لا يدوم
واعلم بنىّ فانه بالعلم ينتفع العليم

وقد تجاوز تأثر شوقى (بيزيد بن الحكم) الى ألفاظ المطلع ومعانى بعض الأبيات ثم الى بناء القصيدة كله ، فالروح واحد والنسق واحد .

وقال شوقى فى مطلع قصيدته عن رمضان :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى الى مشتاق [2]
ما كان أكثره على آلافها وأقله فى طاعة الخلاق !!

شوقى يظهر فرحته بانقضاء رمضان حتى يعود الى مجلس الشراب ، فهو يشبه الاشتياق المتبادل بينه وبين الخمر بالشوق بين الأحبه ، والى جانب هذه السلبية فى تعبير شوقى عن رمضان فهناك أمر ايجابى وهو أن شوقى يتوقف عن الشراب فى هذا الشهر المقدس وهذا مما يدل دلالة واضحة على الصوت الدينى الكامن فى أعماقه لما يكنه من احترام لقدسية هذا الشهر .

ومطلع قصيدة شوقى السابقة يذكرنا بأبيات اختارها أبو تمام فى الحماسة لابن أذينه فى قوله وبنفس المعنى :

---

(١) ديوان الحماسة — ص ٤٤٥ — شرح المرزوقى — ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٥٣ م .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٧٧ .

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي   ما كان أكثرها لنا وأقلها [1]

ومن عناصر التراث فى شعر شوقى ، ترديدة لأسماء مجموعة من الشعراء ترديداً مقروناً باقتباسات من شعرهم ، أو باشارات الى بعض ما تضمنه ذلك الشعر ، أو بما يدل على معرفته لبعض خصائصهم الفنية ، أو لجوانب من مراحل حياتهم ، وكل ذلك بالقدر الذى يسمح به التناول الفنى للشعر .

ويشير شوقى فى مواطن متفرقة من شعره الى (لبيد بن ربيعة العامرى) والى أبياته التى يشكو فيها طول عمره ، وخاصة بيته الذى يقول فيه :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟ [1]

وقوله :

باتت تشكى الى النفس مجهشة   وقد تحملت سبعا بعد سبعينا [2]
فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا   وفى الثلاث وفاء للثمانينا

ويقول شوقى مشيرا الى لبيد :

أبا الهول ، ماذا وراء البقا   ء ـــ إذا ما تطاول ـــ غير الضجر ؟ [3]
عجبت للقمان فى حرصه   على لبد والنسور الأُخر
وشكوى لبيد لطول الحيا   ة ، ولو لم تطل لتشكى القصر

والاشارة واضحة فى شعر شوقى الى لبيد وسأمه من الحياة وطولها ، ثم الاشارة الى قصة لقمان بن عاديا [5] ، وهو من قوم عاد ونسوره السبعة ، وآخرها لبد ، وقيل اسمه

---

(١) الحماسة ـــ أبو تمام ـــ ص ٤٧٤ .
(٢) ديوان لبيد ـــ ص ١٤ ـــ ط . ليدن ١٨٩١ م .
(٣) نفس المصدر السابق ـــ ص ٤٦ : ٤٧ .
(٤) ديوان شوقى ـــ ج ١ ـــ ص ١٣٣ .
(٥) لقمان : هو لقمان بن عادياء غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم ، وقد وردت قصته فى كتب الأمثال .

بلسانهم الدهر فهى رمز للثبات والخلود ، وقد ذكرت هذه القصة كتب الأدب وخاصة كتب الأمثال [*] .

ويكرر شوقى ذكر (لبيد) فى مواطن أخرى ، منها ماذكره فى قصيدته عن (الهلال) بمناسبة عيد ميلاده يقول :

ومن صابر الدهر صبرى له   شكا فى الثلاثين شكوى (لبيد) [١]

ان الذى جعل الشاعر يشعر بأن حياته مملة طويلة هو صبره الطويل على مارماه به دهره ، وعجزه عن اظهار عواطفه على حقيقتها ، وقد قارن بين نفسه وبين الشاعر لبيد الذى أصبح مثلا لطول العمر وشكا سأمه من طول الحياة ، وعنوان القصيدة (الهلال) يوهم القارىء بأن الشاعر لم يضع سوى قصيدة وصفية خالصة عن الهلال،لاسيما ان أخذنا فى الاعتبار أن القصيدة فى جوهرها تدور حول الشاعر ذاته-حول قنوطه وعدم تحقيق آماله وطموحه ، وحول مشاعره ازاء دلالة الزمن وجدوى الجهد البشرى . ولكن قد يبدو أن الشاعر يرغب فى الفرار مما هو شخصى بحت ، فقد أخفى كل مشاعره وأحاسيسه تحت عنوان القصيدة .

وقد اعترف شوقى بفضل القدماء على جميع الشعراء الاحيائيين الذى هو منهم وهو القائل :

ومن نسى الفضل للسابقين   فما عرف الفضل فيما عرف [٢]
أليس إليهم صلاح البناء   إذا ما الأساس سما بالغرف

وكان حسان بن ثابت من الشعراء الذين ردد شوقى ذكرهم فى شعره وساق اشارات تدل على شعره ، ففى قصيدة شوقى (نكبة بيروت) يقول :

بيروت . يا راح النزيل وأنسه   يمضى الزمان علىّ لا أسلوك [٣]
الحسن لفظ فى المدائن كلها   ووجدته لفظا ومعنى فيك

(*) مجمع الأمثال للميدانى ــ ج ٢ ــ ص ٢٢٩ : ٢٣٠ ــ تحقيق / محمد محيى الدين عبدالحميد ــ م . السنة المحمدية ١٩٥٥ م .

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٣٠ .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٦٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ــ ص ١٦٢ : ١٦٣ .

نادمت يوماً في ظلالك فتية   وسموا الملائك في جلال ملوك
ينسون (حساناً) عصابة (جلق) (*)   حتى يكاد (بجلق) يفديك

وتجب الاشارة هنا الى أن شوقى تناول الأحداث الوطنية والسياسية فى العالم العربى بنفس الأسنوب الذى تناول به هذه الأحداث فى مصر ، فلم يعمد الى تسجيل الأحداث التى تثير عليه غضب السلطان ، ولم يتعرض للأحداث التى تتصل بالاستعمار البريطانى بخاصة كما حدث فى قصيدته السابقة (نكبة بيروت) وقصائد أخرى .

وهذه اشارات واضحة الى قول حسان فى مدح الغساسنة :

لله در عصابة نادمتهم   يوماً بجلق فى الزمان الأول (١)

وكرر شوقى ذكر حسان وذكر معه أبا نواس الحسن بن هانىء فى قصيدته التى هنأ فيها الخليفة العثمانى بنجاته من محاولة اغتياله سنة ١٩٠٥ م ، قال :

ملكت ، أمير المؤمنين ، ابن هانىء   بفضل ، له الألباب ممتلكات (٢)
ومازلت حسان المقام ، ولم تزل   تلينى ، وتسرى منك لى ، النفحات

فشوقى يرى مقامه من الخليفة العثمانى مقام حسان من رسول الله (ص) فى مدحه والدفاع عنه . أما أبو نواس الحسن بن هانىء فقد تأثر شوقى به تأثراً عميقاً ، عارضه فى بعض قصائده ، ونسج على منواله فى خمرياته وسمى بيته (كرمة ابن هانىء) .

ويتكرر الموقف السابق مع شوقى عندما يذكر الشاعر أبا تمام ويقرن ذكره بالاشارة الى شعره المبدع فى مدح الخليفة العباسى (ابن اسحاق المعتصم بالله) وهو شعر كان يهز الخليفة وخاصة قصيدة (عمورية) التى تعتبر من أرقى ما قيل من شعره ، الى جانب ما تحويه من آثار مختلفة للثقافات الاسلامية والعربية واليونانية . يقول أبو تمام من قصيدة (عمورية) :

(*) (جلق) : موضع فى سورية اختلف فى تعيين موقعه من المرجح أن يكون (كسوه) فى جنوبى دمشق استوطنه الغساسنة ، وتردد إليه يزيد بن معاوية الخليفة الأموى .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ـ شرح البرقوقى سنة ١٩٢٩ م .

(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٩٧ .

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت   له المنية بين السمر والقضب [1]
تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتقب فى الله مرتغب [*]

صياغة أبو تمام هذه تتناسب الى حد كبير مع طبيعة الموقف النفسى للنص بصرف النظر عما يشوبها من التكلف نتيجة للتلاعب بحروف الجر .

ويقول شوقى :

ان القلوب ، وأنت ملء صميمها   بعثت تهانينا من الأعماق [2]
وأنا الفتى (الطائى) [*] فيك ، وهذه   كلمى هززت بها أبا اسحاق [*]

كرر شوقى الموقف ، فقد رأى منتهى فخره أن يكون هو أبا تمام ، وأن يجعل من ممدوحه الخليفة العباسى المعتصم بالله، كما فعل عندما جعل مقامه من الخليفة العثمانى كمقام حسان من الرسول (ص) .

وشوقى كغيره من شعراء الاحياء ، أمعن فى تقليد القدماء ، ومعارضتهم ولكنه لم يصرح بتعمد إلمعارضة شأنه شأن شعراء الاحياء ؛ لكن المتأمل لشعره يكشف عن هذا القصد الذى آثر الشاعر اخفاءه، وبخاصة فى تأثر المعانى والصور وتسرب بعض الصيغ جرسا ومعنى وفى طرق الأغراض المختلفة . غير أن عدم التصريح بتعمد المعارضة يعفى الشاعر من التزام تقاليدها المعروفة : ولو نظرنا الى دواوين شعراء الاحياء مثل حافظ والبارودى وعبدالمطلب الى جانب شوقى ، نجد أنهم تعمدوا المعارضة مصرحين وغير مصرحين بذلك .

وقد أصبح شعر المعارضات يشغل قسماً كبيراً من ديوان شوقى، ولم ينحصر هذا الشعر فى فترة معينة من حياته ، ولا هو وليد ظروف معينة ، انما تولد عن شعور دائم وفى مناسبات متعددة وفى فترات مختلفة منحياته ، ولم يتخذ المعارضة أسلوباً لامتحان قدرته على محاكاة القدماء . وقد يعود هذا الى أن فكرة المعارضات قد استهوت شوقى فأسرف

---

(١) ديوان أبو تمام — المجلد الأول — ص ٥٨ .
(*) مرتغب : أى يرغب فيما يقربه الى الله تعالى .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٧٩ .
(*) الطائى : أبوتمام الشاعر .
(*) أبا اسحاق : الخليفة المعتصم بالله العباسى .

فيها طيلة حياته من ناحية ومن ناحية أخرى فان ميزة شعراء الاحياء ومنهم شوقى ، تبدو فى نظرة الى التراث غير متميزة ، فلم يقتصروا على عصر دون آخر ، ولم يستأثروا بلون دون لون ، فقد حاولوا أن يتأثروا بكل ما جد فى كل عصر وفى كل بيئة بالاضافة الى تأثرهم بأساليب وموضوعات الشعر القديم ، فلم يحافظوا على نهج معين ، ولم يثوروا على طريقة ويستبدلوها بأخرى ، ولم يختاروا لوناً موسيقياً دون آخر ، فقد كانت الرغبة فى التقليد والتفوق معاً . ورغم كون المعارضة سنة أدبية اتبعها العرب منذ القديم ، ولكن حظها من العناية اكتفى فى القديم بالاشارة الى أشهر نماذجها خاصة فى كتاب (الموازنة) [١] أو (النقائض) [٢] .

ومن معارضات شوقى المشهورة قصيدة (نهج البردة) التى نظمها سنة ١٩٠٩ م ، والتى عارض فيها (بردة البوصيرى) .

أما غرض القصيدتين فهو دينى،ومصدر الالهام فيهما واحد وهو الدين ، فمن مدح الرسول (ص) الى الحديث عن الإسراء والمعراج ، الى المقارنة بين الاسلام والمسيحية ، الى غير ذلك من المواضيع المشتركة . وقد سبق الحديث عنها بالتفصيل فى موضوع المدائح النبوية [٣] .

ومن معارضات شوقى التى تعتبر من أندلسياته قصيدته السينية التى احتذى فيها سينية البحترى ، يقول شوقى : « كان (البحترى) رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال ، وسميرى فى الرحال ، والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فانه أبلغ من حلى الأثر وحيى الحجر ، ونشر الخير ، وحشر العبر ، ومن قام فى مأتم على الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغرر ، عطف على الجعفرى [٥] حين تحمل عنه الملا ، وعطل عنه الحلى ، ووكل بعد (المتوكل) للبلى ، فرفع قواعده فى السير ، وبنى ركنه فى الخبر ، وجمع معالمه فى الفكر ، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وان خلا البصر وتكفل بعد ذلك (لكسرى) بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه ، وسينيته المشهورة فى وصفه ، ليست دونه وتحت (كسرى) فى رصه ورصفه » .

---

(١) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ـــ الآمدى ـــ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـــ ١٩٤٤ م ـــ القاهرة .
(٢) نقائض جرير والفرزدق ـــ أبى عبيدة ـــ ج ٣ ـــ ط ليدن ١٩٠٥ م .
(٣) أنظر ص ٣٢٧ من هذا البحث .
(٥) الجعفرى : القصر .

قال صاحب الفتح القسي في الفتح القدسي بعد كلام : « فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحترى في وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعفاته ، وعفرت شرفاته ، وتجدوا سينية البحترى قد بقي بها (كسرى) في ديوانه ، أضعاف ما بقي شخصه في ايوانه »[1] .

ويقول شوقي : هذه السينية وتقول في مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدا كل جبس[2]

فكنت كلما وقفت بحجر ، أو بأثر ، تمثلت بأبياتها ، واسترحت من مواثل العبر الى آياتها ، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحترى ايوان كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس[3]

ويقول شوقي : ثم جعلت أروض القول على هذا الروى ، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الريضة وأنا أعرضها على القراء راجياً أن يلحظوها بعين الرضا ، ويسحبوا على عيوبها ذيل الاغضاء ، وهذه هي :

اختلاف النهار والليل ينسي   اذكرا لي الصبا ، وأيام أنسي[4]

وشوقي اعترف بنفسه في كلماته الأخيرة بالقافية المهلهلة ويعزز ذلك بطلبه للناس الاغضاء عن كل عيوبها .

أما الغرض في القصيدتين السينيتين ، ففي قصيدة (البحترى) هو الوقوف على أطلال ايوان كسرى بالمدائن ، ووصف هذه الأطلال وصفاً جدد به ذكرها ، أما قصيدة شوقي فغرضها ذكر آثار الأندلس من خلال زيارته لمدنها أثناء نفيه ما بين ١٩١٥ ــ ١٩١٩ م والاشادة بمجد العرب بالأندلس وبما خلفوه من آثار تبهر الناظرين .

---

(١) ديوان شوقي ــ ج ٢ ــ ص ٤٤ : ٤٥ ــ مقدمة القصيدة .
(٢) ديوان البحترى ــ ص ٣٠ .
(٣) ديوان شوقي ــ ج ٢ ــ ص ٤٥ .
(٤) نفس المرجع السابق .

والبحترى يبدأ قصيدته بمقدمة نفسية شبه تقليدية ـ تتماسك بها القصيدة ـ أوضح فيها شعوره بنفسه ، واعتزازه بها ، وترفعه عن كل ما يدنس ، وصموده أمام هزات الدهر ، وثورته على الزمان وأسفه على رضاه بالاقامة فى العراق وتركه الشام وطنه .. حيث رأى أن يرحل الى مدائن كسرى عساه يجد فيها مايزيل همه . يقول

أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس [1]

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ... ولقد تذكر الخطوب وتنسى

وبذلك يخلص الشاعر الى وصف القصر الذى به ايوان كسرى ، فصوره عالياً علواً يضعف العين أن تتبين مدى ارتفاعه ، وبين ما كان لأصحابه من سلطان واسع بعيد المدى يقول البحترى :

وهم خافضون فى ظل عال ... مشرف ، يحسر العيون ويخسى [2]

مغلق بابه على جبل العنبق ... الى دارتى خلاط وحكس

وهنا يعترف بأن الحضارة الفارسية لا يساويها ما كان للعرب فى صحرائهم من أطلال دراسة ، ولا يصل إليها ما كان لقبائل العرب من أعمال . يقول :

حلل لم تكن كأطلال سعدى ... فى قفار من البسابس ملس [3]

ومساع لولا المحاباة منى ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

ومن هذا يتبين أن « البحترى وقف على آثار قوم غير قومه ، فأشاد بذكرهم ونوه بمجدهم ، وليته وقف عند التمدح بحضارة الفرس ، بل أنه نفذ من ذلك الى السخرية من بداوة العرب وخشونة عيشهم وزثاثة مبانيهم فى شعوبية ذميمة ما كنا لنستغربها من شاعر مثل اسماعيل بن يسار أو بشار بن برد ، ولكن لا ينطلق بها لسان عربى مثل البحترى» [4] .

أما شوقى فهو يبدأ قصيدته بمقدمة عن الوطن (مصر) فوطنه لم يغب عن خياله لأنه بعيد عنه فهو يذكر معالمه وحضارته ويعبر عن حنينه وشوقه لوطنه الحبيب ، ويستهل

---

(١) ديوان البحترى ـ ص ١١٥٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ـ ص ١١٥٨ .

(٣) ديوان البحترى ـ ص ١١٦٠ .

(٤) مقالة بعنوان (الأندلس فى شعر شوقى ونثره) ـ د . محمود على مكى ـ مجلة فصول ـ المجلد الثالث ـ العدد الأول أكتوبر ١٩٨٢ .

القصيدة بهذه الحكمة البالغة :

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكرا لى الصبا وأيام أنسى (١)

وهذه الحكمة تنبىء عن رجل خبير بطبائع الأمور ، على سنة المتنبى فى التدسس الى طبائع الأشياء ، فالنفس البشرية قد دأبت على النسيان مع قدم العهد وطول الزمن ، وشوقى يطلب الى الناس أو الى نفسه أو صاحبيه على سنة امرىء القيس ، يطلب اليهم أن يذكراه بأيام الصبا الجميل ، لأن الصبا انما يوحى دائماً بأجمل ما فى العمر . وهذه الأيام الجميلة أنفقها شوقى فى مصر قبل أن يأتى لبلاد الأندلس منفياً من الانجليز المستعمرين ، وشوقى أول من يحتفل بحب مصر فهو يذكرها دائماً . يقول :

وسلا مصر : هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى (٢)

كلما مرت الليالى عليه ... رق . والعهد فى الليالى تقسى

مستطار إذا البواخر رنت ... أول الليل ، أو عوت بعد جرس

... ...

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهفا بالفؤاد فى سلسبيل ... ظمأ للسواد من (عين شمس) (٥)

... ...

وكأنى أرى الجزيرة أيكا ... نغمت طيره بأرخم جرس

هى (بلقيس) فى الخمائل صرح ... من عباب وصاحب غير نكس

... ...

وأرى النيل (كالعقيق) بواديه ، ... وان كان كوثر المتحسى

وأرى (الجيزة) الحزينة ثكلى ... لم تفق بعد من مناحة (رمسى)

وكأن الأهرام ميزان فرعو ... ن بيوم على الجبابر نحس

و (رهين الرمال) أفطس ، الا ... انه صنع جنة غير فطس

تتجلى حقيقة الناس فيه ... سبع الخلق فى أسارير انسى

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق — ص ٤٦ .

(٥) عين شمس : منطقة بالقاهرة .

لعب الدهر فى ثراه صبيا   والليالى كواعبا غير عنس

...   .

حكمت فى القرون (خوفو) و (دارا)   وعفت (وائلا) وألوت (بعبس)

يبدأ شوقى مقطوعته بهذا الجناس (وسلا مصر هل سلا القلب عنها) وبهذا الاستفهام الذى خرج عن معناه الى النفى والانكار فيما يقول البلاغيون ؛كأنما جاء هذا الاستفهام مدخلا الى الوفاء بحق مصر . ومهما يكن من انشغال الشاعر عن وطنه حتى ولو (بالجنة) فحب مصر يملأ عليه قلبه . وهذا مثل يحتذى على الوطنية وحب الوطن . وفى لوحة شوقى هذه نجد معالم الطبيعة المصرية فى بعض أرجائها حيث الجزيرة بأشجارها ونيلها . والجيزة بجلالها وصمتها وسواقيها ، ونخيلها . والجزيرة بمصر وقد أحاطت بها مياه النيل كأنها (بلقيس) ملكة سبأ لما ذهبت الى سليمان (النبى) عليه السلام ، دخلت عليه صرحا ممردا من قوارير ومن تحته الماء . قال تعالى : « قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجه . قال انه صرح ممرد من قوارير» [1] .

أما الشبه فهو بعيد ، تشبيه النيل بسليمان صاحب بلقيس (صاحب غير نكس) وتشبيه الجزيرة (ببلقيس) وكما ذكرنا هو تشبيه بعيد ، ولكنه يوحى إلينا بالشبه على غير القياس .

والى جانب الطبيعة المصرية ووصفها نلاحظ معالم التاريخ فى لوحة شوقى حيث الأهرام ، وأبو الهول يشرفان من على منطقة الجيزة ، يحملان عراقة التاريخ ، وأصالة الماضى التليد ، انها لوحة ناطقة استطاع شوقى فيها مزج الصورة الطبيعية بالصورة التاريخية كما يفعل فى مزاوجته بين الدين والتاريخ ، أو ليس هو القائل « ان الشعر ابن للتاريخ والطبيعة» .

فالبحترى تذكره الخطوب ، وشوقى ينسيه اختلاف النهار والليل ، وإذا كانت ثورة البحترى على بعده عن وطنه قد وقفت به عند حد اعلانها ، فلم يحدثنا عن هذا الوطن قليلا ولا كثيرا ، فان شوقى يستطرد فى حديثه عن وطنه .

---

(١) قرآن كريم ـــ سورة النمل (آية ٤٤) .

ويعود البحترى ليقف عند آثار كسرى يستلهمها ، فيصف هذا الايوان الذى وقف متجلداً أمام الخطوب يعينه على ذلك ماضيه الزاهر المجيد ، ويعزز البحترى اعجابه بسؤال هل هذا الايوان من صنع الأنس ليسكنه الجن ، ولذلك فهو عال فسيح ، أم هو من صنع الجن ليقيم فيه الأنس ، ولذلك كان بناء شامخاً ؟!

يقول البحترى :

وكأن الايوان من عجب الصنعة ... جوب فى جنب أرعن جلس [1]
يتظنى من الكآبة ان يبدو ... لعينى مصبح أو مسى
مزعجا بالفراق عن انس الف ... عز ، أو مرهقا بتطليق عرس
... ...
لم يعبه ان بز من بسط ... الديباج واستل من دستور الدمقس
مشمخر تعلو له شرفات ... رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
... ...
ليس يدرى : أصنع انس لجن ... سكنوه ، أم صنع جن لانس

والبحترى يلتمس الدقة فى التصوير فهو عندما وصف صورة معركة دارت بين الفرس والروم قرب مدينة أنطاكية صورها بريشة الرسام البارع وحتى لون ثوب كسرى وجواده رسمها بلوحته هذه فى أبيات مضت فى سينيته .

أما شوقى فوقف عند حوادث الزمان يستهلمها ، فهو يرى دولا تقوم وأخرى تسقط ، فابتدأ حديثه عن الأندلس بعد مقدمته الطويلة عن مصر بممهد بالحديث عن (الأندلس) عن دولة بنى مروان ، فهناك ملوك ينهضون بالملك ثم لا تلبث شمسهم أن تتوارى ، ويبدأ بسؤاله على طريقة البحترى عن الممالك إذ يقول :

أين مروان : فى المشارق عرش ... أموى وفى المغارب كرسى [2]
سقمت شمسهم ، فرد عليها ... نورها كل ثاقب الرأى نطس

---

(١) ديوان البحترى — ص ١١٦٢ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٨ .

في هذين البيتين يتضح لنا « كيف أدرك الاعياء قوافي شوقي فأدى به الى التكلف والاعتساف ، كما نرى في المقابلة بين عرش المشارق وكرسي المغارب» [1] .

وتبدو مهارة البحتري وتفننه في محاولته نقل الأثر الذي أحس به عندما وقف أمام آثار الفرس فيلجأ الى الخيال ليكمل به الصورة حتى تصبح واضحة ، فهذا «الجرماز» قد صار مقفرا مهجورا ، يوحي الى النفس بالوحشة التي تملؤها عند رؤية القبور ، وان في هذا القصر من العجائب ما يدل على عظمة منشئيه ، ومن ذلك صورة أنطاكية . ويمضي البحتري في خياله فيرى الملك جالساً بين حاشيته والقصر يموج بمن فيه من فتيات يملأنه بالغناء ، أما اليوم فقد انقضى كل شيء . ولايبخل البحتري بدموعه يذرفها على الرغم من أنه لا صلة له بالقصر ولا بأصحابه ، ولكنه يحفظ لهم اليد التي أسدوها الى قومه . يقول :

فكان الجرماز من عدم الانس ... واخلاله بنية رمس [2]
لو تراه علمت ان الليالي ... جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك من عجائب قوم ... لا يشاب البيان فيهم بلبس

... ...

وكأن الوفود ضاحين حسرى ... من وقف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقا ... صير يرجعن بين حو ولعس

... ...

عمرت للسرور دهرا فصارت ... للتعزي رباعهم والتأسي
فلها ان أعينها بدموع ... موقفات على الصبابة حبس

وشوقي يسير على نهج البحتري ، فهو يصف الأثر في حاضره ، ويمضي به الخيال الى الماضي فيصف ما كان له من أبهة وجلال . زار شوقي قرطبة فراعه ما آل اليه أمر تلك العاصمة القديمة ، فقد انتقص الدهر أطرافها ، إذ أصبحت قرية صغيرة بعد أن كانت هي المدينة المتحكمة في مصير الغرب الاسلامي والمسيحي على السواء أيام عبد الرحمن الناصر . يقول :

---

(١) مقالة بعنوان (الأندلس في شعر شوقي ونثره) — د . محمود علي مكي — مجلة فصول — المجلد الثالث — العدد الأول — أكتوبر ١٩٨٢ .

(٢) ديوان البحتري — ص ١١٦٤ .

لـم يـرعـنـى سـوى ثـرى قـرطـبـى   لـمست فيـه عبـرة الـدهر خـمسى (١)

...   .

قـريـة لا تـعـد فـى الأرض ، كـانـت   تـمـسـك الأرض أن تـمـيـد وتـرسـى

غـشيـت سـاحـل الـمـحـيـط ، وغـطـت   لـجـة الـروم مـن شـراع وقـلـس

...   .

فـتـجـلـت لـى الـقـصـور ومـن فـيـهـا   مـن الـعـز فـى مـنـازل قـعـس

...   .

وكـأنـى بـلـغـت لـلـعـلـم بـيـتـا   فـيـه مـا لـلـعـقـول مـن كـل درس

قـدسـا فـى الـبـلاد شـرقـا وغـربـا   حـجـة الـقـوم مـن فـقـيـه وقـس

وكما تخيل البحترى قصور المدائن وأبهتها ، تخيل شوقى قصور قرطبة ، وقصور الخلفاء الأمويين ، وما كان فيها من بيوت للعلم التى يرتادها طلابه ، وكما ذكر البحترى الملك جالسا فى قصره بين الحاشية ذكر شوقى الأمير الناصر لدين الله ، وما كانت عليه قرطبة فى عصره من ازدهار . ويرسم شوقى صورة الأمير فى موكبه وهو ذاهب لصلاة الجمعة ويشبهها بصورة الملك عند البحترى . يقول :

وعـلـى الـجـمـعـة الـجـلالـة ، و (الـنـا   صر) (*) نور الخميس (*) تحت الدرفس (*) (٢)

يـنـزل الـتـاج عـن مـفـارق (دون) (*)   ويـحـلـى بـه جـبـيـن (الـبـرنـس)

وكما يعود البحترى الى يقظته فيرى الدار خلاء :

عـمـرت لـلـسـرور دهـرا فـصـارت   لـلـتـعـزى ربـاعـهـم والـتـأسـى (٣)

ويعود شوقى الى يقظته أيضاً على نهج البحترى فيجد الدار ما بها أنيس إذ يقول :

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٩ .

(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٩ .

(*) الناصر : أمير قرطبة الثامن ، أول خليفة أموى بالأندلس ٩٢٩ : ٩٦١ .

(*) الخميس : الجيش .

(*) الدرفس : العلم الكبير .

(*) دون : الشريف .

(٣) ديوان البحترى — ص ١١٧٠ .

مشت الحادثات فى غرف (الحمراء) مـشـى الـنـعـى فـى دار عـرس [1]
هـتـكـت عـزة الـحـجـاب ، وفـضـت سـدة الـبـاب مـن سـمـيـر وأنـس

وقد خص البحترى جزءاً من سينيته لوصف ايوان كسرى وعظمته ولوحاته الجدارية إذ يقول :

وأكـن الايـوان مـن عـجـب الـصـنـعـة جـوب فـى جـنـب أرعـن جـلـس [2]

أما شوقى فقد خص المسجد العتيق فى قرطبة بجزء من قصيدته ، ويحدثنا عن حاضره وقد تحول الى كنيسة ، ولكن هذا لا يثير شوقى بقدر ما يفرحه ، فهو تحول من محمد (ص) الى أخيه عيسى (عليه السلام) ، وشوقى ينادى بفكرة الأخوة بين محمد (ص) وعيسى (ع) فى قصيدة معارضة أخرى وهى (نهج البردة) وقد أوردناها فى باب المدائح النبوية إذ يقول :

أخـوك عـيـسـي دعـا مـيـتـا فـقـام لـه وأنـت أحـيـيـت أجـيـالا مـن الـرمـم [3]

وشوقى عندما يصف المسجد الجامع يلجأ الى تشبيه هذا المسجد بجبلى ثهلان وقدس وذلك فى مدى الشموخ والارتفاع إذ يقول :

ورقـيـق مـن الـبـيـوت عـتـيـق جـاوز الألـف غـيـر مـذمـوم حـرس [4]
أثـر مـن (مـحـمـد) ، وتـراث صـار (لـلـروح) ذى الـولاء الأمـس
بـلـغ الـنـجـم ذروتـه ، وتـنـاهـى بين (ثهلان) (*) فى الأساس و (قدس) (*)

وكما يتذكر البحترى ماضى ايوان كسرى أثناء وصفه ، يتذكر شوقى المسجد فى وصفه له ، عندما كانت سواريه تتزين لاستقبال أحد النوابغ فى العلم والأدب ، وعندما كانت تستعد مبتهجة لاقامة الصلوات الخمس . يقول :

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٥١ .
(٢) ديوان البحترى ــ ص ١١٧١ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٤٩ : ٥٠ .
(٤) نفس المرجع السابق ــ ج ٢ ــ ص ٤٩ : ٥٠ .
(*) ثهلان : جبل بالعالية .
(*) قدس : جبل عظيم بنجد .

فـتـرة الـدهـر قـد كـست سـطـريـهـا   ما اكتسى الهدب من فتور ونعس [(١)]
ويـحـهـا ! كـم تـزيـنـت لـعـلـيـم   واحـد الـدهـر ، واسـتـعـدت لـخـمـس

ثم يتحدث شوقى عن المنبر فيذكر ان فصحاء الخطباء يعتلى هذا المنبر من أمثال منذر بن سعيد قاضى الجماعة فى قرطبة على أيام الناصر ، وعن مكان المصحف العثمانى الذى كان أهالى الأندلس يعتزون بوجوده فى مسجدهم . يقول :

مـنـبـر تـحـت مـنـذر [(*)] مـن جـلال   لم يزل يكتسيه ، أو تحت (قس) [(٢)]
ومـكـان الـكـتـاب يـغـريـك ريـا   ورده غـائـبـا ، فـتـدنـو لـلـمـس
صنعة (الداخل) [(*)] المبارك فى الغر   ب ، وآل لـه مـيـامـن شـمـس

وشوقى حين يتحدث عن غرناطة يخص بذكره قصر الحمراء وهو مقر حكم بنى الأحمر ملوك غرناطة ، فيذكرها من جميع نواحيها وموقعها الذى يشاهده من قمم جبال (شيرى Sirra) ثم يمضى الى وصف غرف قصر الحمراء والى من سكنوا هذا القصر من امراء وأميرات ، وقد سبق ان ذكرت عن وصف قصر الحمراء وأعمدة غرناطة بالتفصيل فى موضع آخر من هذا البحث [(٣)] .

والبحترى ختم قصيدته بشكر الفرس على ما كانوا قد أسدوه الى قومه فى اليمن من سابق اليد ، إذ يقول :

أيـدوا مـلـكـنـا وشـدوا قـواه   بـكـمـاة تـحـت الـسـنـور حـمـس [(٤)]
وأغـانـوا عـلـى كـتـائـب أريـا   ط بـطـعـن عـلـى الـنـحـور ودعـس
وأرانـى مـن بـعـد أكـلـف بـالأشـراف   طـرآ مـن كـل سـنـخ واس

أما شوقى فختم قصيدته بشكر الأندلس على ما قدمت من كرم الضيافة له ولابنيه .

يقول شوقى :

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٥٠ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(*) منذر : هو منذر بن سعيد قاضى الجماعة فى قرطبة .
(*) قس : هو قس بن ساعدة الايادى خطيب بالجاهلية كان يعظ الناس فى كل سوق عكاظ .
(*) الداخل : هو عبد الرحيم بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية بالأندلس .
(٣) أنظر ص ٣٠١ من هذا البحث .
(٤) ديوان البحترى — ص ١١٧٢ .

يــا ديــارا نــزلــت كــالــخــلــد ظــلا　　وجــنــى دنــيــا ، وسـلــســال أنــس [1]

...　　...　　...　　...　　...　　...　　...　　...

كـــســـيـــت أفـــرخـــى بـــظـــلـــك ريـــشـــا　　وربـــا فـــى ربـــاك واشـــتـــد غـــرســـى

هم بـنـو مـصـر ، لا الـجـمـيـل لـديـهـم　　بـمـضـاع ، ولا الـصـنـيـع بـمـنـسـى

...　　...　　...　　...　　...　　...　　...　　...

حـسـبـتـهـم هـذه الـطـلـول عـظـات　　مـن جـديـد عـلـى الـدهـور ودرس

وإذا فـاتـك الـتـفـات الـى الـمـا　　ضـى فـقـد غـاب عـنـد وجـه الـتـأسـى

ومما نلاحظ في سينية شوقى أنه يذكر اسم (البحترى) فيها شأنه في بعض معارضاته عندما يذكر أسماء أصحابها ، يقول :

وعـظ (الـبـحـتـرى) ايـوان (كـسـرى)　　وشفتنى القصور من (عبد شمس) [2]

مما سبق لاحظنا تأثر شوقى بالبحترى في الموضوع والأفكار والمعانى ويتجاوز ذلك الى التأثر بالألفاظ والصياغة ، ولو تأملنا مفردات شوقى فسوف نلاحظ مفردات الشاعر العباسى البحترى أمامنا ، و قصيدة البحترى كانت ستة وخمسين بيتاً في حين أن شوقى أطال قصيدته لتزيد عن المئة بعشرة أبيات ، وهذا مما جعلها متكلفة وقلقة القوافى والشيء المتعارف عليه هو أن يكون السين هذا الحرف ذا الجوس الهامس يعطى موسيقية أكثر في الشعر ، ولكن شوقى بتكلفه هذا قد قضى على هذه الموسيقية .

ولو تتبعنا معظم معارضات شوقى ودرسناها درساً فاحصاً ، وإذا سلم لنا باستخلاص النتائج يتبين لنا أن شوقى في معارضاته يعيش التراكيب العربية وأساليبها ، يتمثلها تمثلا ، ويحسها احساساً ، وكثيراً ما تساقطت فى قصائده ،بل أن معظم قصائده تعمر بالمقاطع والجمل والصور الجاهزة التى مات العديد منها . والفرق بين معارضاته وغير معارضاته من شعره ، ان المتلقى يحس بالأنغام الجاهزة الأولى ويتذكرها من طول ألفته لها /و كان شوقى نفسه يحس رنينها ويحكيه ، وما عدا ذلك فقد كانت ذاكرته تمتلىء بالوحدات القائمة بذاتها ، وتختزن المواد التى احتفظت بها من جملة القراءات ،

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٥٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ــ ص ٤٨ .

وعندها يبدأ الشاعر ينظم ، فان ذهنه سرعان ما يتحرك ليدرك أدوات معرفته الجاهزة سلفاً ، فاذا ما تم له ذلك عرضها على القلب ثم طرحها على اللسان فتكون خلقاً هى القصيدة الشوقية التى يمكن أن ننسب بعضها الى الشاعر وننسب الجزء الآخر منها الى غيره ممن اقتبس منهم .

ومن مطالع بعض معارضات شوقى نأتى بأمثلة قليلة لمجرد ذكرها :

يقول شوقى من همزيته النبوية التى يعارض فيها البوصيرى فى همزيته :

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء (١)

ويقول البوصيرى فى همزيته التى مدح بها الرسول (ص) :

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء(٢)

ويقول شوقى معارضاً الحصرى وغرضها النسيب :

مضناك جفاء مرقده   وبكاه ورحم عوده (٣)

أما الحصرى فيقول :

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده (٤)

ويعارض شوقى ابن زيدون فى نونيته بقوله من قصيدة غرضها الرئيسى الحنين للوطن وذلك بعد نفيه للأندلس :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا   نشجى لواديك أم نأسى لوادينا (٥)

ويشير شوقى الى ابن زيدون فى بيته الى جانب اشاراته له فى مطلع القصيدة :

فان بك الجنس يا ابن الطلح فرقنا   ان المصائب يجمعن المصابينا (٦)

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤ .
(٢) ديوان البوصيرى — ص ٤٩ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٢٢ .
(٤) أبو الحسن الحصرى القيروانى — ص ١٤٣ — لمحمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى — تونس ١٩٦٣ م .
(٥) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٠٤ .
(٦) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٠٤ .

أما ابن زيدون فمطلع قصيدته هو :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا [(١)]

وقد عارض شوقى أبا تمام بقصيدة من قصائد المدح السياسى التاريخى بمناسبة انتصار الأتراك فى الحرب والسياسة حيث يقول :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب [(٢)]

أما أبو تمام فيقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب [(٣)]

ومن معارضات شوقى للمتنبى قصيدة شوقى التى قالها فى السياسة والتاريخ إذ يقول :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أين تضرب [(٤)]

أما المتنبى فقد قال قصيدته يمدح كافورا :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب [(٥)]

وقد رثى شوقى والدته بقصيدة عارض بها المتنبى وهو يرثى جدته يقول شوقى :

الى الله أشكو من عوادى النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى [(٦)]

أما المتنبى فيقول وهو يرثى جدته :

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما [(٧)]

ولشوقى قصيدة فى الفلسفة والتأمل عارض بها قصيدة الشاعر الفيلسوف (ابن سينا) يقول شوقى :

---

(١) ديوان اب زيدون ــ ص ٩ .
(٢) ديوانه شوقى ــ ج ١ ــ ص ٥٩ .
(٣) ديوان أبى تمام ــ ج ١ ــ ص ٧١ ــ شرح الخطيب التبريزى .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٤٢ .
(٥) ديوان المتنبى ــ ص ٤٦٦ .
(٦) ديوان شوقى ــ ج ٣ ــ ص ١٤٦ .
(٧) ديوان المتنبى ــ ص ١٧٤ .

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي ... هذى المحاسن ما خلقن لبرقع [(١)]

ومما تجدر الاشارة إليه هنا أن شوقي ذكر في قصيدته اسم (ابن سينا) صاحب القصيدة التي عارضها ، يقول :

ذهب (ابن سينا) ، لم يفز بك ساعة ... وتولت الحكماء ، لم تتمتع [(٢)]

أما ابن سينا فيقول في قصيدته :

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تدلل وتمنع [(٣)]

وهناك معارضات أخرى لشعراء آخرين مثل ابى العلاء الحصرى والشريف الرضى وأبي نواس وكلها تسير على نفس منهج القصائد التي ذكرناها .

وقد كان لشوقي جولات في تاريخ الأدب العربي ، اتصل من خلالها ببعض الكتب الشهيرة والتي تعتبر من المصادر والمراجع مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، هذا الكتاب الغني بعلمه الذي أمد شاعرنا بمعرفة واضحة عن معالم الحياة العربية وميادينها ، وأنماطها ، وعاداتها ، وشعرائها ، فهيأ له الاتصال بمصادر التاريخ الأدبي وبدواوين عدد من الشعراء ومختاراتهم الشعرية ، وهيأ له هذا الاتصال القدرة على رسم جو متكامل من الحياة العربية الجاهلية والأموية بجوانبها الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية والحربية ، وتجلى كل ذلك في مسرحيتي (مجنون ليلى) و (عنترة) وكانت هاتان المسرحيتان فتحاً كبيراً في الأدب العربي ، وقد أفاض الباحثون في الحديث عنهما ، من حيث البناء المسرحي ، والحوار ، والتوافق مع أحداث التاريخ ، والأسلوب الفني . وقد أورد شوقي ضيف كلامه عن مسرحيته (مجنون ليلى) قال : « هي أولى هذه المآسي العربية تأليفاً .. والمأساة في جملتها وتفاصيلها ترجع الى أساطير عربية عن مجنون ليلى .. لها أصول تاريخية نجدها مبثوثة في كتاب الأغاني» [(٤)] ، ثم يقول عن مسرحية (عنترة) : « ومن هذه القصة التي نجدها في

---

(١) ديوان شوقي — ج ٢ — ص ٦٠ .
(٢) نفس المصدر السابق — ص ٦١ .
(٣) (الروح الخالدة : نظرات في عينية الرئيس ابن سينا) — على نصوص الطاهر — الاردن سنة ١٩٦٠ م .
(٤) شاعر العصر الحديث — د . شوقي ضيف — ص ٢٢٧ .

الأغانى وفى كتب الأدب والتى تطورت فى صورة شعبية معروفة ، أخذ شوقى الاطار ووضع فيه أربعة فصول لمسرحيته» [1] .

والملاحظ أن شوقى فى معظم اقتباساته سواء فى الشعر أو النثر يدخل عليها هذا النفس الاسلامى نتيجة لتأثره بالمصادر الدينية وأهمها القرآن الكريم والسنة النبوية .

ولشوقى حكايات فى ديوانه تتميز بكونها نظمت فى فترة محدودة بين سنتى ١٨٩٢ ــ ١٨٩٣ م كما يقول محمد صبرى السربونى [2] ، وقد نظم هذه الحكايات ليجعلها معادلا موضوعياً للأوضاع التى تمر بها البلاد فى ذلك الوقت ، فما هى إلا رموز استخدمها شوقى ليعبر بها بطريقة غير مباشرة عن الوضع فى بلاده،وتلتزم الدفاع عن قضايا تعيشها البلاد سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية . وحكايات شوقى تأتى غالباً على شكل أراجيز ، بحرها الرجز وهى متنوعة القوافى خفيفة سهلة قصيرة المدى ، وتأخذ الصفة التعليمية غالباً،سهلة الحفظ . وتستمد حكايات شوقى روحها من القرآن الكريم كمصدر أساسى ، وكتب الأمثال مثل كتاب (الميدانى) [*] ، والحكم العربية ، وحكايات شوقى عليها مسحة اسلامية مباشرة ويعتبر هذا الاستخدام هو استخدام للتراث العربى بعامة .

أما أبطال حكايات شوقى فهم من الحيوانات بصفة عامة ، كالأسد ورمز به للقوة ، والذئب رمز الدهاء والتسلط ، والكلب رمز الأمانة والوفاء ، والثعلب رمز المراوعة ، والحمار وهو الغبى المستكين ، وكذلك استخدم من الطيور الهدهد والحمامة والطاووس ، والقبرة ، واليمامة ، والببغاء ، وغيرها مما ورد فى شعره [3] .

ولأعلام التاريخ الدينى من الأنبياء نصيب فى حكايات شوقى فالنبى سليمان والنبى نوح (عليهما السلام) كان لهما سلطان كبير على عالم الحيوان كما ورد ذلك فى القرآن الكريم . واستعمل شوقى ذلك المصدر القرآنى فصور هذه الأحداث ــ دون التقيد بالوقائع ــ بأسلوب رمزى ليجعله معادلا موضوعياً للأحداث التى تجرى فى البلاد ، وفى

(١) نفس المصدر السابق ــ ص ٢٤٢ .

(٢) الشوقيات المجهولة ــ ج ١ ــ ص ٢٢ .

(*) مجمع الأمثال : الميدانى .

(٣) ورد فى مواضع أخرى من شعر شوقى استخدامه لبعض الموروث الاسطورى كذكره (لبد) وهو نسر لقمان بن عادياء ورمز به للدهر ، وقد مر ذكر ذلك .

بعض الأحيان لم يتقيد شوقي بجنس الحيوانات التى تذكر مع النبى وانما يأخذ هذه الروح القرآنية التى طبعتها ليبرز بعض عناصرها مستفيداً منها فى حكاياته .

وقصة النبى نوح ترتبط فى الأذهان وبقوة بحادثة الطوفان كما وردت فى القرآن الكريم من حيث هى رمز للكارثة التى تحل بالانسان فتحمله على السعى ليستطيع العيش هو والأقوياء والضعفاء على حد سواء فى عالم الإخاء والسلام ، أما السفينة فهى الملجأ الأمين والرمز لعالم مثالى وقتى .وفى هذا امتحان لمدى صبر الانسان ، يقول شوقى :

لما أتم نوح السفينة — وحركتها القدرة المعينة [1]
جرى بها ما لا جرى ببالى — فما تعالى الموج كالجبال
حتى مشى الليث مع الحمار — وأخذ القط بأيدى الفار
... ... — ... ...
فذهبت سوابق الأحقاد — وظهر الأحباب فى الأعادى

وقد ورد ذكر الحمار فى مواضع متفرقة فى القرآن الكريم ، فهو موصوف بالجهل فى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ، ولم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» [2] . وهذا مما جعل شوقى يصفه بالسلبية .

وقد ورد فى القرآن الكريم تشبيه الموج بالجبال ، قال تعالى : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال» [3] .

ويكمل شوقى باقى الحكاية بقوله :

حتى إذا حطوا بسفح الجودى — وأيقنوا بعودة الوجود [4]
عادوا الى ما تقتضيه الشيمه — ورجعوا للحالة القديمة
فقس على ذلك أحوال البشر — ان شمل المحذور ، أو عم الخطر
بينا ترى العالم فى جهاد — إذ كلهم على الزمان العادى

أتى بهذه الأبيات ليوضح ان النفس البشرية طباعها لا تتغير،فمهما واجهت النفس البشرية من الأخطار فهى لاتخضع الا عاجزة،أما إذا استعادت قوتها فهى فى موقف

(١) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ١٥٩ .
(٢) قرآن كريم — سورة الجمعة (آية ٥٠) .
(٣) قرآن كريم — سورة هود (آية ٤٢) .
(٤) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ١٥٩ .

المتسلط الذى لا يرتهب من أى أمر عظيم ، وهذا هو سبب التطاحن والحروب المؤدية للفناء . وشوقى أراد بذلك الحكمة والموعظة للناس وحفظ الأخلاق الفاضلة والتحلى بها فأتى بحكاياته الرمزية ليقابل بها النماذج البشرية فى عصره .

أما حكايات شوقى والتى ورد فيها ذكر النبى (سليمان) عليه السلام مع الهدهد ومع الطاووس والحمامة ، فقد استخدمها شوقى لابراز عناصرها كرمز لما يريد التعبير عنه بغض النظر عن هذه الوقائع ، والنبى سليمان سخر الله له عالم الحيوان وخاصة الطير ، فسليمان وحده يفهم لغة الحيوان والطيور كلها ، يقول شوقى :

وقف الهدهد فى با ... ب سليمان بذله [1]
قال : يا مولاى ، كن لى ... عيشتى صارت مملة
مت من حبة بر ... أحدثت فى الصدر غلة
لا مياه النيل ترويها ، ... ولا أمواه دجله
وإذا دامت قليلا ... قتلتنى شر قتله

ويدخل شوقى الحكمة فى شعره لتقوية نسيجها الشعرى وليستخدمها للوعظ المباشر أو يستخدمها ليختم بها حكاياته وهو القائل :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة ... أو حكمة ، فهو تقطيع وأوزان [2]

والحكمة عند شعراء الإحياء أصل الشعر ومصدر قيمته ، ولقد آمن هؤلاء الشعراء أن الحكمة تصل بهم الى مرتبة الشعراء الأسلاف الكبار من أمثال أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء،وآمنوا بالدور الذى يلعبه شعر الحكمة فى حياة الأفراد ، إذ أن الحكمة تمثل جانباً هاماً من التراث الثقافى فى كل أمة . فهى تنطق بتجارب الانسان وتعكس قيم المجتمع فى أوجز لفظ وأبلغ معنى . ومن خصائصها أن ترد على لسان الكبير كثيراً من قبيل أن التجارب تثبت بطول الزمن ، لكن السماع قد يجعل الصغير يرددها أيضاً . ولم يخل طور من أطوار الأدب العربى من حكيم . ولم تكن الحكمة عند العرب أخص بالشعر منها بالنثر أو العكس . أما جذور الحكمة فتنتمى الى مصدرها الأول القرآن الكريم وقد خص بها الله

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ١٥٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ج ٢ ــ ص ١٠٣ .

تعالى أبو الحكماء لقمان ، قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة» [1] ولقد اتخذ شوقى القرآن الكريم ينبوعاً يستقى منه مادته الحكمية . والحكمة فى الشوقيات من أبرز مظاهر التعبير، إذ هى تعبر عن حقائق خالدة صالحة لكل زمان ومكان . وتأتى الحكمة عند شوقى فى بعض المواقف مرتبطة ارتباطاً كبيراً بحدود معانى السياق ولا نستطيع تمييزها عن باقى الكلام ، وفى مواقف أخرى تأتى منفصلة وبارزة نستطيع تمييزها .

وقد وردت الحكمة عند شوقى فى حكاياته على ألسنة بعض أبطالها فكانت منصهرة فيها ومتولدة فيها تولداً طبيعياً ، مثل قوله :

ايـــاك ان تـــغـــتـــر بـــالـــزهـــاد   كم تحت ثوب الزهد من صياد [2]

اتخذ من هذه العصفورة المتهورة التى وقعت فى شرك الصياد رمزاً ليحذر به الناس من المدعين بالزهد وهم يريدون شراً .

ولحكاية (الثعلب والديك) عند شوقى مغزى دلالى يريد به شوقى توظيف هذه الحكاية ليضرب للناس مثلا لنماذج الانسان المراوغ المحتال والانسان المسالم ، يقول :

بــرز الــثــعــلــب يــومــاً   فــى شــعــار الــواعــظــيــنــا [3]

... ...

ويــقــول : الــحــمــد لــلــه   الــه الــعــالــمــيــنــا

يــا عــبــاد الــلــه تــوبــوا   فــهــو كــهــف الــتــائــبــيــنــا

... ...

واطــلــبــوا الــديــك يــؤذن   لــصــلاة الــصــبــح فــيــنــا

فــأتــى الــديــك رســول   مــن أمــام الــنــاســكــيــنــا

... ...

فــأجــاب الــديــك : غــدراً   يــا أضــل الــمــهــتــديــنــا !

... ...

أنــهــم قــالــوا وخــيــر   الــقــول قــول الــعــارفــيــنــا

« مــخــطــىء مــن ظــن يــومــاً   أن لــلــثــعــلــب ديــنــا»

---

(١) قرآن كريم ـ سورة لقمان (آية ١٢) .

(٢) ديوان شوقى ـ ج ٤ ـ ص ١٢٥ .

(٣) ديوان شوقى ـ ج ٤ ـ ص ١٥٠ .

أورد هذه الحكاية واستعار لها هذه الألفاظ الدينية والقرآنية « الحمد لله ، عباد الله ، يؤذن للصلاة ، التائبينا ، الزاهدينا ، المهتدينا ...» ثم ختمها بالحكمة

« مخطىء من ظن يوماً   ان للثعلب دينا»

وشوقي يأتي لنا بصورة الثعلب المراوغ ثم صورة الديك الحذر ، ليحذر الناس من أن القوى يأكل الضعيف فى كل زمان ومكان ، فالحذر واجب فى كل المواقف ، وبهذه الحكاية الرمزية استطاع شوقي أن يستوعب مختلف جوانب المعنى المطروق والمراد التعبير عنه.

ويضرب شوقى مثلا لصورة الظالم الذى أخذ أموال الناس بالباطل مستخدماً حكاية الهدهد كرمز لذلك وخاتماً الحكاية بحكمة كما يفعل فى معظم حكاياته الأخرى ، يقول على لسان النبى (سليمان) عليه السلام وهو يدين الهدهد المشتكى من حبة ابتلعها :

ما أرى الحبة الا   سرقت من بيت نملة [1]
ان للظالم صدرا   يشتكى من غير علة !

وقد استطاع شوقى أن يخرج حكاياته اخراجاً مسرحياً حيث أقامها على حوار لايخلو من خفة وحيوية ليجعلها أكثر تأثيراً فى النفس لقربها من القارىء .

والحكمة طبعت شعر شوقى بطابع مميز خاص ، فهو لم يحى سنة فحسب وانما توغل فى الاتجاه بشكل برهن به عن أصالة بالغة الأثر . فلم تكن حكمه مخالفة فى اتجاهاتها لتعاليم الاسلام ، ولا لوجهة الأخلاق العربية ، انما كان دورها تصوير مفارقات مستمدة من الحياة ، لاسيما مايكشف منها عن نواحى الضعف الانسانى وهى تتكشف للأبصار ، فهى تدور حول النفاق الذى ينكشف عند امتحان ، وشر يتغلب على الخير ، وغرور يقود الى الخسران ، وموهبة لايحسن صاحبها استعمالها،وتملق منافق ، وفضول طماع ، ومهمل للنصيحة ، وكذاب ومتسرع وزاهد ومندفع ، يلاقون نتائج أعمالهم ، وجزاء الوفاء وعيوب الحسد والتعامى عن فضل الغير .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ١٥٣ .

ولعالم الحكمة وعالم الحيوان جذورهما القديمة إذ أنهما لم يأتيا من فراغ ، وذكر ذلك د . ابراهيم عبدالرحمن إذ يقول : « ويلعب عالم الحيوان فى صياغة الأمثال العربية فى العصر الجاهلى دوراً بارزاً ، وهو عالم غريب تنزل فيه الحيوانات فى هذا القصص الذى يرتبط بهذه الأمثال منازل العقلاء من أبناء البشر ، وتؤدى لذلك أدواراً غريبة تشبه ما يؤديه أذكى الناس وأبعدهم دهاء فى الحياة الانسانية» (١) .

ولابد لهذه العوالم من جذور قيمة « فمثل هذا القصص مأخوذ من أصول هندية ويونانية ، كانت تخلق من عالم الحيوان عالماً قائماً بذاته ، تصور فيه الحيوانات فى صورة البشر ، فيها الحكيم وفيها الأحمق ، وفيها المخاتل ، وفيها العاقل ، وهى قصص كانت تتخذ ، على نحو ما جاء فى كليلة ودمنة ، سبيلا الى الرمز الى أمور لا يراد الافصاح عنها ، كما أخذ يظهر فيما بعد فى كتاب اخوان الصفا» (٢) . وذكر الدكتور ابراهيم « ان موضوع القصص وجذوره قد تناوله بعض الدارسين (٣) ومنهم د . وديعة طـه نجم» (٤)

والحكمة لها جذورها القديمة « إذ كثر ذكر لقمان ، الذى يتخذه الجاهليون مثالا على الحكمة فى أمثال الجاهليين ، وهم ينسبون إليه ما لم يعرف قائله من الأمثال . ولقمان هذا غير لقمان الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم ، فأحدهما فيما يزعم بعض العلماء لقمان الحكيم ، والآخر لقمان عاد ، وقد كان لكل منهم أمثال وحكم » (٥)

ونلاحظ أن طابع الذاتية والقومية يطغى على بعض حكايات شوقى الشعرية ، أما آثار التراث الى جانب القرآن الكريم والحكم فيبدو فى كتاب (كليلة ودمنة) (٦) ، وهذا يفند الرأى القائل ان شوقى قد تأثر بحكايات (لافونتين) فقط . والذى نراه ان لافونتين نفسه غير برىء من تأثره ب (كليلة ودمنة) ، ذلك لأنها ترجمت عنها كليلة ودمنة الى معظم اللغات الأوربية الحديثة الحية ، إذ ترجمت عن النسخة التركية الى الفرنسية عام ١٧٢٤ م .

---

(١) الشعر الجاهلى قضاياه الفنيه والموضوعية ــ د . ابراهيم عبد الرحمن محمد ص ٤٦ ــ مكتبة الشباب ــ المنيرة ــ سنة ١٩٧٩ م .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ص ٤٦ : ٤٧ .
(٣) القصص والقصاص فى الأدب الاسلامى ــ د . وديعة طه نجم .
(٤) الشعر الجـاهلى قضاياه الفنية والموضوعية ــ ص ٤٦ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ص ٤٧ : ٤٨ .
(٦) كليلة ودمنة ــ عبد الله بن المقفع ــ تحقيق عبد الوهاب عزام ــ دار المعارف سنة ١٩٤١ م .

وفن شوقى صورة قومية مصرية لواقع معاصر فيه مجال مستمد من البلاط وشخصياته وأنماطه ، كشخصية المتملق ، ومجال للقصص الأخلاقى وفيها آثار موهبة فردية يسندها هذا الموروث الأدبى الذى ذكرناه .





الفصل الخامس

أثر الثقافة القرآنية والدينية

* تضمين آيات القرآن الكريم .
* التأثر بالقصص القرآنى
* صور دينية .
* المعجم الشعرى .

تضمين آيات القرآن الكريم :

لعل أهم التأثيرات الاسلامية التى تصادفنا فى شعر شوقى هو ما اقتبسه من آيات القرآن الكريم . فمثل هذه التأثيرات تعد صلة مباشرة بالمصدر الأول الذى استوعبه المسلمون وتأثروا به شعراء وغير شعراء . وقد أصبحت آيات القرآن الكريم مصدراً أساسياً نهل منه شوقى من باب الاستشهاد على المواقف التى يصفها فى شعره .

ولقد كان شوقى فى حاجة الى تدعيم اتجاهاته من خلال النص المقدس فاتخذ منه مجالا خصباً للاقتباس المباشر وغير المباشر لأداء تلك الوظيفة الجديدة فى الاقناع وفى مدح العثمانيين ، وأكثر ما كان هذا التأثير ظهوراً فى قصائده الموجهة الى البلاط العثمانى ، وقد حرص شوقى من جانبه أن يثبت للناس الذين وجهوا إليه الاتهام بأنه ليس على حظ من الثقافة الدينية أقل من غيره من الشعراء،هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد حرص على أن يثبت قدراته الفنية على استغلال هذا العنصر الاسلامى فى صميم فن الشعر . ولذلك تكثر الشواهد التى يمكن أن نلتمس فيها تلك التأثيرات عنده .

ويسيطر هذا الحس الدينى بصورة واضحة على خيال شوقى فنراه يندفع فى تصويره عندما شاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من ألمانيا،وكان فى الأستانة،وعز عليه أن يرى المسلمين فى أقطار الأرض قاعدين عن اعانة أسطول الدولة . يقول من خلال خطابه للخليفة (محمد رشاد) :

هز اللواء بعزك الاسلام ... وعنت لقائم سيفك الأيام [1]

... ...

بالله قد دان الجميع وشأنهم ... بالله ثم بعرشك ، استعصام

فهو يستوحى المعنى والصورة من الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » [2] .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٢٦ : ٢٢٧ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة آل عمران ــ آية ١٠٣ .

وينادى شوقى بضمان الكرامة والعدل وهو النظام الذى اختاره الله لعباده ، ويأمل شوقى ذلك فى الخلافة العثمانية ويرجو لها الدوام فى ظل السلطان غير المحدود . وبنفس اقتباس المعنى من القرآن الكريم يردد شوقى :

انى أرى الشورى التى اعتصموا بها   هى حبل ربك أو زمام نبيك (١)

فى البيت السابق استعارة وهى تشبه قول الشاعر أبى تمام :

وكذاك عتاب بن سعد أصبحوا   وهم زمام زماننا المتقلب (٢)

(فزمام زماننا) استعارة أيضاً ، استعارة الزمام للزمان وهو المقود وقد اعتبر الزمان كالدابة الجامحة بحاجة الى زمام .

ومرة أخرى يستغل هذا العنصر الدينى وهو يستصرخ السلطان العثمانى عبدالحميد من ظلم شريف مكة وأعوانه عندما أنزل الأذى بالحجاج، ويسجل للخلافة قداستها بقوله (خليفة الله) ويصور الجانب الالهى مستغلا تأثره بمعنى آيات القرآن الكريم يقول :

ضج الحجيج ، وضج البيت والحرم   واستصرخت ربها فى مكة الأمم (٣)
قد مسها فى حماك الضر ، فاقضى لها   خليفة الله ، أنت السيد الحكم

فهو يقتبس ذلك من معنى الآية الكريمة : « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه » (٤) .

ومع ايمانه بقداسة الخلافة ومدى شرعيتها الالهية لكنه فى ملحمته (كبار الحوادث فى وادى النيل) يقر مبدأ البقاء لله وحده وبأن كل شىء زائل يقول :

سنة الله فى الممالك من قبل   ومن بعد ، ما لنعمى بقاء (٥)

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٨ .
(٢) ديوان أبو تمام — ج ١ — ص ١٠٣ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١١ .
(٤) قرآن كريم — سورة الزمر — آية ٣٩ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٩ .

فهو يقتبس البيت من الآية الكريمة : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » [١] ، وأحياناً يبدو التأثر غير مباشر . ففى قصيدته (الهلال الأحمر) [٢] التى قالها بمناسبة الليلة التى أحيتها جماعة الهلال الأحمر المصرية لجمع التبرعات لاعانة المقاتلين فى طرابلس الغرب من الجيش العثمانى ضد الايطاليين الغزاة ، وكأنه يقرر فى هذه القصيدة اقتباسه من القرآن الكريم فى بعض أبياتها واستلهامه لآياته فى شعره فهى جزء من ثقافته وفكره إذ يقول :

يا قوم عثمان ـ والدنيا مداولة ـ تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا

وقد اقتبس شوقى ذلك من معنى الآية الكريمة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » [٣] .

ومن هذه الصور القرآنية يتردد فى شعره ذكر (الصراط) فهو عندما يصف مشاهد الطبيعة فى طريقه الى الاستانة قادماً من أوربا ، يقول :

وكأنما طوفان نوح ما نرى والفلك قد مسخت حثيث قطار [٤]
يجرى على مثل الصراط ، وتارة ما بين هاوية وجرف هارى

وواضح أنه يستلهم ما ورد فى (فاتحة الكتاب) كما هو واضح انه يستوحى المشهد الذى رسمته الآية الكريمة : « على شفا جرف هار فانهار به فى جهنم » [٥] . وقد ذكر طوفان نوح وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم كما سيلى ذكر ذلك فى فصل قادم .

ويردد شوقى ذكر (الصراط) فى قصيدته (جسر البسفور) التى اهتم بها السلطان عبدالحميد نتيجة لاعجابه بها يقول :

أمير المؤمنين ، رأيت جسرا أمر على الصراط ، ولا عليه [٦]

---

(١) قرآن كريم ـ سورة الفتح ـ آية ٢٣ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٤٥ .
(٣) قرآن كريم ـ سورة آل عمران ـ آية ١٤ .
(٤) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٣٨ .
(٥) قرآن كريم ـ سورة التوبة ـ آية ١٠٩ .
(٦) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ١١٠ .

لـه خـشـب يـجـوع الـسـوس فـيـه　　وتـمـضـى الـفـأر لا تـأوى إلـيـه

ويقول وهو يصف جيوش الترك :

جبال (ملونا) ، لا تخورى وتجزعى　　إذا مال رأس ، أو تضعضع منكب [1]

فما كنت الا السيف والنار مركبا　　وما كان يستعصى على الترك مركب

فكان صراط الحشر ، ما ثم ريبة　　وكانوا فريق الله ، ما ثم مذنب

ويقول شوقى مشبهاً السلطان عبدالحميد بالوابل ، فالمنهل فالصيب ، وهو وصف انسان بكثير من عناصر الطبيعة الجامدة أو الجمع بين عنصرى الطبيعة الجامد والمتحرك ، وهو هنا وصف رجلا ممدوحاً بقوته المادية مقتبساً ذلك من القرآن الكريم :

وان أمـيـر الـمـؤمـنـيـن لـوابـل　　من الغوث ، منهل على الخلق ، صيب [2]

رأى الفتنة الكبرى ، فوالى انهماكه　　فبادت ، وكانت جمرة تتلهب

وقد استوحى الشاعر هذا المعنى من قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » [3] ، ومن قوله تعالى : « فان لم يصبها وابل فطل » [4] .

وهكذا يصبح المصدر القرآنى ينبوعاً ثراً يستمد منه شوقى ألفاظه وصوره ومعانيه فى جميع أغراضه، بل تصبح المصادر الاسلامية المختلفة مثل الحديث والتاريخ لها دور بارز عنده كما ورد ذلك قبلا . وركز صوره فى بعض الأحيان حول المعانى الدينية التى لها علاقة بعالم الغيب مثل تصوير الجنة والنار والبعث ، وبأن النور مصدر الضياء فى الدنيا والآخرة لأنه حقيقة دينية روحية ، وقد ورد مشهد الجنة عند شوقى كثيراً فى المدح والرثاء والوصف وتعتبر عنده من عالم الغيبيات يقول فى رثاء (عمر لطفى) العالم القانونى المحب لبلاده والغيور على قوميته :

---

(١) ديوان شوقى – ج ١ – ص ٤٩ .
(٢) ديوان شوقى – ج ١ – ص ٤٧ .
(٣) قرآن كريم – سورة البقرة – آية ١٩ .
(٤) قرآن كريم – سورة البقرة – آية ٢٦٥ .

قفوا بالقبور نسائل عمر   متى كانت الأرض مثوى القمر ؟ (١)
سلوا الأرض : هل زينت للعليم ؟   وهل أرّجت كالجنان الحفر ؟
وهل قام (رضوان) من خلفها   يلاقي الرضى النقى الأبر ؟
فلو علم الجمع ممن مضى   تنحى له الجمع حتى عبر
الى جنة خلقت للكريم   ومن عرف الله ، أو من قدر

استخدم شوقى صورة تفيض هدوءاً وأمناً بعيدة عن مخاوف الحياة ومتاعبها ، فالجنة خلقت للكريم وهذا مستوحى من قوله تعالى : « وازلفت الجنة للمتقين » (٢) ، وقوله تعالى : « والذين أمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة » (٣) .

وقد أورد شوقى اسم (رضوان) باستخدام اللفظ للدلالة على الملك حارس الجنة ، إذ أن (رضوان) وهو الملاك لم يرد فى القرآن الكريم بالاسم ، وانما فى حديث الرسول والتفاسير ولكنه ذكر فى القرآن مُن الرضا ، قال تعالى : « خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله » (٤) .

ومن مشاهد الجنة لديه تشبيه دمشق بجنات (النعيم) وجنات الفردوس ، يقول :

ودمشق جنات النعيم ، وانما   ألفيت سدة عدنهن رباك (٥)
قسما لو انتمت الجداول والربا   لتهلل الفردوس ، ثم نماك

ومن تشبيهات شوقى بعض المدن بالجنة مثل دمشق كما ورد ذلك و (الاستانة) وغيرهما ، لكنه يعمد فى بعض تشبيهاته لذكر أوصاف الجنة المذكورة فى القرآن الكريم دون أن يذكر لفظ الجنة يقول :

وتحت جناتك الأزهار تجرى   وملء رباك أوراق وورق (٦)

---

(١) ديوان شوقى – ج ٣ – ص ٨٣ .
(٢) قرآن كريم – سورة الشعراء – آية ٩٠ .
(٣) قرآن كريم – سورة الشعراء – آية ٨٢ .
(٤) قرآن كريم – سورة آل عمران – آية ١٥ .
(٥) ديوان شوقى – ج ٢ – ص ١٨٠ .
(٦) ديوان شوقى – ج ٢ – ص ٧٤ .

ويعمد شوقى مرة أخرى الى أنه يتذكر لبن الجنان وخمرها عندما يرى ماء (زحلة) فى لبنان وهو يجرى،والمعروف عن زحلة أنها مدينة سياحية جميلة فى لبنان ، يقول :

فكرت فى لبن الجنان وخمرها ... لما رأيت الماء من طلاك [1]

فقد استوحى ذلك من معنى الآيات الكريمة من قوله تعالى « وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » [2] ، وقوله تعالى « وأنهار من خمر لذة للشاربين » [3] .

وفى رثاء (لأم المحسنين) والدة سمو الخديوى عباس باشا الثانى التى توفيت بالأستانة سنة ١٩٣١ م ، يشير شوقى الى أن الجنة مأوى الصابرين بقوله :

(العفيفى) عفاف وهدى ... (كالبقيع) الطهر ضم الطاهرين [4]
ادخلى الجنة من روضته ... ان فيها غرفة للصابرين

واستوحى ذلك من قوله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً » [5] .

ويشير شوقى الى (الحشر) فى معرض حديثه عن الخلافة يقول :

أما الخلافة فهى حائط بيتكم ... حتى يبين الحشر عن أهواله [6]

ويشبه شوقى الليل بالحشر فى قوله :

وليل كأن الحشر مطلع فجره ... تراءت دموعى فيه سابقة الفجر [7]

وترددت الصور المضيئة النيرة عند شوقى كثيراً وقد استوحاها من القرآن الكريم واتخذها مصدراً لموصوفاته،إذ هى تدل على حقيقة روحية دينية وأخرى أخلاقية إنسانية إذ

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٨٠ .
(٢) قرآن كريم — سورة محمد — آية ١٥ .
(٣) قرآن كريم — سورة محمد — آية ١٥ .
(٤) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٦٥ .
(٥) قرآن كريم — سورة الفرقان — آية ٧٥ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٠ .
(٧) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٢٦ .

أن هذه الحقائق تجتمع فى سجل القيم الالهية السامية والانسانية الخالدة ، فالنور هو الذكر والسنة يقول :

بـايـمـانـهـم نـوران : ذكـر وسـنـة   فـمـا بـالـهـم فـى حـالـك الـظـلـمـات [1]

فالذكر والسنة وردتا فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » [2] ، وقال تعالى : « سنة الله التى قد خلت من قبل » [3] .

ومن الصور التى تدل على الحقيقة الروحية السامية آى الفرقان وقد أرسلها الله ضياء يهدى به من يشاء وما هى الا سبيل سعادة الانسان ، قال شوقى :

تـلـك آى الـقـران ، أرسـلـهـا الـلـه   ضياء يهدى به من يشاء [4]

استوحى شوقى قوله هذا مما جاء فى قوله تعالى : « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » [5] .

وليس من شك فى أن القرآن الكريم كان مداده الأساسى فى تصور النور بهذه المعانى واخراجه فى هذه الصور ، ولئن كانت الصور قرآنية معروفة فانها ترجمت عن روح شوقى الاسلامية وثقافته الدينية .

والنور فى باب القيم الانسانية ، هو العلم والمعرفة كما يتضح عند شوقى هنا فى تحليل دور جامع الأزهر :

ومـشـى عـلـي يـبـس الـمـشـارق نـوره   وأضـاء أبـيـض لـجـهـا والأحـمـرا [6]

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٨ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة آل عمران ــ آية ٥٨ .
(٣) قرآن كريم ــ سورة الفتح ــ آية ٢٣ .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٠ .
(٥) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ آية ١٨٥ .
(٦) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٥١ .

والضياء والنور لدى شوقى آى (المسيح) عليه السلام ، فكما صور النور آى الفرقان قبل ذلك فهو هنا آى المسيح :

يقول شوقى :

وسرت آية المسيح ، كما يسرى   من الفجر فى الوجود الضياء [1]

ويبقى بعد ذلك نور الإله،وهو نور يضيىء للعالم أجمع وليس فوقه نور ، إذ يقول شوقى فى مهرجان (الهلال الأحمر) :

وتكاد من نور الإله حياله   تبيض أثناء (الهلال الأحمر) [2]

قال تعالى : « الله نور السموات والأرض » [3] .

وقد اعتبر شوقى البياض رمز الطهر ، قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود أخرى » [4] .

أما صور الظلماء ، الظلمات فوردت كخلفية لصور النيرة ولكنها أقل منها ، واستعملها فى بعض تشبيهاته   فشبه الأمواج بالظلماء بعد أن استعار لها صورة الجبال :

وجبالا موائجا فى جبال   تتدجى كأنها الظلماء [5]

وكثيراً ما صور الشاعر العلم بالنور والجهل بالظلمات كما فى قوله :

أخرجت هذا العقل من ظلماته   وهديته النور المبين سبيلا [6]

---

(١) (١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧١ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٥٠ .
(٣) قرآن كريم — سورة النور — آية ٣٥ .
(٤) قرآن كريم — سورة آل عمران — آية ١٠٦ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨٠ .

وبعيداً عن هذه الجوانب الغيبية نرى فى غير قليل من أبياته تأثراً مباشراً أحياناً وغير مباشر أحياناً أخرى ، بآيات القرآن الكريم.وفي بعض الأحيان يكون اقتباسه من القرآن بالجملة مثل قوله فى ذكر تمثال نهضة مصر :

وثـــاروا فـــجـــن جـــنـــون الـــريـــاح وزلـــزلـــت الأرض زلـــزالـــهـــا [١]

قال تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها » [٢] .

وقال فى رثاء (الأميرة) فاطمة اسماعيل وكان لها الفضل الأول فى تأسيس الجامعة المصرية وقد توفاها الله سنة ١٩٢٠ م :"وأنه من يعمل الخير أو الشر يره [٣]"

قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » [٤]

وحين وجه الشاعر رسالته الى الناشئة أتى بكل النصح والحكم وحمد الله على ذلك قال :

قل إذا خاطبت غير المسلمين : لـكـمـو ديـن رضـيـتـم ولـى ديـن [٥]

قال تعالى : « لكم دينكم ولى دين » [٦] .

وخطب غليوم عاهل المانيا خطبة فى سنة ١٩٠٦ م ، كان لها وقع عظيم وأحدثت أزمة كادت أن تنتهى الى حرب أوربية طاحنة ، وقد استثارت هذه الخطبة شاعرية شوقى ليردد بنفس قرآنى مقتبس بالجملة ليقوى كلامه :

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ١٨٤ .
(٢) قرآن كريم ـ سورة الزلزلة ـ آية ١ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ٣ ـ ص ٨٨ .
(٤) قرآن كريم ـ سورة الزلزلة ـ آية ٧ ، ٨ .
(٥) ديوان شوقى ـ ج ٤ ـ ص ٤٠ .
(٦) قرآن كريم ـ سورة الكافرون ـ آية ٦ .

جنى علينا عصبة جازفوا　　فحسبنا الله ، ونعم الوكيل ! [1]

قال تعالى : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » [2]

ومن اقتباساته يقول فى وصف آيات القرآن الكريم :

تلك آى الفرقان ، أرسلها الله　　ضياء يهدى به من يشاء [3]

قال تعالى : « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء » [4] .

ومن اقتباساته أيضاً قوله :

سبحانك اللهم خير معلم　　علمت بالقلم القرون الأولى [5]

قال تعالى : « الذى علم بالقلم » [6]

وفى موضع آخر أسند أحمد شوقى الفعل لغير الله تعالى عندما كتب قصيدته يهنىء لطفى باشا السيد بترجمته كتاب ارسططاليس :

علمت بالقلم الحكيم　　وهديت بالنجم الكريم [7]

ومن اقتباسات شوقى الجزئية من القرآن الكريم قوله فى وصف الخمرة :

انها رجس فطوبى　　لامرء كف وتابا [8]

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » [9]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٤٨ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة آل عمران ــ آية ١٧٣ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٠ .
(٤) قرآن كريم ــ سورة الزمر ــ آية ٢٣ .
(٥) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٨٠ .
(٦) قرآن كريم ــ سورة العلق ــ آية ٤ .
(٧) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢١٨ .
(٨) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩١ .
(٩) قرآن كريم ــ سورة المائدة ــ آية ٩٠ .

ونلاحظ أن شوقى يقف فى أبيات من شعره موقف الواعظ وتكاد تلك الأبيات تكون ترجمة لمعانى بعض آيات القرآن الكريم الى الشعر مثل قوله :

وأن البر خير فى حياة   وأبقى بعد صاحبه ثوابا [١]

فهو فى معنى قوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا » [٢] .

وقوله :

أراد الله بالفقراء برا   وبالأيتام حبا وارتبابا [٥] [٣]

... ...

وأرسل عائلا منكم يتيما   دنا من ذى الجلال فكان قابا

فهو معنى آيات كثيرة « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر » [٤] .

ويعمد شوقى الى تضمين أسماء سور القرآن الكريم حينما تناول السيرة النبوية للرسول (ص) مثل قوله :

يصعد مثل (النجم) فيها موفيا [٥]   وينزل (الكهف) بها مستخفيا [٥] [٥]

عالج فى (المعارج) (الاسراء)   ويدل (الطور)ارتقى حراء

ويصور شوقى أسماء أبطال شهداء سوريا فى ذكرى استقلالها وكأنها «الحواميم» اشارة الى السور القرآنية السبع التى تبدأ بالأحرف (حم) يقول :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٩ .
(٢) قرآن كريم — سورة المزمل — آية ٢٠ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٧٠ : ٧١ .
(٥) ارتب الصبى ارتبابا : رباه حتى أدرك .
(٤) قرآن كريم — سورة الضحى — آية ٩ .
(٥) دول العرب وعظماء الاسلام ص ٢٥ : ٢٦ .
(٥) موافيا : مشرفا
(٥) مخفياً : كضوء النجم فى الكهف لا يراه من فى الخارج .

كـأن أسـامـى الأبـطـال فـيـه حـواميـم عـلـى رق تـتـالـى [1]

ويسلك شوقى سبيل الاستجابة للصوت الدينى الكامن فى أعماقه ليظهر هذا التأثير المتعدد فى كثير من شعره.ويتعدى الأبيات القليلة ليرسم صوراً فنية مستوحاة من القرآن الكريم ومعانيه،على نحو ما نرى فى تهنئة الترك ومصطفى كمال أتاتورك حين انتصر انتصاراً حاسماً على اليونان سنة ١٩٢٢ م فصور ابتهاج العالمين العربى والاسلامى :

تـلـمـس الـتـرك أسـبـابـا ، فـمـا وجـدوا كـالسيف من سلم للعز ، أوسبب [2]

خـاضـوا الـعـوان (*) رجـاء أن تـبـلـغـهـم عبـر النجـاة ، فكـانـت صخـرة العطب

سـفـيـنـة الـلـه لـم تـقـهـر عـلـى دسـر فى العاصفات ، ولم تغلب على خشب

قـد أمـن الـلـه مـجـراهـا ، وأبـدلـهـا بـحـسـن عـاقـبـة مـن سـوء مـنـقـلـب

واخـتـار ربـانـهـا مـن أهـلـهـا ، فـنـجـت من كيد حام ، ومن تضايل منتدب

مـا كـان مـاء (سـقـاريـا) سـوى سـقـر طغت ، فأغرقت الإغريق (*) فى اللهب

لـمـا انـبـرت نـارهـا تـبـغـيـهـم حـطـبـا كـانـت قـيـادتـهـم حـمـالـة الـحـطـب

استوحى شوقى معانى صورته الفنية من معانى القرآن الكريم :

قال تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » [3] ، وقال تعالى : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » [4] ، وقال تعالى : « سأصليه سقر » [5] ، « وما أدراك ما سقر » [6] ، وقال تعالى : « وامرأته حمالة الحطب » [7] .

فى هذه الصورة اتجه شوقى الى عالم البحر واقتبس ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، واقتباساته فى هذا المجال كثيرة ، وقد تنوعت صوره المستوحاة من البحر دون أن تتميز

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١٨٢ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٦٠ : ٦١ .
(*) العوان : الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد أخرى .
(*) الأغريق : اليونان .
(٣) قرآن كريم ــ سورة القمر ــ آية ١٣ .
(٤) قرآن كريم ــ سورة هود ــ آية ٤١ .
(٥) قرآن كريم ــ سورة المدثر ــ آية ٢٦ .
(٦) قرآن كريم ــ سورة المدثر ــ آية ٢٧ .
(٧) قرآن كريم ــ سورة المسد ــ آية ٤ .

منها صورة بتواتر خاص،فاتخذ صور السفينة والفلك وغيرها . ومن استعاراته صورة السفينة للجهاد فى سبيل الله كما مر بنا فى البيت السابق (سفينة الله لم تقهر) .

وفى وصفه للبسفور يقول :

علـى أى الـجـنـان بـنـا تـمـر ؟ وفـى أى الـحـدائـق تـسـتـقـر ؟ (١)
رويـدا أيـهـا الـفـلـك الأبـر بـلـغـت بـنـا الـربـوع فـأنـت حـر

ومن الطبيعى أن تجد الآيات القرآنية سبيلها الى الانتشار بل السيادة عند شوقى ، لتصبح صوراً مكررة فى شعره ، ففى عصره كان الناس بحاجة الى هذا المعين الاسلامى ، فهو يأتى بهذه الأمثلة ليصف أحوال الخلافة ولاثبات هذه النظرية السياسية السائدة فى البلاد فى ذلك الحين فهو القائل :

بـشـرى الامـام مـحـمـد بـخـلافـة الـلـه الـقـديـر (٢)
الـبـاعـث الـدسـتـور فـى الـسـلام مـن حـفـر الـقـبـور
... ...
فـعـلـى الـخـلافـة مـنـكـمـا (٠) نور تلألأ فوق نور

فهو يستمد معانيه وصوره من المعجم القرآنى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » (٣) .

ويعمد شوقى فى اقتباساته من القرآن الكريم الى التغيير فى بعض العبارات كحذفه المضاف إليه من العبارة المأثورة « قاب قوسين أو أدنى » وهى تدل على قرب الوقوع ، والى جانب ورود هذه العبارة فى القرآن الكريم لكنها وردت فى استعمالات العرب منذ القدم لذا أصبحت من المأثور العام أيضاً .

يقول فى وصفه للتاريخ :

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٠ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢٤ .
(٠) منكما : أى من الخليفة ، ومن الدستور .
(٣) قرآن كريم — سورة النور — آية ٣٥ .

غـال بـالـتـاريـخ ، واجـعـل صـحـفـه   من كـتـاب الله فى الاجلال قـابـا [1]

قال تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » [2] .

وقال يصف بلاده بعد العودة من المنفى سنة ١٩٢٠ م واستقباله بعد الغيبة الطويلة :

وقيـل : الشـعـر ، فـاتـأدت ، فـأرست   فـكـانـت مـن ثـراك الـطـهـر قـابـا [3]

وقال من قصيدة (أيها العمال) :

أيـــهـــا الـــجـــمـــع ، لـــقـــد صـــر   ت مـــن الـــمـــجـــلـــس [*] قـــابـــا [4]

ويستخدم شوقى التعبير (لات حين) للدلالة على انقضاء الأمروتعبير (لات حين) ورد فى القرآن الكريم وورد فى المأثور العام من استعمالات العرب . يقول شوقى وهو يصف قبر نابليون :

غـربـت حـتـى إذا مـا اسـتـيـأسـت   دنـت الـدار ، ولـكـن لات حـيـن [5]

قال تعالى : « فنادوا ولات حين » [6] .

والى جانب صوره السابقة يردد شوقى صورة (القيامة) فيأخذ من مشاهدها ما يراه مناسباً لصوره التى يتعامل معها أو اللوحة التى يرسمها من مثل قوله فى وصف نكبة اليابان الأخيرة بالزلزال الشهير :

قف (بطوكيو) ، على (يوكاهامه)   وسل القريتين : كيف القيامة ؟ [7]

دنـت الـسـاعـة الـتـى أنـذر الـنـا   س ، وحـلـت أشـراطـهـا والـعـلامـة

شبه شوقى مشهد الزلزال بيوم (القيامة) واستخدم لفظ (القريتين) استخداما قرآنياً ، إذ أن (طوكيو) و (يوكاهامه) مدينتان عظيمتان ولايمكن وصفهما

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٦٤ .
(٢) قرآن كريم — سورة النجم — آية ٩ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٦ .
(*) المجلس : دار النيابة .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩١ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٥٣ .
(٦) قرآن كريم — سورة (ص) — آية ٣ .
(٧) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٨٥ .

بالقريتين ، وهذا الخطر الذى حل بالمدينتين أنذر الناس بدنو علامات الساعة . ومن قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) [١] .

وفى رثائه للأديب مصطفى لطفى المنفلوطى الذى توفى سنة ١٩٢٤ م ردد هذه الأبيات التى صور فيها (القيامة) :

اختـرت يـوم الهـول يـوم وداع ... ونعـاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى ، فأوصد دونهم ... جرح الرئيس منافذ الأسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد ... قدما تشيع أو حفاوة ساعى
ما ضر لوصبرت ركابك ساعة ... كيف الوقوف إذا أهاب الداعى ؟

الصورة العامة للأبيات السابقة توحى بأن القيامة قد قامت لموته وان الكون قد اختلت موازينه كما تختل عندما ينفخ فى الصور ، فقد اختار الموت فى (يوم الهول) الذى أطلق فيه الرصاص على الزعيم المصرى سعد زغلول باشا ، فكان هذا اليوم قيامة قائمة كما صورها القرآن الكريم بأنها يوم حشر وهول . وواضح أن شوقى استوحى هذه الصور والعبارات من المعجم القرآنى ذلك أن هذه العناصر الاسلامية فى رثائيات شوقى من الأساسيات فى بنائه الفنى .

ولشوقى قصيدة كاملة لايكاد يتحول فيها عن كتاب الله العزيز يأخذ منه لموضوعاته حسب ما تطلب ، وعلى بمقدار مايسعفه نظم الأبيات ، فهو يأتى بالأبيات يعظ فيها ، ويرشد فيها الناشئة الى طرق التعبد ، ويحث على النظر فى ملكوت الله ، ويدل الانسان على مكانته فى الكون وعلاقته به ويوجهه الى التفكر فى مبدأ الخلق ، إذ كيف كان سلالة من طين ، ثم كيف تحول منها فى أطوار النمو المختلفة حتى صار خلقاً سوياً ، يحن فى مستقره الى النور ، ويضيق بالظلام ، وكيف خفق بالحياة قلبه واختلج بنبضه . يقول من رسالته التى يوجهها الى الناشئة :

أعبـد اللـه بعقـل يا بنـى ... وبقلب من رجاء الله حى [١]
ارجـه تعـط مقاليـد الفلـك ... واخشـه خشيـة من هلـك

---

(١) قرآن كريم ــ سورة محمد ــ آية ١٨ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٣٨ .

أنظر الملك وأكبر من خلق	وتمتع فيه من خير رزق
أنت فى الكون محل التكرمه	كل شىء لك عبد أو أمه
سخر العالم من أرض وماء	لك والريح وما تحت السماء
أذكر الآية إذ أنت جنين	لك فى الظلمة للنور حنين
كل يوم لك شأن فى الظلم	حار فيه كل بقراط علم
كان فى جنبك شىء من علق	حين مسته يد الله خفق
صار حسا وحياة بعدما	كان فى الاضلاع لحماً ودماً
دق كالناقوس وسط الهيكل	فى انتفاض كانتفاض البلبل

يستعين شوقى فى مواعظه هذه برصيد من معانى الآيات القرآنية ليستعين بها فى بناء صوره وطرح أفكاره،ومن اليسير أن نجد لهذا الرصيد شواهد من هذه الآيات الكريمة ، فهى تأتى هنا على ترتيب الأبيات . قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ، ويتقه فأولئك هم الفائزون » [١] . وقال تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » [٢] ، وقوله تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » [٣] . وقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » [٤] . وقال تعالى : « وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون [*] ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [٥] . وقال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة [*] من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة [*] فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين [٦]

(١) قرآن كريم ـ سورة النور ـ آية ٥٢ .
(٢) قرآن كريم ـ سورة الأعراف ـ آية ١٨٥ .
(٣) قرآن كريم ـ سورة فاطر ـ آية ١٢ .
(٤) قرآن كريم ـ سورة الاسراء ـ آية ٧٠ .
(٥) قرآن كريم ـ سورة النحل ـ آية ١١ .
(*) تسيمون : ترسلون مواشيكم للرعى .
(*) سلالة : خلاصة . المضغة : قطعة اللحم .
(٦) قرآن كريم ـ سورة المؤمنون ـ آية ١٤ .

وهذه القصيدة التى ذكرناها ما هى إلا مجموعة مواعظ استمد روحها من آيات القرآن الكريم ، ولكن شوقى فى الوعظ ليس له حظ مذكور من أخيلة الشعراء وتصوراته ، حتى ليوشك هذا الجانب عنده أن يكون نثراً مسجوعاً .

وفى معرض استخدامات شوقى لآيات القرآن الكريم ومعانيها قوله فى اطلاق سراح سجناء المحكمة العسكرية الانجليزية بعد تلفيق تهمة لهم ، وذلك أثناء وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ م ، وقد احتفل شباب البلاد بنجاة أخوانهم من المؤامرة الدنيئة . و نظم شوقى قصيدة (تكريم) بهذه المناسبة بدأها بالغزل ليخلص منه بعد ذلك الى غرضه :

لو مر بالولدان طيف جمالها ... فى الخلد خرجوا ركعا وسجودا [(١)]
أشهى من العود المرنم منطقا ... وألذ من أوتاره تغريدا
لو كنت سعداً مطلق السجناء ، لم ... تطلق لساحر طرفها مصفودا
... ...
يا مصر ، أشبال العرين ترعرعت ... ومشت اليك من السجون أسودا

يستمد الشاعر من المعجم القرآنى ألفاظ (ولدان ـــ خلد ـــ ركعا وسجودا) أما المعنى فقد استمده الشاعر من قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون » [(٢)] ، ومن قوله تعالى : « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله رضوانا » [(٣)] .

ويخاطب شوقى فتية النيل فى نفس قصيدة (تكريم) ويحثهم على الجهاد ، لأن الجهاد فى سبيل الوطن كالجهاد فى سبيل الله لا يقابله إلا الثواب . فيقول لهم :

يا فتية النيل السعيد : خذوا المدى ... واستأنفوا نفس الجهاد مديدا [(٤)]
وتنكبوا العدوان ، واجتنبوا الأذى ... وقفوا بمصر الموقف المحمودا
الأرض أليق منزلا بجماعة ... يبغون أسباب السماء قعودا

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ١ ـــ ص ١١٠ .
(٢) قرآن كريم ـــ سورة الواقعة ـــ (آية ١٧) .
(٣) قرآن كريم ـــ سورة الفتح ـــ (آية ٢٩) .
(٤) ديوان شوقى ـــ ج ١ ـــ ص ١١١ .

فى الأبيات السابقة استمد شوقى معناه من آيات القرآن الكريم بقوله (أسباب السماء) ، إذ يقول تعالى فى محكم كتابه : « لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات » [1] .

ويجعل شوقى وجه (الكنانة) مصر كوجه الله تعالى إذ يدفع الشباب لحب الوطن ودفع المستعمر والتفانى فى سبيل اخراج المستعمر من البلاد ، وما قصيدة (تكريم) التى قالها شوقى والتى استشهدنا بأبيات منها هنا إلا مجاهرة شوقى بدعوته الى الجلاء عن مصر ، وأقسم أن عيد مصر يوم مغادرة المستعمر لها إذ أن حب الوطن كالعبادة .

يقول :

وجهُ الكنانة ليس يغضب ربكم	أن تجعلوه كوجهه معبودا [2]
ولوا اليه فى الدروس وجوهكم	وإذا فرغتم ، فاعبدوه هجودا
ان الذى قسم البلاد حباكم	بلدا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان ــ والدنيا لحود كلها ــ	للعبقرية ، والفنون مهودا

استمد شوقى معانيه من قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك » [3] ، وقوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك . عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » [4] ، وقوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » [5] .

وشوقى يحاول بكل ما يملك من طاقة أن يستمد من القرآن الكريم معانيه أحياناً وكلمات معجمة أحياناً أخرى ، وعباراته الجاهزة فى بعض المواضع ، ومن قصيدته فى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة وضع حجر الأساس لمصرف (بنك مصر) عام ١٩٢٥ م . والتى يتخذ منها رمزاً ليشير الى ما كان من خلاف بين زعماء مصر فى ذلك الوقت . يقول :

(١) قرآن كريم ــ سورة غافر ــ (آية ٣٦ ، ٣٧) .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١١١ .
(٣) قرآن كريم ــ سورة الرحمن ــ (آية ٢٧) .
(٤) قرآن كريم ــ سورة الاسراء ــ (آية ٧٩) .
(٥) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ (آية ١١٥) .

ولـمـا لـم نـنـل لـلـسـيـف ردا تـنـازعـنـا الـحـمـائـل والـنـجـادا [١]
وأقـبـلـنـا عـلـى قـوم وزور تـجـيء الـغـى تـقـابـلـه رشـادا

واضح هنا أن الشاعر يستلهم معنى الآية الكريمة : لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » [٢] مستعيراً منها لفظتى (الرشد والغى) بما تحملان من دلالات اسلامية جديدة .

وعندما سقط السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٩ م فى (الانقلاب العثمانى) قال قصيدته مستمداً من المعجم القرآنى معظم معانيها يقول : :

ذهـب الـجـمـيـع ، فـلا الـقـصـو ر تـرى ، ولا أهـل الـقـصـور [٣]
أين الأوانى فى ذرا هـا مـن مـلائـكـة وحـور
الـمـتـرعـات مـن الـنـعـيـم ، الراويات من السرور

وقد التفت شوقى الى قوله تعالى فى وصف الجنة : « مقصورات فى الخيام » [٤] . وقوله تعالى « وحور عين » [٥] . وقوله تعالى : « وزوجناهم بحور عين » [٦] .

ويعود شوقى فى القصيدة نفسها (الانقلاب العثمانى) يخاطب السلطان الجديد (محمد رشاد الخامس) الذى خلف السلطان عبدالحميد ليقول :

أنـت الـكـبـيـر ، يـقـلـدو نك ، سيف (عـثـمـان) الـكـبـيـر [٧]
شـيـخ الـغـزاة الـفـاتـحـيـن ، حـسـامـه شـيـة الـذكـور
يـمـضـى ويـغـمـد بـالـهـدى فـكـأنـه سـيـف الـنـذيـر

والشاعر يشير الى سيف الحق، وواضح أنه استمد هذا المعنى من قول الله تعالى وهو يخاطب نبيه محمد (ص) : « وقل انى أنا النذير المبين » [٨] .

(١) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ١٤ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ (آية ٢٥٦) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١١٩ : ١٢٠ .
(٤) قرآن كريم ــ سورة الرحمن ــ (آية ٧٢) .
(٥) قرآن كريم ــ سورة الواقعة ــ (آية ٢٢) .
(٦) قرآن كريم ــ سورة الدخان ــ (آية ٥٤) .
(٧) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٢٤
(٨) قرآن كريم ــ سورة الحجر ــ (آية ٨٩) .

أما الاعداء المخذولون فهم فى نظر شوقى يستحقون العقاب الشديد وليس هناك وصف يصفهم به سوى (حمالة الحطب)•هذا الاستخدام القرآنى الذى وصف به زوجة أبى لهب عم الرسول (ص) التى كانت من سادات قريش ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده والسبب فى أذى الرسول (ص) ، فلهذا جعلها الله عوناً على زوجها يوم القيامة فى عذابه فى نار جهنم ، فهى مهيأة تحمل الحطب وتلقيه على زوجها . قال من قصيدته التى انتصر فيها الترك على أعدائهم :

لـمـا انـبـرت نـارهـا تـبـغـيـهـم حـطـبـا   كـانـت قـيـادتـهـم حـمـالـة الـحـطـب [1]

فهو كنى عن الأعداء المخذولين (بحمالة الحطب) واستمد ذلك من قوله تعالى : « وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » [2] .

وحين يصور شوقى الفتن الداخلية فى مصر والمجاعة المتولدة عنها بحرب البسوس وبالسنين الصعاب السبع التى فى قصة يوسف (ع)فهو يرسم لنا صورة مستمدة من تاريخ العرب فى الجاهلية ، ومستمدة من النفس القرآنى كما ورد فى قصة النبى يوسف (عليه السلام) يقول :

أمـن حـرب الـبـسـوس الـى غـلاء   يـكـاد يـعـيـدهـا سـبـعـاً صـعـابـاً [3]

وشوقى فى استخدامه هذا يتخذ من الصور القديمة رموزاً يوظفها لخدمة قضيته بطريق غير مباشر ، وقد استمد ذلك من قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأبا . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن » [4] .

ومن استخدامات شوقى القرآنية قوله بمناسبة ميلاد الأمير محمد عبدالمُنعم :

أرى مـسـتـقـبـلا يـبـدو عـجـابـا   وعـنـوانـا يـكـن لـنـا كـتـابـا [5]
وكـان « مـحـمـد » أمـلا شـهـابـا   وكـان الـيـأس شـيـطـانـا رجـيـمـا

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٦١ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة المسد ــ (آية ٤ ، ٥) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٦٤ .
(٤) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٤٧ ، ٤٨) .
(٥) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٣٢ .

والملاحظ أن شوقى استخدم كلمة (عجابا) استخداماً قرآنياً لم يسبقه إليه أحد ، أما ما هو شائع الاستخدام فهو كلمة (عجيب) ، قال تعالى : « ان هذا لشىء عجاب » [١] .

ويتخذ الموقف عند الشاعر اتجاهاً سياسياً حين يجد نفسه فى موقف ينتصر فيه للدولة أو يريد الدفاع به عن قضية فيمضى الى آيات القرآن الكريم يستمد منها أو من القصص القرآنى ما جاء فيها من توجيهات أو عبر ليعبر بهذا عن الموقف وما يتطلبه ، إذ يقول من قصيدته بمناسبة المؤتمر السياسى الذى اجتمعت فيه كلمة الأحزاب السياسية المصرية على انقاذ الدستور برياسة المغفور له سعد زغلول عام ١٩٢٦ م ، إذ شبه مقر المؤتمر (مجلس النواب) بالغار حينما علاه نسج العنكبوت . يقول :

احتل حصن الحق غير جنوده   وتكالبت أيد على المفتاح [٢]

... ...

هجرت أرائكه ، وعطل عوده   وخلا من الغادين والرواح

وعلاه نسج العنكبوت ، فزاده *   كالغار من شرف وسمت صلاح

وقد استمد شوقى ذلك من قوله تعالى : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً [٣] وقوله تعالى : « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار » [٤] .

وللأزهر الشريف،هذا الصرح الدينى والعلمى العظيم،نصيب فى شعر شوقى كما كان له نصيب فى شعر غيره من الشعراء . يقول :

عين من الفرقان (*) فاض نميرها   وحيا من الفصحى جرى وتحدرا [٥]

---

(١) قرآن كريم ــ سورة ص ــ (آية ٥١) .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١٥٥ .
(٣) قرآن كريم ــ سورة العنكبوت ــ (آية ٤١) .
(٤) قرآن كريم ــ سورة التوبة ــ (آية ٤٠) .
(٥) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٥٣ .
(*) الفرقان : من أسماء القرآن الكريم .

استمد شوقى قوله هذا من المعجم القرآنى إذ قال تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » [١] . جعل شوقى الفرقان كالجدول الكثير الماء ، وهذا الأزهر الشريف عين من عيونه .

ويقول مخاطباً فتية الأزهر من طلاب العلم ويحثهم على نشر العلم :

يا فتية المعمور (٭) ، ساد حديثكم　　ندا بأفواه الركاب وعنبرا [٢]

...　...　...　　...　...　...

هزوا القرى من كهفها ورقيمها　　أنتم ــ لعمر الله ــ أعصاب القرى

فشوقى يناشد طلبة العلم وأصحابه بنشر العلم بين الأميين من الناس الذين شبههم بأهل الكهف الذين يسكنون الرقيم وهى قريتهم ، وأصحاب الكهف يضرب المثل بها لمن طالت غفوته ، ويقصد شوقى بهذا الاستخدام الرمزى ليس الأميين ممن لايعرفون القراءة والكتابة فقط وانما يرمز بهذا لكل من طالت غفوته لا يعلم من أمور بلده شيئاً ، واستلهم شوقى هذا المعنى مما ورد فى القرآن الكريم من ذكر أصحاب الكهف قال تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » [٣]

وتتكرر الصور القرآنية لدى شوقى فى مجال العلم كما سبق فى قصيدته الأزهر الشريف ، ليعود مرة أخرى فى قصيدته التى يناشد بها سعد زغلول سنة ١٩٠٨ م ، لانشاء صرح علمى آخر هو مدرسة المطرية ويستمد عباراته ومعانيه من المعجم القرآنى إذ يقول :

يا ناشر العلم بهذى البلاد　　وفقت، نشر العلم مثل الجهاد [٤]

...　...　...　　...　...　...

بالعلم ساد الناس فى عصرهم　　واخترقوا السبع الطباق الشداد

---

(١) قرآن كريم ــ سورة الفرقان ــ (آية ١) .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٥٢ : ١٥٣ .
(٭) المعمور : الأزهر الشريف .
(٣) قرآن كريم ــ سورة الكهف ــ (آية ٩ : ١٢) .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١١٦ : ١١٧ .

استمد شوقى معانيه من قول الله تعالى : « سبع سموات طباقا » [٢] ومن قوله : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » [١]

ومن نفس قصيدته السابقة يقول :

ذلك أمسى ما به ريبة	ويومى (القبة) [*] ذات العماد [٣]
أصبحت كالفردوس فى ظلها	من مصر للخنكا [*] لظلى امتداد
لولا حلنى زيتونى النضر ، ما	أقسم بالزيتون رب العباد
الواحة الزهراء ذات الغنى	تربى التى ما مثلها فى البلاد

صور شوقى مأخوذه من الصور القرآنية لجنة (عاد) ، قال تعالى : « ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » [٤] ، ومع أن قوم عاد أصحاب القرية التى بنوها بالذهب على رأى بعض المفسرين لم يكن لهم ذكر كريم فى القرآن لأن الله بعث فيهم رسوله هودا فكذبوه فأنجاه من بين ظهرانيهم وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، لكن شوقى بهذا المثل متأثر بما أورده بعض المفسرين عن جمال هذه القرية حتى وصفت بأنها كالجنة ، والعلاقة بين الأثنين هى الرابطة الجمالية فقط . أما صورة القسم عند شوقى فقد استمدها من قوله تعالى : « والتين والزيتون وطور السنين » [٥]

بعد هذه الأمثلة التى أوردناها ومدى استمداد شوقى من كتاب الله العزيز ، يجدر بنا أن نلاحظ أن شعر شوقى فى جميع الإتجاهات كان بحاجة الى الاستمداد القرآنى ، ذلك لأن التوظيف الرمزى للشعر يعالج الوضع السياسىوالاجتماعى والاقتصادى ، فهو قد جاء من أجل التوجيه ، ولم يكن من المستطاع الا الدخول من باب الدين من أجل توجيه السياسة لخدمة الغرض ، لذا فقد انتشر هذا اللون فى مساحة واسعة عند شوقى ، ولم نستطع أن نأتى بكل الأمثلة لعدم الاطالة فى الموضوع .

(١) قرآن كريم — سورة الملك — (آية ٣) .
(٢) قرآن كريم — سورة النبأ — (آية ١٢) .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١١٨ .
(*) القبة : ضاحية من ضواحى القاهرة ، بها قصر عظيم بناه الخديوى عباس حلمى وقد غلب اسمها على هذا القصر .
(*) الخنكا : كلمة فارسية بمعنى دير الرهبان (خانكاه) وهى ضاحية من ضواحى القاهرة .
(٤) قرآن كريم — سورة الفجر — (آية ٧) .
(٥) قرآن كريم — سورة التين — (آية ١) .

التأثر بالقصص القرآني :

كان القصص الديني مصدراً آخر مكملا للآيات القرآنية في شعر شوقي ، وانتشر هذا التأثير بصورة واسعة في كل شعر شوقي حيث اعتمد عليه في تعزيز بعض مواقف ممدوحيه أو رثاء بعضهم واضفاء قدر من القداسة على هذه المواقف سواء في طريقة الحكم أو التصرف : وفي بعض المواقف يثبت الجانب الالهي في وراثة الخلافة بالنسبة للخليفة. وقد وجد شوقي في كثير من أعلام الأديان السماوية قبل الاسلام مثله العليا ، وفي قصيدة شوقي (الله والعلم) [1] ذكر قصة النبي (داود) عليه السلام وبأن الله وهبه الملك وقضى فيه بكل أمر عظيم ، وقد ربط شوقي بين ملك النبي داود العظيم وكيف وهبه الله له . قال تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبي معه والطير ، وألنا له الحديد » [2] . وبين ملك أدوارد السابع الذي يهابه الشرق والغرب في عظمته . وقال تعالى : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » [3]

قال شوقي : :

أملكك يا (داود) والملك الذي   يغار عليه ، والذي هو واهبه [4]

ولاشك أن لاستغلال الجانب الالهي في هذا القصص الديني دوراً سياسياً هاماً يستخدمه الشاعر في تشبيه بعض من يمدحهم أو يرثيهم من الخلفاء والزعماء والأبطال وغيرهم بالأنبياء الذين وهبهم الله الحكمة نعمة من عنده وفضلا .

وقد أشاد شوقي بالطيران والطيارين بمناسبة قدوم (فدرين) و (يونيه) طائرتين من باريس الى مصر سنة ١٩١٤ م ، وأسند شوقي فعل الأمر الى النبي سليمان في هذا الموضع يقول : :

قم (سليمان) بساط الريح قاما   ملك القوم من الجو الزماما [5]

---

(١) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٨٠ — نظمت هذه القصيدة بمناسبة حفلة تتويج الملك ادوارد السابع وتأجيل اقامة الحفلة لاصابة جلالته بدمل وذلك في سنة ١٩٠٢ م
(٢) قرآن كريم — سورة سبأ — (آية ١٠) .
(٣) قرآن كريم — سورة (ص) — (آية ٢٠) .
(٤) ديوان شوقي — ج ١ — ص ٨٠
(٥) ديوان شوقي — ج ٢ — ص ٨٨

حين ضاق البر والبحر بهم　　أسرجوا الريح ، وساموها اللجاما
صار ما كان لهم معجزة　　آية للعلم آتاها الأناما

وقد جعل الشاعر الرابطة هنا تسخير الريح لسليمان النبى وللطيارين فى رحلتهما ، أما العلاقة بين سليمان وتسخير الريح فهى التداعى . قال تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » (١)

وفى تسخير الله الريح لسليمان تعتبر معجزة من معجزات النبوة ، وخارقة من خوارق الطبيعة لا يسخره الله إلا لمن اصطفى من أنبيائه ، أما الآن فان ذلك الذى يبدو أمراً معجزاً قد أصبح ميسراً وفى متناول يد الانسان بفضل العلم ، فكأن شوقى يريد أن يشير الى هذه الحقيقة،وهى أن الانسان بعقله الذى وهبه إياه الله وبجهده فى استنباط حقائق الكون قد استطاع أن يحقق ما لم يتحقق من قبل إلا على أيدى الأنبياء ، ولذلك فهو لايريد أن ينال من قدر معجزات الأنبياء بقدر ما يريد أن يرفع من شأن العلم وقدرة العقل الانسانى على تسخير ما فى الكون لصالحه .

وعند شوقى يأخذ القصص القرآنى جانبين ، لون واقعى المقصود منه الحالة التى تمثلها القصة لا الشخصية ، ولون واقعى آخر مقصود بأشخاصه مثل ذكر بعض الأسماء من الأنبياء والرسل .

وفى تكريم الدكتور على بك ابراهيم الجراح العبقرى ، يستغل شوقى ما ورد فى القرآن الكريم من القصص مثل قصة النبى ابراهيم (عليه السلام) الذى كرمه الله تكريماً خاصاً فجعل صلته التوحيد الخالص ، وجعل العقل فى جانب الذين يتبعون دينه وجعله اماماً للناس ، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، وجعل له معجزات ، وحقق الله له ذلك فى احيائه الطير الذبيحة . قال تعالى : « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (٢)

شبه شوقى يد الجراح (د . على) فى اجراء عملياته بيد النبى ابراهيم باعادة الطير الذبيح للطيران بقدرة الله ، استطاع رسم صورة لذلك ، يقول :

---

(١) قرآن كريم ــ سورة سبأ ــ (آية ١٢) .
(٢) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ (آية ٢٦٠) .

لا عـدمـنـا « لـلـسـيـوطـى » يـدا   خـلـقـت لـلـفـتـق والـرتـق بـنـانـا [1]
تـصـرف الـمـشـرط لـلـبـرء كـمـا   صـرف الـرمـح الـى الـنـصـر الـسـنـانـا
...   .
يـد (ابـراهـيـم) لـو جـئـت لـهـا   بـذبـيـح الـطـيـر عـاد الـطـيـرانـا
لـم تـخـط لـلـنـاس يـومـاً كـنـار   انـمـا خـاطـت بـقـاء وكـيـانـا

وشبه شوقى نجاة الخليفة حين ألقيت عليه القذيفة سنة ١٩٠٥ م وشاء الله أن يحفظه من شرها ، شبهه بالنبى ابراهيم (عليه السلام) عندما خاض النار فكانت برداً وسلاماً بأمر ربه . قال تعالى : « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم » [2]

يقول شوقى :

تـشـمـيـت فـى بـرد الـخـلـيـل ، فـخـضـتـهـا   سـلامـاً وبـرداً حـولـك الـغـمـرات [3]

وقد أكد شوقى بذلك إيمانه بقداسة الخلافة وتأكيد سلطتها واضفاء هذه المشروعية عليها ، حيث انه أوصل الخلفاء الى مصاف الأنبياء وحول قوة الخلافة الى حق وطاعتها الى واجب ، واضافة الى ذلك فان بيانية التعير والتشبيه تجيش الذاكرة الدينية عند القارىء لشعر شوقى .

ويصور شوقى بعض الأحداث الواقعية ويربط بينها وبين بعض قصص الأنبياء مستمداً هذه الأحداث من مقومات القصة القرآنية كتشبيه حريق (ميت غمر) [5] بالنار الحمراء التى التهمت كل شىء ، وشبه هذه النار بنار (ابراهيم) بأنه لا يتحملها لشدة حرارتها حتى لو ابتلى بها النبى ، ولكنه بجملة اعتراضية يستغفر ربه ذلك لأن العناية الآلهية قد أمدت (ابراهيم الخليل) بالقوة والايمان الخالص وجعلت النار برداً وسلاماً عليه . يقول :

لـو أنـه ابـتـلـى (الـخـلـيـل) بـمـثـلـهـا   ــ أسـتـغـفـر الرحـمـن ــ ولـى مـدبـرا [4]

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١٨٩ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الأنبياء ــ (آية ٦٩) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٦٤ .
(٥) سنة ١٩٠٥ ــ نشرت بمجلة (المجلات العربية) .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٤٦ .

وقد وجد شوقى فى حدث سلامة (ابراهيم الخليل) رغم خوضه النار نموذجاً بليغاً يصور الشجاعة والتضحية وقداسة القضية ، قال فى تشبيه الصليب الأحمر فى ميدان القتال ، بالخليل فى لهب النار :

وإذا الـوطـيـس رمـى الـشـبـاب خض (كـخـليـل) إليهم النيرانا [1]

ويأخذ شوقى من القصص القرآنى نموذجاً من الأنبياء وهو (نوح) عليه السلام ، وما ارتبط به من قصة الطوفان كما أوردها القرآن الكريم ، وكيف أن الله نجاه ومن معه من الغرق . وقد كان نوح (عليه السلام) بمقياس الفكر ثورة فكرية ، وكان الانسان الذى يذكر جيداً عهد الله لآدم وأبنائه حين خلقهم مؤمناً بالله تعالى ، وقد اتخذ شوقى هذا النبى المؤمن نموذجاً ليشبه به الزعيم المصرى (سعد زغلول) [*] حيث شبه الزعيم المصرى بقائد السفينة وربانها ، وبأن الله قد حفظه ونجاه من حادث الاعتداء . فالقصيدة تشمل تاريخاً دينياً الى جانب تاريخ ثقافى وانفعالى عاطفى ، وتشمل كل هذه القيم مرتبطة مع بعضها إذ يقول :

نجا (نوحها) من يد المعتدى وضل المقاتل عدوانها [2]
حوت دمك الأرض فى أنفها زكياً ، كأنك عثمانها
ولو زلت غيب عمرو الأمور وأخلى المنابر سحبانها
ولو لم يسابق درو س الحياة لبصره الرشد لقمانها

فى هذه الصورة شبه شوقى (سعد زغلول) وهو المخاطب بالنبى (نوح) عليه السلام قائداً ، وشبهه بالخليفة (عثمان بن عفان) (كأنك عثمانها) مضحياً بدمه ، وشبهه بعمرو بن العاص فطناًوبسحبان وائل خطيباً ، ثم شبه مقدم الحكمة لمدبر الاغتيال بلقمان حكيماً ، وكما هو واضح فى هذه اللوحة براعة شوقى فى استخدام التشبيهات المتوالية التى تعرض على الأنظار صوراً متقنة وهذه ميزة جارى بها شوقى المتنبى .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٧٨

(*) اعتزم (سعد زغلول) السفر الى انجلترا للمفاوضة مع حكومتها ، وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذ فترصد له شاب وأطلق عليه النار ، ولكن الله أنجى حياته ، ووقى البلاد شر فتنة كادت تعصف بين الأحزاب فنظم شوقى هذه القصيدة يهنىء بها الزعيم سعداً .

(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٦٢

قال تعالى : « وقيل : يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » [١]

وللطبيعة حظ كبير فى تشبيهات شوقى القرآنية وهى صور واقعية تستمد روحها من تجربة الشاعر الطويلة وثقافته الواسعة،لا من انفعالات فطرية أو شطحات صوفية ، فصور شوقى تمتد جذورها فى الطبيعة والانسان والتاريخ ، والغالب على صور الطبيعة عنده أن أكثر موصوفاته بلدان مثل (فروق) [٢] و (دمشق) [٣] وقد اتخذ لهما صورة الجنة ، وفى وصفه لمشاهد الطبيعة فى طريقه الى الأستانة قادماً من أوربا.يرسم صورة لهذه المشاهد ليشبهها بطوفان (نوح) مستمداً بذلك مقومات القصة القرآنية . يقول :

فى كل ناحية سلكت ومذهب ... جبلان من صخر وماء جارى [٤]
من كل منهمر الجوانب والذرى ... غمر الحضيض [٥] مجلل بوقار
... ...
ومكذب بالجن ريع لصوتها ... فى الماء منحدراً وفى التيار
ملأ الفضاء على المسامع ضجة ... فكأنما ملأ الجهات ضوارى
وكأنما طوفان نوح ما نرى ... والفلك قد مسخت حثيث قطار
يجرى على مثل الصراط ، وتارة ... ما بين هاوية وجرف هارى

وصورة شوقى هذه ليست فى مستوى عملية الخلق الفنى عنده ولكنها صورة تأليفية لوصف الطبيعة زاخرة بالتشابيه ، وكانت الموصوفات فيها عناصر الطبيعة الجامدة وهى عناصر مربعة (صوت الجن ، الضوارى ، طوفان نوح ، القطار الحثيث) فهذا وصف الطبيعة الهائجة ، وقد استمد بعض صور موصوفاته من القصص القرآنى .

وكما مر علينا بأن شوقى تعلق من قصة (نوح) عليه السلام بظاهرة الطوفان من حيث هى رمز للكارثة ، تحل بالانسان فتحمله على السعى الى العيش مع غيره ، القوى

---

(١) قرآن كريم — سورة هود — (آية ٤٤) .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٥٤
(٣) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٧٤
(٤) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٨
(٥) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

والضعيف على حد سواء ، فى كنف الحب والسلام والأخاء ، وتعلق بالسفينة من حيث هى ملجأ أمين ورمز لعالم مثالى ولكنه وقتى ، فيه يمتحن الناس ويختبرون .

قال تعالى : « ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (١)

ولعالم الحيوان نصيب فى تشبيهات شوقى القرآنية ، إذ أن هذا العالم كائنات متحركة ذات شعور ، وإذا كان الله فضل الانسان بملكة النطق والقدرة على التفكير ، مما جعله يخلق القوة من الضعف ويتخذ لنفسه ألواناً شتى من الأسلحة يؤمن بها حياته ويحفظ بها نوعه ، فقد ميز الحيوان ببنية مكتملة . وقد صنف الانسان الحيوان أصنافاً مختلفة ، واستخرج منه صوراً يقيس بها أنواع الناس ويضرب بها الأمثال فى مضاربها وفى ذهن الانسان أن هذه الصفات ـــ المعنوية خاصة ـــ مثالية فى الحيوان بمقتضى أنها تتولد فيه عن طبيعته لا عن اكتساب،بينما تتولد نظائرها في الانسان عن اكتساب وتجربة . وقد استوحى شوقى تشبيهاته من القصص القرآنى ، كما ورد فى الآيات وكيف أن الله سبحانه وتعالى سخر هذه الحيوانات للأنبياء بأمره ، فقد سخر لسليمان جنوده من الأنس والجن والطير بأنواعهاوحشرها له، ومع أن هذه الحيوانات والحشرات صغيرة الحجم لكن الله أتاها القوة لقضاء أمره وليجعل ذلك معجزة أنبيائه .

وحكايات الحيوان لديه تضرب فى موضوعات شتى ، تتصل بالحياة العصرية القائمة ، من غير أن تغفل الاشارة الى الحوادث القديمة ، والتاريخ الماضى ، للانتفاع بعبره ومواعظه .

وفى حادثة طوفان نوح أمره الله أن يصنع السفينة ويأخذ فيها من كل زوجين أثنين من جميع مخلوقاته محافظة على النوع وبقائه ، فهو يستمد تفاصيل القصة ويستعير ذلك كما ورد فى القرآن الكريم ، ويلتمس العظة والعبرة لبني الانسان من هذه القصة والتى يعتبرها كرمز يطبق عليه الواقع الذى يعيشه ، يقول من حكايات الحيوان بعنوان (السفينة والحيوانات) (٢) راسماً هذه الصورة :

---

(١) قرآن كريم ـــ سورة هود ـــ (آية ٣٨) .
(٢) ديوان شوقي ـــ ج ٤ ـــ ص ١٥٩

لـمـا أتـم نـوح الـسـفـيـنـة ... وحـركـتـهـا الـقـدرة الـمـعـيـنـه
جـرى بـهـا مـا لا جـرى بـبـال ... فـمـا تـعـالـى الـمـوج كـالـجـبـال
حـتـى مـشـى الـلـيـث مـع الـحـمـار ... وأخـذ الـقـط بـأيـدى الـفـار
... ...
حـتـى إذا حـطـو بـسـفـح الـجـودى ... وأيـقـنـوا بـعـودة الـوجـود
... ...
فـقـس عـلـى ذلـك أحـوال الـبـشـر ... ان شـمـل الـمـحـذور ، أو عـم الـخـطـر

قال تعالى : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : أحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول » (١)

ويتخذ شوقى من قصة النبى (آدم) عليه السلام مثالا لوصف طبائع البشر من خبث وطيبة وكيف أن النفوس قد تغيرت عن العهد القديم وتأصل اللؤم فيها ؛ وشبه توارث الناس اللؤم بتوارثهم مميزات الانسانية عن آدم وحواء .

يقول من قصيدة (شكسبير) بهذه الروح الحكمية :

والـنـاس صـنـفـان : مـوتـى فـى حـيـاتـهـم ... وآخـرون بـبـطـن الأرض أحـيـاء (٢)
... ...
لامـوك فـى جـعـلـك الانـسـان ذئـب دم ... والـيـوم تـبـدو لـهـم مـن ذاك أشـيـاء
... ...
كـانـوا الـذئـاب ، وكـان الـجـهـل داء هـم ... والـيـوم عـلـمـهـم الـراقـى هـو الـداء
لـؤم الـحـيـاة مـشـى فـى الـنـاس قـاطـبـة ... كـمـا مـشـى آدم فـيـهـم وحـواء

ثم يقارن الصورة السيئة،وهى صورة اللؤ م بصورة أفضل وأحسن منها وهى الصورة الجيدة،صورة صفاء الطباع والبعد عن الخبث.ولكن هذه الصورة تغيرت مع مرور الزمن إذ قال وهو يخاطب رحالة الشرق (٥) :

(١) قرآن كريم ــ سورة هود ــ (آية ٤٠) .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٨ .
(٥) بعد رحلة طويلة شاقة فى صحراء ليبيا ، استطاع الرحالة المصرى الكبير أحمد حسنين أن يسدى الى العلم يداً بيضاء ، وأن يكشف للناس عن مجاهل هذه البيداء ، فلما عاد قابلته البلاد .

رحالة الشرق ، أن البيد قد علمت بأنك الليث لم يخلق له الفزع [1]
ماذا لقيت من الدو [*] السحيق ، ومن فقر يضيق على السارى ، ويتسع ؟
وهل مررت بأقوام كفطرتهم من عهد آدم لا خبث ولا طبع ؟ [*]

أما قصة خروج آدم من الجنة فقد استغلها شوقى كما وردت فى القرآن الكريم ، فى تصوير قصة منفاه فى الأندلس، ولكنه أورد فى بيته التالى قضية متشعبة الأطراف ، فقارن نفسه منفياً الى الأندلس بآدم منفياً الى الدنيا إلا أن نفى آدم كان من الجنة الى مادونها ، بينما نفى الشاعر كان الى مكان أدنى الى الجنة بغير شك ، فقد كان سعيد الحظ إذ كان منفاه الى أرض أكرمته وأعزته وأحاطته برعايتها وعنايتها ، فهو لا يستطيع أن يقول عنها إلا خيراً :

مغرب بآدم من دار عدن قضاها فى حماك لى اغترابا [2]

ويقول تعالى : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » [3]

وقال تعالى : « فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سؤاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال : اهبطا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » [4]

ويتصور بعض الناس أن خطيئة آدم بعصيانه هى التى أخرجتنا من الجنة .. ولولا هذه الخطيئة لكنا اليوم هناك . وهذا تصور ساذج لأن الله تعالى حين شاء أن يخلق آدم قال للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ولم يقل لهم انى جاعل فى الجنة خليفة . ولم يكن هبوط آدم الى الأرض هبوط اهانة وإنما كان هبوط كرامة كما يقول الصوفيون . وكانت

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٥٧
(*) الدو : المفازة
(*) طبع : الشين العيب الدنس .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٦٥
(٣) قرآن كريم — سورة البقرة — (آية ١١٥) .
(٤) قرآن كريم — سورة طه — (آية ١١٧ : ١٢٣)

التجربة كلها ركناً من أركان الخلافة فى الأرض ... ليعلم آدم وحواء ويعلم جنسهما من بعدهما أن الشيطان طرد الأبوين من الجنة ، وأن الطريق الى الجنة يمر بطاعة الله وعداء الشيطان .

وكثيراً ما كان شوقى يعمد الى قصة النبى (يوسف) وأبيه (يعقوب) ليستخرج منها نظائر مثلى لموصوفاته وأحياناً يجد من السهل أن يشبه نفسه وأهله بيوسف الصديق. ويجد بعضا من الانطباق الذاتي بينهما في بعض المواقف ، فعندما جاء أجداد شوقى الى مصر غرباء زمن محمد على ، رأى الشاعر هذا التشابه الغريب ممثلا فى يوسف الصديق وكان من الوافدين الذين ربحت تجارتهم كما ربحت تجارة جد شوقى وسميه .

وعندما صار شوقى شاعر الخديوى (عباس حلمى) ــ حكم مصر ١٨٩٢ : ١٩١٤ ــ الذى يدعى (بالعزيز) [*] وهو اللقب الذى أعطاه القرآن لوزير فرعون الذى اشترى (يوسف الصديق) فصار شوقى يدعى بشاعر العزيز أى شاعر الخديوى ، وقد اعتد شوقى بهذا اللقب الذى أشار إليه فى بائيته المعروفة :

شـــاعـــرنـــا الـــعـــزيـــز ومـــا بـــالـقـلـيـل ذا الـلـقـب [١]

و (عزيز مصر) أشار إليه القرآن فى قصة يوسف ، قال تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر » [٢]

والاشارات الى يوسف (عليه السلام) متعددة فى شعر شوقى.وحتى فكرة العفاف التى تتردد فى غزلياته منتزعة من حياة (يوسف) أو من تلك الحادثة التى تصف علاقته مع امرأة العزيز إذ يقول :

جـاذبـتـنـى ثـوبـى الـعـصـى وقـالـت أنـتـم الـنـاس أيـهـا الـشـعـراء [٣]

وفهم البيت يتم بسورة يوسف ، قال تعالى : « وقدت قميصه من دبر » [٤]

(*) العزيز : لقد حاول الخديوى اسماعيل بن ابراهيم باشا الذى حكم مصر عام ١٨٦٣ م شراء لقب العزيز من السلطان العثمانى عبدالعزيز ، فلم يوافق السلطان لذا أخذ مكانه لقب (خديوى) ، وكان حاكم مصر قبله يسمى (الوالى) ولكن الخديوى (عباس حلمى) ابنه استطاع الحصول على لقب (عزيز) .

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١١٢

(٢) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٨٨) .

(٣) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ١١٢

(٤) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٢٥) .

ويستغل شوقى مصر الفرعونية فى اذكاء الروح القومية المصرية ، ويستنبط العبر من تاريخها ولكنه لم يكتف بوصف هذه الحضارة من الناحية السياسية والقومية ، وإنما وصفها من الناحية الدينية وربطها بمصر القرآنية ، وان مصر الفرعونية أرض مقدسة ، هبطها الأنبياء ومشوا على ثراها ، ونزلت فيها أولى الشرائع ، كما أنجبت أم العرب ، فهاجر أم اسماعيل ما كانت سوى فتاة مصرية من أرض الفراعنة .

واستغل القصص القرآنى فى اتخاذ الفكرة والعبارات . فحين يصف الحضارة يذكر هذه الأرض المقدسة والأنبياء الذين مشوا فيها مثل يوسف وموسى ومريم والمسيح ، ويقول مستوحياً ذلك من قصة يوسف :

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق [1]

... ...

وجمال يوسف لايزال لواؤه حوليك فى أفق الجلال يرنق

ودموع أخوته ، رسائل توبة مسطورهن بشاطئيك منمق

فجمال يوسف (عليه السلام) ذكره الله فى محكم كتابه « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشى لله » [2]

أما قصة يوسف (عليه السلام) مع أخوته فيصورها القرآن الكريم أحسن تصوير عندما التقى يوسف بأخوته فى مصر قال تعالى : « قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » [3]

وفى رثاء شوقى للدكتور (أحمد فؤاد) الذى يعتبر من نوابغ الطب المعدودين المتوفى سنة ١٩٣١ م ، شبه الفقيد (بيوسف الصديق) عليه السلام ليمهد بذلك لتشبيه أبيه ب (يعقوب) عليه السلام فى صبره على فراق أبنه ومحنته مستوحياً ذلك من واقع القصص القرآنى ، ويستخرج من ذلك نظائر مثلى لموصوفه ، قال شوقى :

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٧٢

(٢) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٣١) .

(٣) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٩٠ : ٩٢)

رحماك (يوسف) قف ركابك ساعة　　　واعطف على يعقوب فيه حزيناً [١]

وقال تعالى : « انما أشكو بثى وحزنى الى الله » [٢]

وقد أعجب شوقى من قصة النبى (يعقوب) وابنه (يوسف) عليهما السلام موقف يعقوب الأب ، ويظهر ذلك فى تشبيـه شوقى تأثير مقدم المغتربين فى الوطن بتأثير قميص يوسف فى أبيه :

وإذا أتـاه مـبـشـر بـقـدومـهـم　　　فمن القميص ومن شذى أردانه [٣]

فى حين أن المتنبى استخدم هذا التشبيه ليصور كرم ممدوحه وتأثير السؤال فيه بتأثير قميص يوسف فى أبيه يعقوب والعلاقة بين المشبه والمشبه به كالعلاقة بين السمع والبصر ، يقول :

كأن كل سؤال فى مسامعه　　　قميص يوسف فى أجفان يعقوب [٤]

ويستكمل شوقى دائرة تأثره بالقصص القرآنى ليشير الى قدم الحضارة المصرية وبأنها عرفت خياطة الثياب من قبل ادريس [*] (عليه السلام) وعرفوا صناعة الدروع قبل النبى (داود) عليه السلام ، اتخذ شوقى بعض مقومات صوره الشعرية من القرآن الكريم الذى تكثر فيه الاشارات الى هؤلاء الأنبياء . يقول :

وغـزلـنـا قـبـل ادريـس الـكـسـا　　　ونـسـجـنـا قـبـل داود الـزرد [٥]

وواضح أن عناصر الصورة استمدها شوقى من قوله تعالى عن هذه الدروع التى علم (داود) عليه السلام صنعها وقاية للمقاتلين حين البأس : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » [٦]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٣ ــ ص ١٦٧ .
(٢) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ٨٦) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٥٩ .
(٤) ديوان المتنبى ــ ج ١ ــ ص ١٧٢
(*) ادريس : هو نبى الله عليه السلام واسمه فى التوراة العبرية (خنوخ) وكان الأول من بنى آدم الذى أعطى النبوة ، وقال أهل العلم بأخبار الماضيين وقصص النبيين ، أنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط .
(٥) ديوان شوقى ــ ج ٤ ــ ص ٢٨
(٦) قرآن كريم ــ سورة الأنبياء ــ (آية ٨٠) .

ومن المشاهد القصصية التى استطاع أن يستوحى منها شوقى عنصر المعجزة الكامنة في القوة (ناقة صالح)وصالح هو نبى الله عليه السلام ورسوله الى قبيلة (ثمود).والناقة هذه من آيات صالح لقومه أن جاءهم بناقة كان لهاشرب يوم،ولهم شرب يوم،وحذرهم صالح من أن يمسوها بسوء لأنها « ناقة الله » .[1] فخرجوا عن أمره وعقروها فوقع عليهم عذاب ربهم ، وكانت الناقة من القوة بمكان إذ يخصص لها شرب يوم لايشركها فيه غيرها . وشوقى يخاطب ربه سبحانه وتعالى ويعترف بخطاياه التى يحملها فحتى لو أن الله أراد أن يذلل له (ناقة صالح) فلن تلين ولاتذل لكثرة ما يحمله من خطايا.وهذا الاعتراف ورد فى تهنئة شوقى للخديوى عباس حلمى بمناسبة الحج سنة ١٩١٠ م وقد دعا الخديوى شوقى للحج معه ولكنه تخلف عن ذلك ، يقول :

ويارب ، لو سخرت ناقة (صالح) لعبدك ، ما كانت من السلسات [2]

وعند شوقى نرى أمثلة أخرى لهذا الاستمداد من القصص القرآنى على نحو ما،من ذكر للأمم القديمة مثل (عاد) و (ثمود) وأحاديث القرى الأخرى من هذه الأمم ففى قصيدة (الهلال) التى نظمها شوقى فى مناسبة عيد ميلاده الثلاثين يقول :

سنون تعاد ودهر يعيد لعمرك ما فى الليالى جديد [3]
أضاء لآدم هذا الهلال فكيف تقول :الهلال الوليد ؟
نعد عليه الزمان القريب ويحصى علينا الزمان البعيد
على صفحتيه حديث القرى وأيام (عاد) ، ودنيا (ثمود)
و (طيبة) آهلة بالملوك (وطيبة) مقفرة بالصعيد

قضية عامة يستهل بها الشاعر قصيدته لا تخلو من الابهام،وتعنى أن الدهر يرجع السنين لنا كما هى ، ففى اللفظ (تعاد) واللفظ (يعيد) رتابة وآلية لا تحمل فى طياتها أى شيء جديد .

ان إحساس الشاعر برتابة الحياة إحساس كامل مطلق . فالقمر الذى يضىء له الآن هو نفس القمر الذى أضاء لآدم . بل إحساسه برتابة حياته ومللها ، وبالتالى بطولها يجعله يشعر بأنه هو آدم ، وقد مر بنا من مواقف شوقى وتشبيه نفسه بالأنبياء كثيراً .

(١) قرآن كريم ــ سورة هود ــ (آية ٦٤) .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٩
(٣) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٢٩

وكعادة شوقى فى استخدام المقابلة فى شعره كثيراً استخدم الطباق فى (الزمان القريب) و (الزمان البعيد) ليس من باب البديع فقط ، وإنما هو ظاهرة أساسية يقوم عليها بناء القصيدة ، فالمقابلة بين الزمان القريب ، أى الزمان البشرى القصير العابر ، وبين الزمان البعيد ، أى الزمان الكونى الشاسع،تلك المقابلة التى نشأت عن وقوف الشاعر بالليل وحيداً ازاء الكون ، ومنها يقابل بين صمود القمر الأزلى وبين ما فى تاريخ البشرية من أحداث هائلة متغيرة (على صفحتيه حديث القرى) فهذا الجناس الذى فى العبارة واضح إذ يعتبر الشاعر سطح القمر صفحة سطر عليها تاريخ البشرية ، وهى صورة مرتبطة ارتباطاً عضوياً بما جاء قبلها من أن القمر يحصى على البشرية الزمان البعيد ، ولذلك فهو يدون ما يحصيه على صفحتيه . وحين يفصل الشاعر القرى والحضارات المسطر تاريخها على وجه القمر ، نجده يذكر أسماء مدن وحضارات مشحونة بالايحاءات العاطفية منها الجاهلى والاسلامى ومنها الفرعونى ، وأسماء من القرآن الكريم أو من تاريخ مصر القديم »وأيام (عاد) ودنيا (ثمود) ».ولا تعنى كلمة « أيام » الزمن فقط ، وانما هى تذكرنا بأيام العرب ، أى الحروب والمعارك مما يقوم عليه التاريخ فى مفهوم العرب القديم . كذلك توحى لفظة « دنيا » بالمجد والعظمة فى هذه الحياة ، وكثيراً ما ورد أسماء قبيلتى عاد وثمود معاً فى شعر القدماء مثل الأعشى وطرفة وزهير ، وهما يرمزان الى المجد الغابر وزوال كل عظمة وجبروت . وتدل « عاد » أيضاً على ما هو قديم ، وما ينتمى الى فجر تاريخ البشرية ، كمافى عبارة (من عهد عاد) لذلك كان ذكر (عاد) أمراً طبيعياً مهد له ذكر آدم فى البيت الثانى من القصيدة ويرد ذكر (عاد وثمود) معاً فى القرآن الكريم ، عبرة لكل من طغى وفسد نتيجة ما أحرزه من مجد وجبروت فى هذه الدنيا . قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، أرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخرة بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد » (١)

لقد مضت (عاد) و (ثمود) الى غير رجعة ولم تخلفا أى أثر محسوس . ولكن (طيبه) التى كانت آهلة بالملوك يوماً من الأيام ، أصبحت الآن بقعة مقفرة فى صعيد مصر يراها الجميع .

---

(١) قرآن كريم ـــ سورة الفجر ـــ (آية ٦ ، ٧) .

ولنلاحظ أن أبرز عنصر فى هذا الوصف هو روعة العمارة والهندسة فى « ارم ذات العماد » ولعل هذا يفسر لنا لماذا كان انتقال شوقى من عاد وثمود الى (طيبه) بالذات عاصمة مصر الفرعونية بآثارها الرائعة ، انتقالا طبيعياً للغاية .

وقال عز وجل عن قوم عاد : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » (١) « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (٢)

وقد اعتد شوقى بالقصص القرآنى،وكان يقصد من وراء ذلك ضرب المثل واتخاذ العظة من خلال أحداث هذا القصص ، فهو حين يشبه الخليفة محمد رشاد العثمانى بالنبى محمد (ص) ومقامه من الله ، فالرسول (ص) قد فضله الله على مخلوقاته وأمره بتبليغ الرسالة للبشرية لهدايتها أما الكفار فمصيرهم النار شأن كل متمرد ، والخليفة العثمانى كالرسول (ص) فى مقامه،أما أعداء هذا الخليفة فمصيرهم النار إذ يقول :

هـذا مـقـام أنـت فـيــه مـحـمـد أعـداء ذاتـك فـرقـة فـى الـنـار (٣)

ومقام الخليفة يقصد به شوقى مجلسه أى عرش الخلافة ، إذ شبهه بالرسول (ص) فى مقامه ، حتى أن أسمه محمد نفس اسم الرسول ، وجعل الخارجين عليه مصيرهم النار . ولكن فى بيت شوقى تورية ، فثمة معنى قريب يتبادر فهمه من الكلام ، والمقصود به رسول الله (ص) ، ومعنى بعيد آخر المراد به الافادة لقرينه وهو الخليفة محمد رشاد . وقد استوحى ما جاء فى قصة الرسول (ص) من جهاده للكفار وعقاب رب العالمين لهم،من القرآن الكريم .

وقد استخدم شوقى هذه الظاهرة وهى ما نسميها اللعب بالألفاظ حينما تحدث عن معجزات محمد،ويقصد به محمد طلعت حرب ، فقد استوحى قصة معجزات الرسول (ص) من القصص القرآنى ، يقول بمناسبة افتتاح دار جديدة لبنك مصر فى الأسكندرية سنة ١٩٢٩ م :

---

(١) قرآن كريم ــ سورة الذاريات ــ (آية ٤١) .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الحاقة ــ (آية ٦) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٤٠ .

من كسر بيت ، أو جدار سقيفة رفع الشبات بناية كالفرقد [1]
فاذا طلعت على جلالة ركنها قل : تلك احدى معجزات محمد

وفى اللفظ تورية أيضاً من باب اللعب بالألفاظ عند شوقى ، إذ هو يذكر لفظاً له معنيان قريب يتبادر فهمه من الكلام ، وبعيد وهو المراد بالافادة لقرينة خفية ، فالمعنى القريب هنا هو محمد (ص) والبعيد هو محمد طلعت حرب .

وشوقى تأثر بهذا القصص جملة وتفصيلا ، فأحياناً يمتد تأثره ليشمل القصة بكاملها ، وأحياناً أخرى يشمل بعض أحداثها ليأخذ من هذه القصص مثلا لموصوفاته .

وهنا يمكن أن نسجل ملاحظة لها أهميتها هو أن هذا التأثير الاسلامى — على تنوعه وتعدد فروعه — قد توحدت مصادره والتقت عنده الفروع ، واجتمع من حوله شعراء الاحياء يستمدون ويتأثرون بدرجات متفاوتة حسب قربهم منه أو بعدهم عنه . ولكن شوقى كان أكثر أقرانه تفوقاً فى الناحية الدينية ، وقد ذكرنا الأسباب فى أكثر من موضع من هذا البحث . وذلك نتيجة للظروف التى يعيشونها ونظام الحكم المحيط بهم من الخلافة الى الخديوية الى غيرهمامن السلطات ، وقد استغل شوقى نهر التيار الاسلامى بمياهه الغزيرة وفروعه المتعددة بحجمها وقوتها لينهل منه مادته الشعرية .

صور دينية :

يمكن أن نرد أوجه التشابه فى مصادر الصور عند شعراء الاحياء الى الموروث الثقافى ، فقد كان هؤلاء الشعراء ومنهم أحمد شوقى — بشكل أو بآخر — يقتبسون من القديم ، ويستمدون منه ، وفى الحق أن النزوع نحو القديم ، أو بكلمة أدق احياءه وبعثه كان — أيامها — موقفاً حضارياً عاماً شمل جميع مجالات الحياة ، وأوجه النشاطات المختلفة . وعبر عن اعتصام الوجدان الجمعى بتقاليده وقيمه أمام المد الاستعمارى الذى لم يكن غزواً عسكرياً فحسب ، بل كان غزواً حضارياً وفكرياً أيضاً . وقد أوجدت حساسيات الفترة وظروفها — ازاء هذا الغزو بشتى صوره ومخاطره — مناخاً من نوع خاص جعل الردة الى الموروث القديم فى أعصر نقاوته وقوته دليل صحة ثقافية ونفسية ، وملاذاً يحمى الشخصية ويمسكها ، وبشكل مختصر جعل من احياء الموروث واستلهامه ، استقطاباً كاملا للتجربة العربية ، وتحقيقاً للذات القومية .

---

(١) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٢٥

ويعد (محمد سامى البارودى) رائداً لحركة الاحياء فى نطاق الأدب ، فقد كان بداية جديدة من حياة الشعر العربى خلفت فترة طويلة من الجمود لم تفده شيئاً ، وما لبث أن تلقف هذا الاتجاه الكلاسى الاحيائى جماعة من الشعراء حذوا حذوه فى موقفه من القديم أو التقليد ، وان اختلفوا واياه فى درجة الموقف دون أن يختلفوا معه فى نوعه . هؤلاء الشعراء هم الذين نطلق عليهم « الشعراء التقليدين » ويسمى شعرهم « الاحيائى الكلاسيكى » ، ومنهم حفنى ناصف ، اسماعيل صبرى ، مصطفى صادق الرافعى ، محمد عبدالمطلب ، وحافظ ابراهيم ، وشاعرنا أحمد شوقى وغيرهم . ولم يكن هذا الموقف الفنى ــ الوعى بالقديم والاستمداد منه ــ هو الموقف الوحيد فى هذه الفترة الكلاسيكية ، فقد دعمه وقوى فيه الموقف السلفى الذى قام هو الآخر على أساس المحاكاة النمطية ، ومن المعروف فى حدود هذا الموقف أن تقليد النموذج (القرآن فى أسلوبه ، والرسول فى شخصيته وسلوكه ، والدين بعامة فى قواعده وقوانينه) قيمة مقررة يؤكد عليها الدعاة والمبشرون ، ويطالب بها المصلحون الدينيون ، وهذا ما حدث فى موقف (جمال الدين الأفغانى) و (محمد عبده) فى دعوتها الاصلاحية للرجوع الى جوهر الدين .

أما القصيدة الاحيائية فهى بصورة عامة تستعمل نمطين من تقرير المعنى : النمط الحرفى الاشارى ، والنمط الصورى البلاغى . وعلاقة الأول بالثانى ما هى إلا علاقة التابع بالمتبوع أو الفضلة بالأصل ، ومعنى هذا أن الشاعر كان يفهم عمله ويقدمه على أساس ثنائى مزدوج يسير فى خطوتين متتابعتين أو منفصلتين ، فهو يعرف الفكرة فى الخطوة الأولى ، ثم يلبسها صوراً مستقلة عنها فى الخطوة الثانية . وبما أنه يعتمد ــ غالباً ــ على الموروث الثقافى فى صنعته اللغوية فان هذا الموروث يخلف خبرة ، والخبرة تستقر فى الذاكرة ، والذاكرة تمد بمخزوناتها ملكتين أو نشاطين : نشاطاً ذهنياً ، ونشاطاً خيالياً يدور فى نطاق الأول ، والنشاط الذهنى ينتج أفكاراً أو اشارات حرفية ذات دلالات محددة ، والنشاط الخيالى ينتج الأشكال الفنية ، وعن طريق التعارض أو التقابل بين الفكرة والصورة يتشكل بناء القصيدة الإحيائية .

وشوقى كغيره من شعراء الإحياء سار على هذا النهج فى شعره ولكن فى مجموعة صور الثقافات نرى صور (الدين) عند (شوقى)تكثر بشكل بارز . وهذه الصور تمثل جانب الرؤية فى حياة الشاعر ، ولعل شوقى فى هذا الضرب من الصور الدينية بخلاف التقليدية

يفوق جميع أقرانه ، وتدلنا الدراسة لشعر شوقى على أن القيم الدينية فى قداستها ومعطياتها تشكل جانباً من وعى الشاعر ، أما الجانب الآخر فتشكله قيم الحياة اللاهية ، وفى اندماج هذين النمطين من القيم وتلاحمهما تتكون شخصية شوقى التى يؤثر بعضهم أن يصفها بالازدواج [1] . ونؤثر أن نصفها بالطبيعة والاستواء ، وليس مهمتنا أن نناقش فيما إذا كان متديناً أو لاهياً ، أو الاثنين معاً وفى آن واحد ، ولكن الواضح لنا من خلال دراستنا لصوره أن ثقافته الدينية واحساساته الدينية وأفكاره الدينية تشكل حجر الأساس فى رؤيته للحياة ، وسواء ارتبطت فى ذهنه خمرة الدنيا بخمرة الآخرة ، أو جنة الأرض بجنة السماء ، أو جمال الأنثى الزائل بجمال الحور العين الخالدة،فهذه كلها ارتباطات تؤكد الرؤية ولا تلاشيها .

وصور شوقى الدينية المستمدة روحها من القديم تنوعت المصادر فيها ، فمنها الصور التقابلية والصور التشبيهية والكنائية وغيرها من أنواع الصور . أما المقابلة فكثيرة الاستخدام فى شعر العرب ونثرهم ، فلا تكاد تخلو أعمالهم من مثال منها . « وإنما تكون المقابلة فى الكلام بالتوفيق بين المعانى التى يطابق بعضهاالبعض والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضى لأحدهما أن يذكر مع الآخر من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب ، على صفة من الوضع تلائم بها عبارة أحد المعنيين عبارة الآخر كما لاءم كلا المعنيين فى ذلك صاحبه » [2] .

وقد عد البلاغيون المقابلة من أبرز مقومات الشعر وأبين علامات جودته ، ومن خلال دراستنا لصور شوقى لاحظنا وفرة استخدامه للمقابلات وتوظيف هذه المقابلات للتعبير بها عن صوره الدينية ، وخير ما نبدأ به من مقابلاته هذا الدعاء لله تعالى . والذى قابل فيه بين الأمس واليوم ، وبين اليوم والغد ، إذ يقول :

فكن لنا اللهم فى أمسنا ... وكن لنا اليوم ، وكن فى غد [3]

---

(١) أنظر مقدمة ديوان شوقى — لهيكل .

(٢) منهاج البلغاء الأدباء — حازم القرطجنى — تحقيق محمد الحبيب بن خوجة — دار الكتب الشرقية — تونس ١٩٦٦ — ص ٥٢ .

(٣) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٢٥

ومن صوره الدينية التى استخدم فيها المقابلة بين مصدرين هذه الصورة التى يصف فيها غزوات الرسول الكريم فى سبيل الحق واعلاء كلمته على العكس من صورة الحرب التى يبعثها الأقوياء المتجبرين لتحقيق مطامعهم وينوء تحت ويلاتها الضعفاء من الناس لأنها حروب بعيدة عن ميدان الحق . إذ يقول :

والحرب يبعثها القوى تجبرا ... وينوء تحت بلائها الضعفاء [1]
كم من غزاة [*] للرسول كريمة ... فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدة ... فى إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاء

قابل شوقى بين المصدرين (شدة ، رخاء) .

ولشوقى مقابلات تعتبر ذات معنى دلالى يفهم من السياق إذ يقول :

ولنجعل مصر هى الدنيا ... ولنجعل مصر هى الدينا [2]

فالدنيا تقابلها فى اللغة الآخرة ، والدين يقابله الكفر ، ولكن الشاعر فى مقابلته الدنيا بالدين حصر معنى الدنيا فى صلاح المعاش ، دون معنى المادة واللذة ، وحصر معنى الدين فى صلاح المعاد ، دون معنى الايمان والتعبد .

ويستخدم شوقى المقابلة بين الأرض والسماء ويوظف هذا الاستخدام فى صياغة صوره ، إذ أن السماء كثيراً ماترد عنده للتعبير عن الرفعة . أما المقابلة بين الأرض والسماء فهو كناية عن الكون كله ، وقد قابل بين السماء والأرض بوصفها (غبراء) عندما توجه بخطابه للرسول (ص) فى مولده إذ يقول :

بك بشر الله السماء فزينت ... وتضوعت مسكاً بك الغبراء [3]

قابل شوقى بين السماء وهى اسم جامد وبين الغبراء (الأرض) وهى اسم مشتق .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٠
(*) غزاة : جمع غزوات : اسم من الغزو .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢٣ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤ .

ومن مقابلاته بين مكانين والتى تماثل مقابلته بين الأرض والسماء كما مر بنا ، هى مقابلته بين الشرق والغرب وكنى عن هذا التقابل بقوله :

فقل لرسول الله يا خير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات [1]
شعوبك فى مشرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات

ضمير المخطاب لرسول الله محمد (ص) والشعوب هذه الأمم الاسلامية المنتشرة فى الشرق والغرب يجمعها نظام واحد ، وقد قابل شوقى بين الشرق والغرب مقابلة مكانية . ويأتى الشرق والغرب عند شوقى تارة كناية عن عموم الأمكنة ، وتارة أخرى يعنى الشاعر بالشرق ما شمل العرب والمسلمين والعثمانيين والمصريين ، ويعنى بالغرب ما شمل غيرهم .

ويشبه شوقى هذه الشعوب فى سياق دينى أصحاب الكهف وهم فتية آووا الى الكهف سنين لايعلمون من أمر دنياهم شيئاً . قال تعالى : « إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » [2]

وتكثر المقابلات عند شوقى فى قصائده المطولة التى يغلب عليها النفس الملحمى ، كقصائده الدينية إذ يقول :

يوم يتيه على الزمان صباحه ومساؤه (بمحمد) وضاء [3]

قابل شوقى بين الصباح والمساء فى ذكره مولد الرسول (ص) وهذه عنده نوع من المقابلات الزمنية .

وشوقى يردد دائماً علو منزلة الرسول (ص) وسموها . وعندما يصف الرسول محمد (ص) وما يتعلق به يدخل فى مقارنة تفاضلية بينه وبين الناس الآخرين ليوضح بأن الله فضله واصطفاه على مخلوقاته يقول :

خيل الرسول من الفولاذ معدنها وسائر الخيل من لحم ومن عصب [4]

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٠١
(٢) قرآن كريم ــ سورة الكهف ــ (آية ١٠ : ١١) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٥

قابل بين خيل الرسول (ص) والخيل عموماً لغاية المقارنة التفاضلية بينها ، وبيان تفوق خيل الرسول فى القوة والصلابة .

وتأتى عند شوقى المقابلات المركبة التى يوظفها فى صوره ، ففى ذكره (جبريل) عليه السلام وهو يحمل رسائل الله سبحانه وتعالى الى رسوله محمد (ص) يقابل بين التراكيب التى تؤدى دوراً مزدوجاً ، فمهما كانت القضية المطروحة متعددة العناصر فان المقابلة المركبة تؤدى هذا الغرض ، يقول شوقى :

فلجبريل جيئة ، ورواح وهبوط الى الثرى ، وارتقاء [1]

قابل بين المجىء والرواح ، وبين الهبوط والارتقاء ، وفيهما معنى الحركة .

ويقابل شوقى بين (صبا الخلد) وهى أسماء الجنة وبين (صبا الدنيا) ليوضح لنا مدى ديمومة الأول وقصر الثانى ، يقول :

فصبا الخلد كثير دائم وصبا الدنيا عزيز مختصر [2]

ويقابل بين النور والظلام إذ يقول فى وصف (المعلم) :

أخرجت هذا العقل من ظلماته وهديته النور المبين سبيلا [3]

وتأتى المقابلات فى صور شوقى لتعزيز دلالتها الايحائية أو تصوير حركة معينة فى الانتقال من نقطة الى أخرى .

ومن صور شوقى التشبيهية والتى استخدمها ووظفها لخدمة غرضه هذه الصورة الدينية المستوحاة من أكثر من مصدر ، إذ استوحاها من التاريخ الاسلامى أولا ، ثم من أوصاف الأنبياء ثانياً ، والصورة هى وصف للعلم التركى ، يقول :

هذا الهلال الذى تحيون ليلته أبهى الأهلة عند الله ألواناً [1]

... ...

---

(١) ديوان شوقى — ص ٣٠

(٢) نفس المصدر السابق — ص ١٢٥ .

(٣) نفس المصدر السابق — ص ١٢٥ .

(٤) ديوان شوقى — ص ٣٠

لحامليه جلال منه مقتبس كأنما رفعوا للناس قرآناً
كأن ما أحمر منه حول غرته دم البرىء زكى ، الشيب عثماناً
كأن ما أبيض فى أثناء حمرته نور الشهيد الذى قد مات ظمآناً
... ...
كأنه من جمال رائع وهدى خدود يوسف لما عف ولهاناً
كأنه وردة حمراء زاهية فى الخلد قد فتحت فى كف رضواناً

والى جانب استخدام التاريخ وأوصاف الأنبياء اعتمد فى صورته على ابراز اللونين الأحمر ليقابله بالأبيض ، فالأحمر يشمل (احمرار الوجه حول الغرة والورد وخدود يوسف) ، وهناك رابطة لونية بين الدم والورد والخدود . والبياض يشمل (شيب عثمان ونور الشهيد ويقصد به الحسين بن على) . وهي تقابلات يرد بعضها الى تداعى المعانى لديه ويرد بعضها الآخر الى طبيعة شوقى الانسانية التى كانت تجمع بين الضدين . ونستطيع أن نعمم هذه الملاحظة على جميع مقابلاته كمقابلته الضوء بالظلام ، والضحك بالبكاء ، والموت بالحياة ، وهذا ينطبق على معظم صوره ولاسيما صوره التى يرثى بها ويتفنن خلالها فى تقديم صور الأفياء والأطياف والألوان على خلفية اشارية متكلفة التركيب .

ويعمد شوقى الى استخدام أداة التشبيه (كأن) فى معظم صوره لخلق هذه الصور كما مر بنا فى الأبيات السابقة ، ولكن الصور التى خلقها وأتى بها بشكل تراكمى — هذه الصور — لم تجعل متنفساً للقارىء بتلاحقها لذا يصح أن نطلق عليها (صوراً تراكمية) وهذا التراكم جاء صدى لما هو متراكم فى ذهنه من صور للتاريخ والأعلام يريد أن يخرجها بغض النظر عن ملائمتها أو عدمها .

ومن صوره التراكمية ما أورده من أبيات فى قصيدته (صدى الحرب)وهى فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية . يقول :

كأنا أسوداً رابضات كأنهم قطيع بأقصى السهل حيران مذئب (٥) (١)

---

(١) ديوان شوقى — ج — ص ٣٠

يكرر شوقى (كأن) ست عشرة مرة الى أن ينتهى منها فى قوله :

كأن الوغى نار ، كأن بنى الوغى فراش ، له فى ملمس النار مأرب [1]

وهذا اللون من الصور التراكمية ذات الطبيعة التشبيهية التسجيلية يتميز عند شوقى بأنه أقرب الى البناء الحرفى الاشارى المباشر منه الى البناء الصورى الموحى ، والشاعر يدرك أنه يقدم علاقة شبه بين موضوعين لكن علاقة المقارنة لا ترتبط بالنفس الشاعرة ولا تمت إليها بصلة .

وعلى غرار الصور التشبيهية التراكمية فان لدى شوقى جملا شرطية تراكمية أيضاً وردت بشكل تركيبى تصويرى مكونة أبياتاً من قصيدة (الهمزية النبوية) إذ يقول مخاطباً الرسول (ص) :

فاذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء [2]
وإذا رحمت فأنت أم ، أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فأنما هى غضبة فى الحق ، لا ضغن ولا بغضاء

ويكرر شوقى (إذا) الشرطية فى الأبيات الأربعة عشر من القصيدة الهمزية ، وكل بيت يستهله بحرف العطف النسقى (الواو) ، وهنا محاولة منه لاستيفاء جوانب كريمة من أخلاق الرسول (ص) فاقتضاه تفصيل هذه الجوانب أن يكرر الشرط . هذه الظاهرة وهى (الصور التراكمية) تكررت لدى شوقى كثيراً فى شعره وتعبتر لديه من باب الظواهر الأسلوبية .

ومن صور شوقى التى استخدم فيها التشبيه ليجعل التعبير ممكناً هذه الصور :

تاهت (فروق) [*] على العواصم ، وازدهت بجلوس أصيد [*] باذخ المقدار [3]
(جم الجلال ، كأنما كرسيه جزء من الكرسى ذى الأنوار)

---

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٥٤ : ٥٥ .
(٢) نفس المصدر السابق ـ ص ٣٥ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٣٩ .
(*) (فروق) : الأستانة .

جعل الخلافة كأنه جزء من عرش الله (الكرسي ذى الأنوار) وقال تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » (١)

وشوقى شغوف بالتشبيه بالأنبياء فى شخصياتهم والأحداث المحيطة بهم ، ويتخذ من الأنبياء نظائر لموصوفاته . فقد صور خوفه وفزعه على الأبناء الصغار وهم ذاهبون صباحاً بالقطار الى المدارس وعائدون مساء ، وحتى صفير هذا القطار يسبب له الفزع لأنه سلاح ذو حدين فهو واسطة نقلهم لتلقى التعليم ، وفى نفس الوقت مصدر خطر عليهم ، إذ شبه شوقى القطار بالذئب الذى ادعى أخوة يوسف (ع) لدى أبيهم يعقوب أنه أكل ابنه ، والى هذا تشير الآية الكريمة : « يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال انى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » (٢)

يقول شوقى :

يعقوب من ذئب بكى مشفقاً   فكيف أنياب الحديد الحداد (٣)

هذا التشبيه الذى أورده شوقى فى هذه الصورة هو تشبيه ضمنى خفى ، من أساليب التضمين التصويرى عند شوقى ، وهى الاشارة الخاطفة الى أحداث قديمة تنتمى الى سجل الثقافة العامة .

ويشبه شوقى كذلك السلطان العثمانى (عبدالحميد) بالنبى (عيسى المسيح) عليه السلام فى احيائه الموتى بما أوتى من معجزات بقدرة الله تعالى ، إذ أن للخليفة معجزاته فى احياء ما درس من الآثار واحياء عرش الخلافة ، إذ يقول :

فأحييت ميتا ، دارس الرسم غابرا   كأنك فيما جئت عيسى المقرب (٤)

مديح الخلفاء واضفاء صفة النبوة عليهم والقداسة ماهى إلا صدى لعاطفة شوقى التركية ، وكيف لا وهو القائل فى مقدمة ديوانه « أنا إذن عربى تركى يونانى شركسى » ، وهو القائل :

---

(١) قرآن كريم ــ سورة البقرة ــ (آية ٢٥٥) .
(٢) قرآن كريم ــ سورة يوسف ــ (آية ١١ :١٣) .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١١٦ .

وزينب [*] ان تاهت وان هى فاخرت فما قومها إلا العشير المحبب [1]
يؤلف ايلام الحوادث بيننا ويجمعنا فى الله دين ومذهب

ومن صوره الدينية هذا التشبيه التمثيلى الذى يشبه به الرسول محمد (ص) وعموم المصلحين باليد وأصابعها ، يقول :

المصلحون أصابع جمعت يدا هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء [2]

ومن قوله يمدح الرسول (ص) صورته التشبيهية هذه :

وبدا محياك الذى قسماته حق ، وغرته هدى وحياء [3]

جمع شوقى فى الصورة السابقة بين تشبيه قسمات الوجه بالحق وتشبيه الغرة بالهدى والحياء .

ولشدة اعجاب شوقى بالأنبياء وما يفعلون لم يترك حادثة تمر ولا أى موقف إلا يستغله فى التشبيه بالأنبياء ، حتى أنه شبه (الصليب الأحمر) وهى المنظمة الدولية التى تشارك فى اغاثة المصابين فى الكوارث والحروب بالنبى (ابراهيم الخليل) عليه السلام . يقول :

وإذا الوطيس رمى الشباب بناره خض (كالخليل) إليهم النيرانا [4]

وفى بعض صور الشاعر التشبيهية نراه يستوحى أفكاره من بعض أحاديث الرسول (ص) ، كقوله وهو يخاطب بنى عثمان (الترك) ويوصيهم بجيرانهم من المقاتلين فى طرابلس ضد الغارة الايطالية :

يا قوم عثمان ــ والدنيا مداولة ــ تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا [5]
كونوا الجدار الذى يقوى الجدار به فالله قد جعل الاسلام بنيانا

---

(١) نفس المصدر السابق ــ ص ٤٦ .
(*) زينب : كناية عن بنى عثمان .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٤ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٤ .
(٤) نفس المصدر السابق ــ ص ٢٧٨ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ص ٢٤٥ .

فهو يشبه المسلمين فى تعاضدهم بالجدار يقوى الجدار من قول الرسول (ص) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » [١] . وحديث الرسول نفسه يشبهه شوقى (بالمشرع) أى مورد الحياة وما هو إلا سبيل سعادة الانسان . يقول :

أما حديثك فى العقول فمشرع   والعلم والحكم الغوالى الماء [٢]

ويجمع شوقى صوره التشبيهية بين اسم الله تعالى واسم الرسول (ص) ليشبههما بالحروف الأبجدية من حروف المعجم (الألف والباء) وذلك لتصدرهما المعجم ، فاسم الجلالة هو (الألف) واسم الرسول (ص) هو (الباء) لاتيانه فى المرتبة الثانية بعدها يقول :

اسم الجلالة فى بديع حروفه   الف هنالك ، واسم طه الباء [٣]

أما أعلام التاريخ الدينى فقد اتخذ منها شوقى مادة تصويرية لتشبيهاته ، ومنها (بلقيس) ملكة سبأ فى أرض اليمن ، وقصتها مع النبى سليمان (ع) معروفة ، فقد صور بها الاشراق أحياناً فى الانسان كقوله من قصيدة (الانقلاب العثمانى) :

أين الأوانى فى ذرا   ها من ملائكة وحور [٤]

... ...

المترعات من النعيم ،   الراويات من السرور

... ...

من كل بلقيس على   كرسى عزتها الوثير

وفى صورة أخرى شبه الشمس ببلقيس وهى من صور الطبيعة وهذا عند شوقى من أنواع التشبيه المعكوس . يقول :

والشمس تختال فى العقيان تحسبها   (بلقيس) ترفل فى وشى اليمانينا [٥]

---

(١) زبدة البخارى ــ عمر ضياء الدين ــ ص ٣١٥ ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٤٩ هجرية .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٢٠ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ج ٢ ــ ص ١٠٧ .

مما سبق أن استعرضناه من صور شوقى التشبيهية يتضح لنا التوافق بين طبيعة الشكل والموقف العام عنده ، لكن التشبيه فى بعض الصور قد جر عليها الكثير من المساوىء ويتجلى ذلك خاصة فى الاتكاء على الآلية والتكرارية كما سبق أن ذكرناه فى بعض صوره والتسجيل الفوتوغرافى أحياناً ، والرصد الخارجى لبعض الصفات العارضة أحياناً أخرى ، والظواهر المشتركة جزئياً أو كلياً بين الموضوعات ، فما المتشابهات عنده إلا نعوت يرصدها الشاعر ويضيفها ، وهى ظاهرة أسلوبية تكررت لدى شوقى كثيراً .

ومن صور شوقى الدينية والتى وظفها لخدمة غرضه ، هذه الصورة المستوحاة من القرآن الكريم وهى فى رثاء (عبدالحميد أبو هيف) المتوفى سنة ١٩٢٦ م ، فقيد العلم والقانون ، وكان أستاذاً بكلية الحقوق وله موقف مشرف فى معارضة مشروع ملنر لذا فهو يعتبر من المجاهدين يقول شوقى :

الفلك بعد العسر يسر أمرها ... واستقبلت ريح الأمور رخاء [1]
وتأهبت بك تستعد لزاخر ... تطأ العواصف فيه والأنواء
رجعت بواكبها الى ربانها ... تلقى الرجاء عليه والأعباء
فاشدد بأرباب النهى سكانها ... واجعل ملاك شراعها الأكفاء

استعار شوقى صورة الفلك لمصر ، وهى صورة تتضمن وصف هذه الفلك وهى تسير فى البحر بمن فيها ، وما هى إلا الصورة السالبة للصورة الحق وهى مصر ، أما استمداد شوقى من المعجم القرآنى بقوله : « بعد العسر يسر » فقد أشارت إليه الآية الكريمة : « سيجعل الله بعد العسر يسرا » [2]

واعتمد شوقى على عناصر الطبيعة فى بعض صوره الدينية ، وكما مر بنا أن الطبيعة تعتبر من أكبر مصادر التصوير عنده وهى الاطار الأول الذى استهلم منه مثله العليا ليقدر بها حقائق الأشياء ، فمن عناصر الطبيعة النور وما يتصل به من أشياء ، وهو رمز للاشراق والخلق والحياة ، أما النار وهى العنصر المضىء الآخر فتأتى فى الصورة السلبية إذ أنها رمز للهلاك والموت ، وقد اتجه شوقى الى الحياة وأسبابها أكثر من اتجاهه الى الموت ، وقد يعود السبب فى ذلك الى حياته المترفة اللاهية التى عاشها فى بلاط الحكام العثمانيين ،

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ٣ ـــ ص ١١ .
(٢) قرآن كريم ـــ سورة الطلاق ـــ (آية ٧) .

إذ أنه لم يعان من تجربة شخصية إلا عندما نفى الى خارج مصر،عندها شعر بقيمة الحرية والحياة ، وهذه تعتبر نقطة تحول فى حياته ، مما ترك أثراً واضحاً على شعره بعد المنفى .

وقد استغل شوقى عناصر الطبيعة هذه ليوظفها فى صوره فنراه يشبه (الذكر والسنة) بالنور ، يقول :

بأيمانهم نوران : ذكر وسنة   فما بالهم فى حالك الظلمات؟ [1]

أمّا الوحى الذى أنزله الله على رسوله (ص) فيستعير له شوقى صورة (المطر) استعارة مكنية وهو من باب استخدام عناصر الطبيعة يقول :

والوحى يقطر سلسلا من سلسل   واللوح والقلم البديع رواء [2]

وقد وصف شوقى الانسان بكثير من عناصر الطبيعة الجامدة ،عندماوصف رجلا ممدوحاً بقوة أدبية أو مادية أو معنوية ، قال مشبهاً السلطان عبدالحميد بالوابل فالمنهل فالصيب :

وأن أمير المؤمنين لوابل [*]   من الغوث ، منهل [*] من الخلق صيب [*] [3]

رأى الفتنة الكبرى فوالى انهماله   فبادت ، وكانت جمرة تتلهب

والطبيعة لدى شوقى فى بعض صوره حية متحركة ، نابضة ، تسمع وترى ، وتتكلم ، فهى أشخاص تمتلىء بالحيوية والحياة . فيأخذ هذه العناصر ويوظفها لرسم صورة تشخيصية لموصوفاته ، يقول وهو يصف مشاهد الطبيعة فى طريقه الى الأستانة قادماً من أوربا :

كشف الغطاء عن (الطرول) وأشرقت   منه الطبيعة غير ذات ستار [4]

شبهتها (بلقيس) فوق سريرها   فى نضرة ومواكب وجوارى

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠١ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر السابق — ص ٤٧ .
(*) وابل : المطر الشديد .
(*) منهل : مورد الشرب .
(*) صيب : السحاب .
(٤) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٧ .

أو (بابن داود) وواسع ملكه ومعالم للعز فيه كبار
هوج الرياح خواشع فى بابه والطير فيه نواكس المنقار
قامت على ضاحى الجنان كأنها رضوان يزجى الخلد للأبرار

هذه الصورة للطبيعة ، تحفل بالشخصيات ، فقد تحولت الطبيعة عند الشاعر الى أناس ، فهى بلقيس (أعلام تاريخ دينى) ، وهى (ابن داود) النبى سليمان (ع) ، وهى (رضوان) حارس الجنة ، فهو فى وصف الطبيعة زاوج بينها وبين التاريخ الدينى ، كما فعل حينما زاوج بين مصر الفرعونية ومصر القرآنية ، إذ هى ظاهرة لمسناها عنده فى معظم شعره ، وقد زالت الحواجز لديه بين عالم الانسان ، وعالم الطبيعة ، وتحول الصامت الى حى عاقل متحرك ، فكانت هذه الصورة التى تمثل رؤيته للطبيعة دون أن تكون هناك صلة وجدانية تربطه بها ، كما هى الصلة التى تربط شعراء الرومانسية فى حبهم وتعلقهم بالطبيعة ، فالرومانتيكى يرى الطبيعة من خلال مشاعره ، ويضفى عليها صبغة نفسه ، ويقابل بين مناظرها واحساساته ، ولكن شوقى وهو الشاعر الكلاسيكى لاينظر لها هذه النظرة ، إنما يصف مناظرها بصورة تسجيلية تخلو من الانفعال الوجدانى . ولكنه نجح فى جعل صورته تشخيصية عندما جعل الطبيعة تحفل بالشخصيات المتحركة .

ويستخدم شوقى التشبيه المعكوس فى هذا البيت ، إذ يشبه الطبيعة ببلقيس :

شبهتها (بلقيس) فوق سريرها فى نظرة ومواكب وجوارى [1]

ويماثل هذا التشبيه قوله فى قصيدته (تحية شكسبير) ، إذ يشبه المعانى الجميلة بعيسى (عليه السلام) :

من كل بيت كآى الله تسكنه حقيقة من خيال الشعر غراء [2]
وكل معنى كعيسى فى محاسنه جاءت به من بنات الشعر عذراء

والقيم الدينية المستمدة من الاسلام. نجد مصطلحاتها تتردد فى صور شوقى المستمدة من الطبيعة ، فالطبيعة الجميلة تبدو (كأم الكتاب) وهى سورة الفاتحة :

---

(١) ديوان شوقى ـــ ج ٢ ـــ ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدر السابق ـــ ص ٧ .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار [1]
من كل ناطقة الجلال كأنها أم الكتاب على لسان القارى

جعل شوقى هذه الآيات وتلك الآثار فى عظمة (أم الكتاب) يتردد اسمها مع كل لفتة كما تتردد أم الكتاب (الفاتحة) على لسان المصلى مع كل سورة (وأم الكتاب) كناية عن سورة الفاتحة

ومن القيم الدينية والمصطحات الاسلامية مثل التقوى ، ومثل الجنة ، والنار ، وهما طبيعة ، استخدمها كصفات يجب أن تتحلى بها الفتاة ، أن تكون خطواتها تقوى ، وسفورها للجنة ، وتلفتها عن النار . يقول :

أبداً (فروق) من البلاد هى المنى ومناى منها ظبية بسوار [2]
ممنوعة إلا الجمال بأسره محبوبة إلا عن الأنظار
خطواتها التقوى فلا مزهوة تمشى الدلال ولا بذات نفار
مرت بنا فوق الخليج فأسفرت عن جنة وتلفتت عن نار

ومن عالم الطبيعة المتحركة والتى منها الحيوان يستمد شوقى بعض صوره كمصدر كناية عن بعض موصوفاته من باب التعريض ، أى أنه يأتى بالصورة ويشيربها الى معنى آخر يفهم من السياق إذ يقول :

الخيل تأبى غير (أحمد) حاميا وبها إذا ذكر اسمه خيلاء [3]
شيخ الفوارس يعلمون مكانه ان هيجت آسادها الهيجاء
وإذا تصدى للظى فمهند أو للرماح فصعدة سمراء
وإذا رمى عن قوسه فيمينه قدر وما ترمى اليمين قضاء
من كل داعى الحق همه سيفه فلسيفه فى الراسيات مضاء

---

(١) نفس المصدر السابق — ص ٣٧ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٢٦ .
(٣) نفس المصدر السابق — ج ١ — ص ٣٤ .

ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن أمن سنابك خيله الأشلاء
ان الشجاعة فى الرجال غلاظة ما لم تمزنها رأفة وسخاء

عرض شوقى فى مطلع صورته هذه، بطريقة الحديث عن الخيل وتشخيصها، بمحمد رسول الله وبسالته فى الجهاد ، والملاحظ أن صورة شوقى بعامة يتظافر فى أبياتها النغم الاسلامى ، والاستبطان الجاهلى على سبائك اللفظ والتركيب والدلالة ، وذلك أن نسيج الأبيات يغوص بنا فى أغوار القاموس التاريخى البعيد ، والسر فيه أن شوقى قد عطف على أطراف الجهاد بمغازيه الاسلامية ، صور الحرب والفروسية كما رسمتها ريشة رسام أيام العرب وحفظتها لنا مطولات الشعر الجاهلى ، فجاء القديم والحديث عنده فى هذه المزاوجة الأسلوبية التى زادت المعنى قوة .

وشوقى اتخذ عالم الطبيعة رمزا يوظف صوره لخدمة غرضه مثل معالجة بعض القضايا الانسانية ، ورصد حركة التاريخ ، وتسجيل الواقع المصرى بكل همومه وطموحاته . إذ أن شوقى عانى من تجربة أثرت فى حياته وهى نفيه لأسبانيا . وهذه الفترة تعتبر نقطة تحول فى حياته وفى شعره أيضاً ، ففى غربته وبعده عن بلده أحس بالفقد ، واحساسه بالفقد هذا وقد ولد لديه شعور بالحنين لوطنه ، لأنه عاش التجربة نفسها بعد أن كان لاهياً متنقلا فى قصور الخديوية ، وتحول بعد النفى الى شاعر الشعب الناطق بلسانه ، المدافع عن قضيته وكفاحه ، ولكن يبقى هناك سؤال يفرض نفسه . هل الظروف والتجربة هى التى فرضت على شوقى هذا التحول الشعرى ووقوفه مع الشعب ، أم أن الموقف قد اختاره هو بنفسه بعد طول معاناة ؟ ان ما نستطيع الاجابة به فى مثل هذا الموقف هو حكمنا على أعمال شوقى التى قالها فى الثلث الأخير من عمره بأنه أصبح شاعر الشعب والناطق بلسانه ، والعبرة بهذه الأعمال والحكم عليها .

ولشوقى بعض المصطلحات من وحى ثقافته الدينية يستخدمها لتؤدى وظيفة دلالية باعتمادها على الايجاز أو التحليل فى تأدية المعنى ، فقد استخدم مصطلح — (الحقيقة الزهراء) ليعبر به عن وجود الله وتوحيده ، وكان يمكن ان يعبر عن وجود الله بلفظ واحد دون تعدد ألفاظ ، ولكن شوقى يستخدم هذا اللون من المصطلحات كظاهرة أسلوبية لديه أولا ، وليبين أنه ليس أقل من غيره ثقافة دينية ثانياً حيث يقول :

ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى ... جمعتها الحقيقة الزهراء (•) (١)

واستخدم كذلك مصطلح (النوابغ الغر) ليعبر عن (القرآن والسنة) ، يقول :

أشرف المرسلين ، آيته النطق ... مبيناً ، وقومه الفصحاء (٢)

أما السلطان العثمانى فقد جعله شوقى (كهف الدين) وهذه صفة مميزة للسلطان فى نظر شوقى ، يقول :

فلازلت كهف الدين ، والهادى الذى ... الى الله بالزلفى له نتقرب (٣)

أما اصطلاح (الذى قهر القيصرين) فقد استخدمه شوقى معادلاً لاسم الجلالة الله ، يقول :

وعند الذى قهر القيصرين ... مصير الأمور وأحيانها (٤)

كذلك اصطلاح (الذين بالحق جاءوا) عبر به عن المسلمين بقوله :

يوم سار الصليب والحاملوه ... ومشى الغرب : قومه ، والنساء (٥)

يضمرون الدمار للحق ، والنا ... س ، ودين الذين بالحق جاءوا

ومثل هذه الاصطلاحات كثيرة فى شعره ، وهذه ما يعبر عنها بالبلاغة القديمة (الكناية) ، أما عند شوقى فتعتبر من المميزات الأسلوبية عنده ، وظاهرة بارزة فى شعره تميزه على غيره من الشعراء،يعتمد بها على ثقافته الدينية ، ويعتمد على مدى احتفاظه بالموروث . وإذا جاز لنا تسميتها فهى عند (الدوران فى الأداء الفنى) ليس غيره ، إذ أنه يستطيع اللعب بالألفاظ وهذه ظاهرة أشرنا لها فيما تقدم ، ويستطيع أن

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٥٤ .

(•) الحقيقة الزهراء : هى وجود الله وتوحيده ، ولقد تنوعت ديانة المصريين ، فكانوا فى أول أمرهم يعتقدون بوجود اله واحد ، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذا الاله برموز صارت فيما بعد معبودات ، ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التى لها تأثير محسوس فى حياتهم كالشمس والقمر والنيل ، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة فى أجساد الحيوان ، فعبدوا العجل (أبيس) والقط والكلب .

(٢) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٠ .

(٣) نفس المصدر السابق ــ ج ١ ــ ص ٥٨ .

(٤) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٦٢ .

(٥) نفس المصدر السابق ــ ج ١ ــ ص ٣٢ .

يدور فى أدائه الفنى ، يأخذ بعض الصور الجاهزة التقليدية دون أن تنتزع من علاقاتها القديمة ويستعملها فى صوره ، أما البعض الآخر من هذه الصور الجاهزة التقليدية فيأخذها وينتزعها من سياقاتها الماضية وتوضع عنده فى سياقات أخرى تندمج فيها بوصفها متكاملة من جديد ، ولكن مع ذلك فهى تعد صوراً جاهزة قد اكتسبت قيمة جديدة حين أدمجت فى علاقات جديدة،أو حين أصبحت جزءاً كيفياً فى تخطيط كيفى جديد ، وهذا شأن كل شعراء الاحياء أو شعراء (الكلاسيكية الجديدة) فى اقتباس صورهم .

وهذه الظاهرة برزت عند الشاعر أبى تمام وهى ظاهرة الكناية (الدوران) ، إذ قال وهو يمدح الخليفة المعتصم العباسى :

الى قطب الدنيا الذى لو بفضله   مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله [(١)]

والرمز عند شوقى درجة ليست بعيدة عن اللغز ، والرمز فى البلاغة العربية درجة قصوى من درجات الكناية ولكنه استخدمها بطريقته إذ أتى برمز خاص لم نعثر عليه فى استعمالات غيره من الشعراء ، وهو صعب جداً ولا يعرف إلا بالاجتهاد ، فقد رمز لحديث الرسول بقوله :

هو صيغة الفرقان ، نفحة قدسيه   والسين من سوراته والراء [(٢)]

قد كنى بالسين والراء عن حديث الرسول ولكن ما العلاقة بين الطرفين ؟

قد يقصد شوقى بهذا أن السين والراء من مكونات كلمة (سر)وحديث الرسول (ص) هو نوع من البلاغة فيه سر من قدس الله . وهذا رمز قد أتى به شوقى أقرب الى الألغاز المبهمة .

ولشوقى عدة مواقف ينادى فيها بالمساواة بين الاسلام والمسيحيين،فقد كرر ذلك أكثر من مرة فى شعره ، والى (الاسلام) استخدم (الهلال) فهو رمز التسامح والى (المسيحية) رمز (بالصليب) كشعار للمحبة والسلام ، وهذين الرمزين استخدمهما كدعوة لاتحاد هذه العناصر من مسلمين ومسيحيين، يقول وهو يحث الشباب على التعاون والاتحاد ولعلها كانت أول دعوة لحث هذه العناصر على الاتحاد :

---
(١) ديوان أبوتمام ـ ج ٣ ـ ص ٢٥ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٣٤ .

والى الله من مشى بصليب   في يديه ، ومن مشى بهلال [1]

ويشابه موقفه السابق فى دعوته للاتحاد بين المسلمين والمسيحيين هذا الموقف وهو ذكر مسجد (أيا صوفيا) فى استانبول وقصة تحويله من كنيسة من باب اهتمامه بالآثار أولاءثم ابدائه رأى المساواة بين الأخوان من مسلمين ومسيحيين ثانياً ، إذ لا فرق بين الأنبياء فى توصيل رسالتهم ، ولا فرق بين شعوبهم . ومسجد (أيا صوفيا) كان كنيسة فى الأصل ، فحوله المسلمون الى مسجد بعد فتح القسطنطينية بعد أن أضفوا عليه الصبغة الاسلامية بادخال بعض الترميمات ، فالموقف دقيق بالنسبة لشوقى ، فتحويل كنيسة الى مسجد من الأمور الحساسة . ومعروف أن عمرو بن الخطاب (رض) عندما تسلم مفاتيح بيت المقدس رفض الصلاة فى كنيسة القيامة عندما دعاه القساوسة للصلاة فيها ، وعلل ذلك بقوله : « حتى لاينازعكم عليها المسلمون من بعدى.» وصلى خارج الكنيسة فبنى المسلمون مكان صلاته مسجداً سمى (مسجد عمر) ، ولما وقع عمر مع النصارى العهدة العمرية كان مما ذكره فيها (وألا تهدم كنائسهم وبيعهم وألا يفتنوا عن دينهم) . فكيف حول المسلمون كنيسة أيا صوفيا الى مسجد؟!

عندما دخل محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أمر بفتح المدينة ، وتحويل الكنيسة الى مسجد [2] . وشوقى كعادته استطاع بذكاء ايجاد حل يرضى الطرفين بشعره إذ قال :

كنيسة صارت الى مسجد   هدية السيد للسيد [3]
كانت لعيسى حرماً ، فانتهت   بنصرة الروح الى أحمد

هذه المواقف يعبر عنها شوقى بحسن تخلصه كما فعل فى مسألة صلب المسيح عليه السلام إذ قال :

ملك جاور التراب فلما   مل نابت عن التراب السماء [4]

---

(١) ديوان شوقى — ج ٦ — ص ١٩٠ .
(٢) محمد الفاتح — د . سالم الرشيدى — ص ١٤١ وما بعدها — ط ٣ — دار العلم للملايين — ١٩٦٩ م — بيروت .
(٣) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٢٥ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨ .

ويمكن أن نعد ارتياح شوقى للتعابير الجاهزة والاقتباس من الموروث مظهراً من مظاهر التقليد فى شعره ، وقد قال بعض النقاد أن لهذا قيمة أسلوبية لاتنكر ، ونضيف الى هذا أن شوقى استطاع أن يوظف امكانية اللغة الصوتية الى أبعد حد ، واستطاع أن يخلق ايقاعا متميزا متعدد الدلالات ، وقد زاوج بين هذه الامكانية وهندسة البيت فى الشعر العربى ليخلق من الايقاع فعلا شعرياً ، وهذه الميزة لم تستقم لغيره من شعراء جيله ، فلولا هذه الموسيقية العالية،والتى تعتبر استغلالا للطاقة الصوتية،لما تحقق هذا التوازن فى شعره ، إذ أن الطاقة الصوتية العالية تعتبر من أبرز مولدات الشعر لديه .

مما سبق واستعرضناه من صور شوقى لاحظنا أنها تتسم بالطابع الكلاسيكى أو ما يسمى بالكلاسيكية الجديدة التى تحاول المزاوجة بين القديم والحديث ، لكن شوقى كان صادقاً مع نفسه ومع المرحلة التاريخية التى عاش فيها . ومهما يكن من أمر فالموروث القديم طبع الفكر الكلاسيكى بطابع معين ويبدو ذلك ماثلا بصورة واضحة أثناء حديث شوقى عن المعطيات الحضارية فى قصائد تقليدية تعتبر من معطيات التراث العربى الذى انفعل به شوقى كثيراً ، فنهل من معينه ، وهضمه ، وتمثله ، ووعاه ، وكان لذلك أثره البالغ على رصانة لغته ، وجزالتها ، وموسيقاه الصوتية ، وهى الصفات التى اتفق نقاد شوقى جميعاً على تمتعه بها ، وصدارته فيها . غير أن تمثل التراث والوعى به لم يتوقفا عند حدود البناء الصوتى والموسيقى وانما تجاوزه الى صوره العامة التى رفدتها معطيات التراث بحيث وجدناه فى وصف أكثر الأمور عصرية وحداثة ، يقرنها بصور التراث العربى والاسلامى ، يقول فى وصف الطائرة التى أقلت الطيارين (فدرين) و (يونيه) من باريس الى مصر سنة ١٩١٤ م :

مركب لو سلف الدهر به ... كان احدى معجزات القدماء [(١)]

... ...

مسرج فى كل حين ملجم ... كامل العدة ، مرموق الرواء

كبساط الريح فى القدرة أو ... هدهد السيرة فى صدق البلاء

أو كحوت يرتمى الموج به ... سابح بين ظهر وخفاء

... ...

(١) ديوان شوقى ــ ج ٢ ــ ص ٤ .

يــتــراءى كــوكــبــا ذا ذنــب   فــاذا جــد فــســهــمــا ذا مــضــاء
فــاذا جــحــاز الــثــريــا لــلــثــرى   جــر كــالــطــاووس ذيــل الــخــيــلاء
يــمــلأ الآفــاق صــوتــاً وصــدى   كــعــزيــف الــجــن فــى الأرض الــعــراء

فالصورة هنا مستمدة من التراث العربى فى التشبيه حيث نجد السرج الملجم ، وبساط الريح ، والهدهد ، والسهم الماضى ، والطاووس ، وعزيف الجن ، وكلها صيغ جاهزة فقدت نضارتها بكثرة الاستخدام واعتمادها على التشابه الخارجي دون أن تنفذ الى حقيقة الأشياء ووقعها على الذات الشاعرة .

وحين يستخدم شوقى كلمات مثل بساط الريح ، الهدهد ، الحوت،ويحاول ايجاد علاقة بينها تبدو كلها تداعيات ذات وشائج دينية . وقد يلحقها اضطراب فنى واضح ، فليس بين الهدهد والطائرة أو الحوت والطائرة علاقة تشابه حسى أو معنوى ، ولكنه حين استدعى المعنى الدينى ظهر هذا التشابه الباهت فى صدق الأخبار بالنسبة للهدهد ، ولهذا سماه أو حدده بأنه هدهد السيرة . قال تعالى : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » [1] .

مما سبق يتضح لنا أن صوره الدينية جاهزة ومتراكمة ومكررة ، مفككة فى بعض الأحيان ، ويمكن تفسير ذلك بأن نربط الموضوع بشيئين : أولهما خضوع الفنين الشعر والرسم الى روح اعلانية عامة أو اقترابهما من بعضهما البعض فى استخدامهما لأدواتهما (الألوان والأشكال البيانية) . وثانيهما محاولة من الشاعر دائبة لاظهار براعته التى جره إليها اعتقاد قديم وهوأنه من تمام البراعة فى الشعر القدرة على التشبيه وغيره من الأشكال البيانية .

* * *

(١) قرآن كريم ــ سورة النمل ــ (آية ٢٠) .

المعجم الشعرى :

الشعر بناء ، والكلمات ليست إلا لبنات هذا البناء ، والشاعر المجيد بمثابة المهندس البارع يكون حظه من البراعة بمقدار استغلاله لكل الامكانات فى تشييد بنائه وتسخير كل مايراه مناسباً لتأسيسه وتأمين تماسكه . وبقدر مايبرع الشاعر فى تعامله مع الكلمات يكون حظه من الفن والشاعرية ، ويحكم له أو عليه على هذا الأساس . من هنا تأتى أهمية المعجم الشعرى ، أو العناصر الأساسية التى يشكل منها الشاعر قصائده ومقطوعاته . وهذه العناصر تتمثل فى مجموعة الكلمات التى يستخدمها ، والصور التى يبتدعها أو يقلدها . وكذلك الرموز التى يستوحيها فيوظفها لخدمة هذا الغرض أو ذاك .

والقراءة الفاحصة التى تسترشد تحليل النصوص ومحاولة فهمها فى ضوء الأطر اللغوية والأسلوبية بمعناها الدلالى الواسع انما تؤدى الى تجنب التعميمات المعيبة ، وهى التى جثمت على صور نقدنا العربى قروناً طوالا فى القديم والحديث ، بل وضعته دائماً موضع اتهام بالعمومية والذاتية والتأثرية .

ان التحليل اللغوى للشعر يؤدى غالباً ــ إذا أحسن استعماله ــ الى نتائج أكثر موضوعية وحيادية ، لأنه فى جوهره انما يعتمد على قيم موضوعية ملموسة ومنزهة عن كل الأغراض .

بهذا الهدف وفى ضوء كل تلك الحقائق ، نرصد طبيعة المعجم الشعرى الدينى عند شوقى ، أبعاده وخصائصه ، وذلك من خلال منظور لغوى خالص ، قد يغفل عمداً أن يتعرض للعوامل السياسية والاجتماعية والنفسية وغيرها مما كان له تأثير فى بلورة الشاعر لمعجمه .

التكرار والمقابلة :

من أهم ما يميز المعجم الشعرى لدى شوقى ظاهرتا التكرار والمقابلة ، ففى الأولى نجده يكرر فى البيت الواحد كلمة أو تركيبها أو حتى جملة بأكملها ، وفى الثانية نجده يأتى فى البيت الواحد بالكلمة ومقابلها أو عكسها أو مرادفاتها . والتكرار ظاهرة بلاغية تأتى غالباً للمدح ، والتهديد والوعيد ، والتوكيد ، ووردت ظاهرة التكرار فى القرآن

الكريم قال تعالى : « القارعة ما القارعة » [1] تفيد التهديد والتهويل بيوم القيامة العظيم . وقال تعالى : « والسابقون أولئك المقربون » [2] تفيد المدح .

ان التكرار فى الشعر يكاد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة الانشاء ، فالشاعر الذى يقصد بشعره الى المحافل والمناسبات والمديح يكون دائماً أحرص ما يكون على ابلاغ رسالته بهذا التكرار .

يقول فى ذم الكذب على شرع الله ، فى مسألة زواج النساء الصغيرات بالشيوخ الكبار :

وتعللت بالشرع قلت. كذبته   ما كان شرع الله بالجزار [3]

ويقول فى التكرار المتسلسل وهو يؤدى النصح للعمال ويقوم بدور الواعظ :

واستقيموا يفتح الله   لكم باباً فباباً [4]

وفى التكرار فى معرض الحكمة وتشبيه المعلم بالرسول يقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا [5]

ويقول وهو يكرر فى مقام الحال :

والجوارى فى البحر يظهرن عز   الملك ، والبحر صولة وثراء [6]

فى التكرار السابق نفس قرآنى فى استعماله كلمة جوارى وهى السفن ، يقول تعالى : « وله الجوار المنشأت فى البحر كالأعلام » [7] .

ويستخدم شوقى التكرار فى معجمه وذلك للتقارب بين الحقيقة والمجاز مثل قوله فى رثاء سعد زغلول :

---

(١) قرآن كريم ــ سورة القارعة (آية ١ ، ٢) .
(٢) قرآن كريم ــ سورة الواقعة (آية ١٠) .
(٣) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٣١ .
(٤) نفس المصدر السابق ــ ص ٩١ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ص ١٨٠ .
(٦) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٤ .
(٧) قرآن كريم ــ سورة الرحمن (آية ٢٤) .

جـاءهـا الـحـق ، ومـن عـادتـهـا   تـؤثـر الـحـق سـبـيـلا واتـجـاهـاً [1]

استعمل لفظ (الحق) فى صدر البيت لمعنى الموت مجازاً .

ومثله قوله يحيى الملك فؤاد أبان زيارته للجيزة :

الى الـبـيـت الـحـرام بـك اتـجـهـنـا   ومصر ـ وحقها ـ البيت الحرام [2]

شبه مصر ب (البيت الحرام) فى عجز البيت .

ويردد الشاعر الفعل معبراً عن الالحاح ودالا على المبالغة يقول :

ومـسـت الـدار أزكـى طـيـبـهـا وأتـت   باب الرسول ، فمست أشرف العتب [3]

ويكرر شوقى فى معرض المبالغة يمدح الخليفة العثمانى والدستور بقوله :

فـعـلـى الـخـلافـة مـنـكـمـا   نور تلألأ فوق نور [4]

ويردد شوقى التكرار للمقابلة بين السلبى والايجابى ، إذ يقول :

خـلـعـوك مـن سـلـطـانـهـم ، فـسـلـيـهـم   أمـن الـقـلـوب ومـلـكـهـا خـلـعـوك ؟ [5]

ويقول بمناسبة حج الخديوى :

الى عـرفـات الـلـه يـا خـيـر زائـر   عـلـيـك سـلام الـلـه فـى عـرفـات [6]

ومن أساليب تكراره التى تتميز بعمق درجته الموسيقية قوله :

لـم يـلـبـسـوا بـرد الـنـبـى ، وانـمـا   لـبـسـوا طـقـوس الـروم إذ لـبـسـوك [7]

ويقول فى وداع الأستانة :

تـجـلـد لـلـرحـيـل ، فـمـا اسـتـطـاعـا   وداعـاً جـنـة الـدنـيـا وداعـا [8]

---

(١) ديوان أحمد شوقى ـ ج ٣ ـ ص ١٧٤ .
(٢) ديوان أحمد شوقى ـ ج ٤ ـ ص ٧٢ .
(٣) ديوان أحمد شوقى ـ ج ١ ـ ص ٦٣ .
(٤) نفس المصدر السابق ـ ص ١٢٤ .
(٥) نفس المصدر السابق ـ ص ١٦٧ .
(٦) نفس المصدر السابق ـ ص ٩٨ .
(٧) ديوان أحمد شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٦٣ .
(٨) نفس المصدر السابق ـ ص ١٤٥ .

أما المقابلة عند شوقى فقد أدت وظيفة هامة فى شعره ، ومقابلاته اللغوية تخضع للانسجام فى أنواع الكلمات والى الائتلاف فيما بينها ، ومعجم شوقى الدينى غنى بمقابلاته ، فقد استخدم عدة أنواع من المقابلات كمقابلة مصدر بمصدر أو اسم فاعل باسم فاعل أو صفة بصفة وفعل بفعل ، واسم جامد باسم جامد وغيرها من المقابلات .

فمن مقابلة المصدر بالمصدر ، يصف غزوات الرسول (ص) بقوله :

كانت لجند الله فيها شدة　　فى أثرها للعالمين رخاء [(١)]

ومن مقابلة الفعل بالفعل يقول وهو يسند الاعجام والاعراب الى الفتاة التركية (زينب) ليصور حيرتها فى الأداء وتمزقها بين لغتين كلتيهما لا تناسب المقام :

تحذرنى من قومها الترك زينب　　وتعجم فى وصف الليوث وتعرب [(٢)]

ويقابل شوقى بين الجمع والجمع بقوله من قصيدة (نجاة) يصف الرايات :

تهادت سلاماً فى ذراك مطيفة　　لها رغبات الخلق ، والرهبات [(٣)]

ويستخدم شوقى المفردين ليقابل بينهما ، يقول فى تهنئة أمير المؤمنين الخليفة :

فصير أمير المؤمنين ثناءها　　مآثر تحيى الأرض وهى موات [(٤)]

وله مقابلات بين التراكيب ، يقول فى رثاء القائد التركى أدهم باشا :

(فروق) ، اضحكى وابكى فخاراً ولوعة　　وقومى الى نعش الفقيد المعظم [(٥)]

ويقابل بين الحياة والموت بقوله :

النفس حرب الموت الا أنها　　أنت الحياة وشغلها من بابه [(٦)]

---

(١) نفس المصدر السابق ـ ص ٩١ .
(٢) ديوان أحمد شوقى ـ ج ١ ـ ص ٤٢ .
(٣) نفس المصدر السابق ـ ص ٩٦ .
(٤) نفس المصدر السابق ـ ص ٩٥ .
(٥) نفس المصدر السابق ـ ص ١٤١ .
(٦) ديوان أحمد شوقى ـ ج ١ ـ ص ٨٤ .

ويقابل الظلام بالنور فى قوله :

أخرجت هذا العقل من ظلماته   وهديته النور المبين سبيلا [١]

ويقابل بين المشيب والشباب فى سياق حكمى :

فترى الزمان هناك بين مشيبه   مثل الزمان اليوم بعد شبابه [٢]

ولشوقى مقابلات متعددة ترد فى سياقات كثيرة من شعره وسبق وأن ذكرت بعض المقابلات فى موضع آخر من البحث [*] .

ان المقابلة بين الكلمات ظاهرة منتشرة تقريباً فى كل دواوين الشعراء من قدماء ومحدثين ، وقد زخرت كتب البلاغة والنقد الأدبى بدراستها على أنها لون من ألوان البراعة اللغوية تحسن الكلام وتزيده أيضاحاً . ولكن شوقى يبدو أنه أكثر من استخدام المقابلات فى شعره — لا من هذه الوجهة التقليدية ، وإنما أراد بها احداث موسيقية ، واعطاء طاقة دلالية ايحائية لأبياته ويخفى وراء ذلك مطابقة واقعية ، والى جانب هذا فهى تعتبر نوعامن الرياضة اللغوية يمارسها شوقى فى شعره .

الأمر :

يستخدم شوقى الأمر كأسلوب انشائى ، ويكثر استخدامه فى طوالع قصائده ، ويأتى بعضه فى حشو القصيدة ، ويأتى الأمر عنده فى بعض مواطن اسداء النصح والارشاد وبذل المواعظة ، وسلامة التوجيه وبعض الأغراض الأخرى .

يقول من قصيدته (الى عرفات) :

فقل لرسول الله : يا خير مرسل   ابثك ما تدرى من الحسرات [٣]

ويقول داعياً ربه أن يوفق أمته :

فقل : رب وفق للعظائم أمتى   وزين لها الأفعال والعزمات [٤]

---

(١) نفس المصدر السابق — ص ١٨٠ .
(٢) نفس المصدر السابق — ص ٨٤ .
(*) أنظر ص ٢٤٦ من هذا البحث .
(٣) ديوان أحمد شوقى — ج ١ — ص ١٠١ .
(٤) نفس المصدر السابق — ص ١٠٢ .

ويقول مخاطباً الخلافة متحسراً على سقوطها :

قـل لـلـخـلافـة قـول بـاك شـمـسـهـا بـالأمـس لـمـا آذنـت بـدلـوك [1]

ويقول فى تحية الأزهر الشريف :

قـم فـى فـم الـدنـيـا وحـى الأزهـرا وانثـر على سمع الزمان الجوهرا [2]

ثم يحيى نساء مصر الخيرات :

قـم حـيـى هـذى الـنـيـرات حـيـى الـنـسـاء الـخـيـرات [3]

ويقول مستخدماً الأمر واسناده الى النبى (سليمان) :

قم (سـليمـان) بـساط الـريح قـاما مـلـك الـقـوم مـن الجـو الـزمـامـا [4]

ويقول مخاطباً (توت عنخ آمون) :

قم سابق (الساعة) ، واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدح غمدها [5]

ويقول وهو يخاطب الشمس :

قـفـى ــ يـا أخـت يـوشـع ــ خـبـرينـا أحـاديـث الـقـرون الـغـابـريـنـا [6]

استهلال شوقى مطالعه بفعل الأمر يعطى للقصيدة جلال القدم ، ويجمع فيها بين جدة الأحداث وقدم الاستخدام إذ أن الشاعر يستهل قصائده على طريقة الشعراء القدامى باستخدام الأمر فى المطالع من معلقاتهم الشعرية .

ويأتى الأمر لدى شوقى فى غير طوالع القصائد ، وغالباً يأتى فى معنى الوعظ ، فى سياق دينى . يقول من قصيدته التى ندد فيها بانتحار بعض صغار الطلبة أثر سقوطهم فى الامتحانات :

---

(١) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ص ١٥١ .
(٣) نفس المصدر السابق ــ ص ١٠٢ .
(٤) نفس المصدر السابق ــ ج ٢ ــ ص ٨٨ .
(٥) نفس المصدر السابق ــ ج ٢ ــ ص ١٥٨ .
(٦) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٦٦ .

روحوا القلب بلذات الصبا ... فكفى الشيب مجالا للكدر [1]
عالجوا الحكمة واستشفوا بها ... وانشدوا ما ظل منها فى السير
واقرؤوا آداب من قبلكم ... ربما علم حيا من غبر
واغنموا ما سخر الله لكم ... من جمال فى المعانى والصور
واطلبوا العلم لذات العلم ، لا ... لشهادات وآداب أخر

ويشيد شوقى بعلم التاريخ فى سياق دينى مستخدماً الأمر بقوله :

غال بالتاريخ ، واجعل صحفه ... من كتاب الله فى الاجلال قابا [2]
قلب الانجيل ، وانظر فى الهدى ... تلق للتاريخ وزنا ، وحسابا
رب من سافر فى أسفاره ... بليالى الدهر والأيام آبا
واطلب الخلد ، ورمه منزلا ... تجد الخلد من التاريخ بابا

ويأتى الأمر عند شوقى للدعاء فيكون مقروناً بمعنى التوسل المباشر إذ توجه الى الحالق ، كتوسله الى الله بتأييد مصر يقول :

يارب قو يدها ، وشدها ... وافتح لها السبل ، ولا تسدها [3]
وقس لكل خطوة ما بعدها ... وعن صغيرات الأمور حدها
وإصرف الى جد الشؤون جدها ... ولاتضع على الضحايا جهدها
واكبح هوى الأنفس واكسر حقدها ... واجمع على الأم الرؤوم ولدها

وييستخدم شوقى الأمر فى الرثاء ، يقول فى رثاء (محمد عبدالمطلب) :

قم صف الخلد لنا فى ملكه ... من جلال الخلق ، والصنع العجب [4]
وثمار فى يواقيت الربى ... وسلاف فى أباريق الذهب
... ...
واستعر (رضوان) عودى قصب ... وترنم بالقوافى فى القصب

---

(١) نفس المصدر السابق — ص ١٢٨ .
(٢) ديوان أحمد شوقى — ج ٢ — ص ١٨ .
(٣) نفس المصدر السابق — ص ١٥٨ .
(٤) نفس المصدر السابق ج ٣ —ص ٣٦ .

فاستخدم الأمر عند شوقي يعقد صلة بينه.وبين القارىء من حيث أن الأمر يعقد حواراً بين معانى القصيدة .

النداء :

الى جانب الأمر يستخدم شوقي أسلوب النداء فى معجمه الشعرى وكثيراً ما يرد النداء مصحوباً بالأمر عند الشاعر ، ويكاد النداء يختص عند شوقى بالقصائد الطويلة ، فهو من هذه الناحية أداة لاطالة نفس القصيدة الداخلية ، وقد يستخدم الشاعر ظاهرة تنويع المنادى الواحد مثلا فى قصيدته (الهمزية النبوية) استخدم هذه الظاهرة وهى تنويع المنادى ، وكان المنادى هو الرسول (ص) من أجل ألا يشعر القارىء بطول القصيدة ، يقول :

يا خير من جاء الوجود ، تحية ... من مرسلين الى الهدى بك جاءوا [1]

... ...

يا أيها الأمى ، حسبك رتبة ... فى العلم أن دانت بك العلماء

... ...

بك يا ابن عبدالله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء

... ...

يا أيها المسرى به شرفا الى ... ما لا تنال الشمس والجوزاء

... ...

يا من له عز الشفاعة وحده ... وهو المنزه ، ماله شفعاء

سمى شوقى الرسول (ص) (خير من جاء الوجود) و (الأمى) و (ابن عبدالله) و (المسرى به) و (من له عز الشفاعة) وهذه المعانى من أهم ما تركزت عليه القصيدة . وقد كان النداء فى القصيدة من باب التمجيد الدينى .

ومن استخدامه لأسلوب النداء يقول :

يا أبن الذين إذا الحروب تتابعت ... صلوا على حد السيوف وصاموا [2]

... ...

(١) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ٣٤ .
(٢) ديوان أحمد شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٢٧ : ٢٣٠ .

يـا بـربـروس ، عـلـى ثـراك تـحـيـة   وعـلـى سـمـيـك فـى الـبـحـار سـلام

...   .

يـا مـعـشـر الاسـلام ، فـى اسـطـولـكـم   عــز لــكــم ، ووقــايــة ، وســلام

خاطب شوقى فى البيت الأول الخليفة العثمانى (محمد رشاد الخامس) وفى البيت الثانى خاطب الفقيد بربروس الذى جعلت الحكومة أسمه علماً على أول بارجة فى الأسطول العثمانى ، وفى البيت الأخير توجه بالنداء الى المسلمين قاطبة . والنداء فى القصيدة كان عند شوقى انطلاقة الى مواضيع جديدة .

ويستخدم شوقى النداء للالتماس والابتهال إذ يقول :

ويارب ، لو سخرت ناقة (صالح)   لعبدك ، ما كانت من السلسات [1]

ويـارب ، هـل سـيـارة أو مـطـارة   فـيـدنـو بـعـيـد الـبـيـد والـفـلـوت

ويارب ، هـل تغنى عن العبد حجة   وفـى الـعـمـر مـا فـيـه مـن الـهـفـوات

ثم يستخدمه للتفجع والتوجع فى سياق الرثاء :

ويا داء ، ما أنصفت إذ رعت صدره   وقد كان فيه الملك أن ريع يحتمى [2]

ويـا أيـهـا الـمـاشـون حـول سـريـره   أحـطـتـم بـتـاريـخ فـصـيـح الـتـكـلـم

ويـا مصر ، من شيعت أعلى همامة   وأثبـت قـلـبـاً مـن رواسـى الـمـقـطـم

...   .

ويا بحر ، تدرى قدر من أنت حامل ؟   ويـا أرض ، صونـيـه ، ويـا ربـى ارحـم

ويستخدم النداء للجماعة للحث على التعاون إذ يقول :

يا قوم عثمـان ــ والدنيا مداولة ــ   تـعـاونـوا بـيـنـكـم يـا قـوم عـثـمـانـا [3]

ويقصد شوقى من استخدامه النداء تقوية معجمه الشعرى بتوليد بعض المعانى كعوامل تنشيطية .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٩٩ .
(٢) نفس المصدر السابق ــ ج ٣ ــ ص ١٤١ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ١ ــ ص ٢٤٥ .

الأسماء التراثية والصيغ الجاهزة :

المعجم الشعرى للشاعر شوقى ملىء بخليط هائل من الأسماء والكنى والألقاب التراثية التى استوحاها من التاريخ الفرعونى والعربى والاسلامى ، ومن التاريخ الأوربى أيضاً ، وقد فعل شوقى ذلك ليختصر الطريق ويجعل من هذه الأسماء رموزاً لموصوفاته تمارس نشاطها فى اطار حضارى عام ، ولا شك أن مجرد استحضارها انما يثير بعض الطاقات الايحائية والوجدانية لمن يقرأ شعر شوقى .

فمن التاريخ الفرعونى ضمن (شوقى) بعض أشعاره أسماء (سيزوستريس ، آمون ، قمبيز ، كيلوبترا ، ايزيس ، آبيس وأزوريس ، الأهرام ، خوفو ، مينا ، أبو الهول) [1] ، ومن التاريخ العربى والاسلامى اقتبس كثيراً من أسماء رجاله وأعلامه ، بالاضافة الى ايراد أسماء كثير من الأنبياء والرسل السابقين ، فمن الأنبياء يذكر أسماء (محمد ، عيسى ، يوسف «ابن يعقوب » ، سليمان ، داود ، موسى ، نوح ، يوشع ، ابراهيم ، آدم ، عليهم السلام) [2] .

ومن شخصيات الملائكة ذكر جبريل (الروح الأمين) [3] و (عزرائيل) [4] ، ومن الشخصيات المقدسة ذكر (مريم العذراء) [5] ، ومن الخلفاء يذكر الراشدين (أبوبكر ، عمر ، عثمان ، على) [6] و (هارون الرشيد ، الأمين المأمون ، المعتصم من خلفاء بنى العباس) [7] .

ويذكر كذلك أسم (عبدالرحمن الداخل) [8] ، ومن قواد المسلمين يذكر (عمرو بن العاص ، صلاح الدين الأيوبى) [9] .

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٨ ، ١٣٢ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٥ ، ١١٨ ، ٦٧ ، ١١٩ ، ٨٠ ، ٢٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٩٤ ، ٦٥ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٩١ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٤٧ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٤١ ، ٣٥ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧٠ .
(٧) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٦٧ .
(٨) دول العرب وعظماء الاسلام — ص ٧٨
(٩) نفس المصدر السابق — ص ٦٢ .

ويذكر من الشعراء (المتنبى) [1] ، و (لبيد ، البحترى ، ابن زيدون) [2] ، وغيرهم .

ومن الخطباء يذكر (قس بن ساعدة الأيادى) [3] ، ومن العلماء يذكر (ابن سينا) [4] ، أما من تاريخ غير العرب يذكر (كسرى ، قيصر) [5] ، ومن الفلاسفة يذكر (أرسطو) [6] .

كذلك فى ملحمته (دول العرب وعظماء الاسلام)وردت أسماء أعلام كثيرة مثل (الفاروق ، بلال ، الصديق ، على ابن أبى طالب ، أبى سفيان ، معاوية ، خالد بن الوليد ، أبى عبيدة بن الجراح) .

لقد كثر استخدام الأسماء فى معجم شوقى الشعرى ، فمن هذه الأسماء ما يستخدم رمزاًللتعبير عن واقع يعيشه الشاعر،ومنه ما يستخدم لمجرد الاستخدام دون أن يبين أية ملامح للاسم المتسخدم ، وشوقى بهذا يضلل القارىء فى كثرة استخدامه لهذه الأسماء التراثية ويترك تحديد غرضها سؤالا حائراً فى نفس المتلقى ، وربما يقبل على ذلك كنوع مقصود من عدم الوضوح ، ولكن يؤخذ على الشاعر تكدس الأسماء فى بعض القصائد كما فعل فى قصيدة (توت عنخ آمون) [7] حيث تضمنت حوالى ثمانية وعشرين علماً .

ويستخدم شوقى الأعلام فى السياق الواحد فيتولد من تجمعها جو خاص ليس مرتبطاً بكل واحد منها على انفراد بقدر ارتباطه بها مجتمعة ، يقول مخاطباً (هول كين) الروائى الشهير : :

(هول كين) (مصر) رواية لا تنتهى   منها يد الكتاب والشراح [8]

(١) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٩٧ .
(٢) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٤٠ ، ١٠٤ .
(٣) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٢٣ .
(٤) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٦٠ .
(٥) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ١٩٠ ، ١٧ .
(٦) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢١٨ .
(٧) ديوان شوقى ـ ج ١ ـ ص ٢٦٦ .
(٨) ديوان شوقى ـ ج ٢ ـ ص ٢٢ .

فيها من (البردى) و (الرموز) و (التوراة)و (الفرقان)و (الاصحاح)
و (منا)و (قمبيز) الى (اسكندر) فالقيصرين فذى الجلال (صلاح)

استخدم شوقى الأعلام فخلق جواً يوحى بمراحل السلطان الدينى على العالم بما فيه مصر ، وجواً يوحى بمراحل السلطان السياسى الخاص بمصر فى البيت الأخير .

وكذلك فى قوله مستخدماً هذا الزخم الهائل من الأسماء :

ان (مصرا) رواية الدهر ، فاقرأ عبرة الدهر فى الكتاب العتيق [١]
ملعب مثل القضاء عليه فى صبا الدهر آية (الصديق)
وامحاء (الكليم) آنس نارا والتجاء (البتول) فى وقت ضيق
ومنا (منا) ، (فكسُرى) فذى (القر نين) فالقيصرين ، ف (الفاروق)

فالأسماء المستخدمة فى أبياته هذه توحى بجو مشترك بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، ولكن هذا الجو يغلب عليه الجفاف إذ هو عبارة عن شريط أنبائى يحمل أسماء .

وقد يصل استعمال شوقى لبعض الصيغ الجاهزة ، أو المسكوكات التقليدية ، أحياناً بألفاظها ، وأخرى باستيحاء معانيها ووضعها فى كلمات من عنده . ومصادره فى هذا تتدرج من معانى الآيات القرآنية والقصص القرآنى [٢] الى الشعر العربى القديم ، وفى بعض الأحيان العامية ، هذا الى جانب بعض الصيغ التراثية (Formulas) [٠] ، مثل (شد الرحل) [٣] تعبيراً عن الاستعداد للرحيل ، و (نام ملء جفنه) [٤] كناية عن النوم الهادىء ، و (قضى الوطر) [٥] لأخذ النصيب ، و (مات حتف أنفه) [٦] لموافات الأجل ، و (حل الحبا) [٧] للنهوض ، وغير ذلك

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٩٩ .
(٠) Formulas .
(٢) أنظر ص ٢٩٦ من هذا البحث .
(٣) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٨٤ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٨٤ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢٥ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٦٢ .
(٧) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٦٠ .

كثير في ديوانه . وهذا التصرف يوافق رأى القاضى الجرجانى بقوله : « أحظر على نفسى ولا أدرىّ بث الحكم على شاعر بالسرقة » [1] .

وسواء أكانت الاقتباسات بقصد أو بدون فانها تدل على أن شوقى يمثل التراث القديم وهضمه حتى أنه أصبح بعضاً منه ، حتى أن هذه الاستخدامات تأتى فى بعض الأبيات الشعرية متمكنة ولا نشعربنبوهاعن النغمة السائدة فى القصائد التى تحتويها .

ويستخدم شوقى فى معجمه الشعرى اسم الجلالة (الله) كثيراً حتى أن ذكر اسم الجلالة يرد فى أكثر من نصف ديوانه . ويمكن أن نرجع استخدام شوقى لاسم الجلالة بهذه الكثرة لسببين : الأول الاقتناع بوجود الله والايمان به وتوحيده ، والثانى تأثره بالقرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله (ص) . ولأن اسم الجلالة صيغة تراثية جاهزة يستخدمها شوقى فى كافة أغراضه الشعرية ، ولايختلف الشاعر الحديث عن القديم فى الاتجاه الى الله إذا ضاق به أمر ، ولايختلف الشاعر الاسلامى عن الجاهلى فى الابتهال واللجوء الى الله تعالى ، ولاستخدام اسم الجلالة فى الشعر جذور قديمة ، فلا يقال أن الأصنام كانت تعبد فى الجاهلية من دون الله ، وأن الشرك كان طاغياً ومتفشياً ، ففى غمرات ذلك الجو الملبد بالشرك كانت تلمع ومضات من نور الايمان ، وضوء التوحيد . فليس طبيعياً أن ينقطع ما بين الله والناس فى فترة من فترات الشرك . وكثيراً ما نجد اسم (الله) فى شعر الجاهلين فى معرض الحلف به والقسم بأسمه ، والحمد له ، والثناء عليه ، والدعاء بالخير والشر باسمه ، ووصفه بأنه يعلم كل خافية ، وأنه يحيى ويميت ، ويهلك ويبقى .

يقول امرىء القيس فى معرض (الحمد لله) :

أرى ابلى ــ والحمد لله ــ أصبحت　　ثقالا إذا ما استقبلتها صعودها [2]

وإذا ما تجاوزنا هذه المعانى الجزئية من وجود لفظ الجلالة (الله) فى الشعر الجاهلى ، الى المعنى الكلى من وجود الله نفسه ، وفكرة الألوهية الشاملة للتوحيد ، وجدنا شعراء جاهليين فاضت أشعارهم ــ التى رويت لنا عنهم ــ بفكرة الله سبحانه

(١) الوساطة ــ القاضى الجرجانى ــ ص ٢٥١ .
(٢) ديوان أمرىء القيس ــ ص ٦٠ .

وتعالى وآياته البينات ، ويتمثل هذا كثيراً فى شعر (أمية بن أبى الصلت) الذى قرأ كثيراً فى كتب الأوائل ، ونبذ الأوثان والتمس الدين . ومن قوله :

الـــه الـــعـــالـــمـــيـــن وكـــل أرض   ورب الـراسـيـات مـن الـجـبـال [1]

وتعتبر هذه الخطوات التى يأتى بها الشعراء فى الجاهلية كأنها توكيد لمعانى الألوهية فى النفس العربية منذ القديم ، فهذا الشاعر (زهير بن أبى سلمى) يقول :

فـلا تـكـتـم الـلـه مـا فـى نـفـوسـكـم   ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم [2]

أما شعراء الدعوة الاسلامية فكان من الطبيعى أن تمتلىء قصائدهم بالشعر الالهى ، ولكن الملاحظ أن أكثر ما روى لنا من شعر عصر النبوة وصدر الاسلام كان يذكر الدعوة الاسلامية والرسول (ص) لأن الرسالة المحمدية كانت الحدث الهام الذى توجه له الناس بكل ما يملكون من طاقات . واقتضى ذلك أن تتعدد وتتجه أهداف الشعر الاسلامى الى مدح الرسول (ص) ومدح الأنصار والصحابة ، وهجاء قريش والمشركين ، ونشر العقيدة ، واعلان الشهادة بالاسلام ، وغيرها من الأغراض .

أما بعد صدر الاسلام ، وفى أواخر القرن الأول الهجرى نرى الشاعر العجاج يدخل مجال الشعراء الالهيين بأرجوزة له فى (الله) يحمده ويصف يوم الحساب وأهواله ، يقول فيها :

الـحـمـد لـلـه الـذى تـعـلـت   بـأمـره الـسـمـاء ، واسـتـقـلـت [3]

وإذا كانت الذنوب تلجىء الشعراء الى باب الله لالتماس العفو ، فان الشدائد عند أبى العتاهية وأبى نواس كان نابعاً من الشعور بالذنب والطمع فى العفو ، وابتهالات النواسى فى شعره تتجه هذا الاتجاه فهو يطمع فى رحمة ربه وعفوه ، فهل كان شوقى يطمع فى عفو ربه ومغفرته كما فعل الشعراء من قبله ؟

---

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت ـــ ٣٦ .
(٢) شرح المعلقات السبع ـــ الامام المحقق أبى عبدالله بن الحسين الزوزنى ص ١٨٧ ـــ المكتبة الأموية ـــ دمشق ـــ سنة ١٩٦٣ م .
(٣) ديوان العجاج ـــ ص ٨٠ .

من الطبيعى أن يطمع شوقى فى رحمة ربه وعفوه ، الى جانب أنه من الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم ، وقد سبق أن تناولنا تأثره بالمصحف الشريف واقتباسه منه قصصاً وآيات قرآنية ، إذ أن القرآن الكريم اتجاه الى فكر الانسان ليقنعه بوجود الله بالأدلة الحسية والملموسة الثابتة عبر العصور . وقد تأثر شوقى بذلك كثيراً وردد اسم الله فى أشعاره بصيغ مختلفة ، وعلى هذا الاقتناع بوجود الله يترتب الالتزام بأوامره ونواهيه فى مختلف المجالات الروحية والاجتماعية .

وحين نرجع الى نصوص شوقى الشعرية لنستجلى بعض ملامح التصور الاسلامى من خلال نظرة شاملة للمواضع التى ورد فيها ذكر الله تعالى أو حديث عن بعض أفعاله أو أقواله نستطيع أن نستنتج أن كل تلك المواضع ترد الى عنصر واحد ، والى حقيقة واحدة من الحقائق الالوهية ، تلتقى عليها جميع نماذج معجمه وأمثلته لتعطى تصوراً واضحاً عنها ، تلك هى حقيقة العلاقة بين الله وخلقه ، وبخاصة البشر منهم . فالله يحكم بين البشر وبين الخلق عامة ، وهو فوق الخلق ، وهو العالم ببواطن الأمور ، وهو المؤلف بين القلوب ، وهو الأول والآخر ، ويمكن أن نلمح هذه العلاقة فى جوانب مختلفة فى معجمه الشعرى.

ومن علاقته تبارك وتعالى بالكون يشير شوقى الى أنه سبحانه هو الخالق للحياة والكون إذ يقول :

الله فوق الخلق فيها وحده   والناس تحت لوائها أكفاء (١)

ويقول :

قوة الله أن تولت ضعيفاً   تعبت فى مراسه الأقوياء (٢)

ويقول فى عظمة الروح وخالقها :

الروح للرحمن جل جلاله   هى من ضنائن علمه وغيابه (٣)

وفى الآيات الكريمة دلالة على عظمة الخالق وبراهين على قوته وارادته وعلى الذى يشك فى وجود الخالق أن يتأمل فى صنعه العجيب يقول :

---

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٨ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٨٦ .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى [1]
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها أم الكتاب على لسان القارى

والرياح مسخرات بأمر الله يرسلها الى حيث يشاء لتؤدى مايريده سبحانه ، يقول شوقى :

تكاد تقاد الغاديات لربه فيزجى وتنزم [*] الرياح فيركب [2]

وإذا كان القدماء قد عبدوا الأصنام والتماثيل فانها رموز الى الخالق المنزه عن المماثلة ، وإذا كانوا قد ألّهوا الأشجار فانها بخيراتها وحيويتها وجمالها من خلق الله ، والذين عبدوا الملوك كانوا بحاجة الى من يبصرهم بأن الله ملك الملوك يعطى الملك من يشاء ، يقول شوقى :

رب شقت العباد أزمان لا كتب بها يهتدى ولا أنبياء ؟ [3]
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء [*]
... ...
فاذا لقبوا قويا الها فله بالقوى إليك انتهاء
... ...
جمع الخلق والفضيلة سر شقت عنه الحجاب فهو ضياء

صور شوقى حيرة البشر ب (شقت العباد) وهذا دلالة على تطلع الناس الى معرفة الحقيقة منذ القدم حيث لم يكن أنبياء ولا كتب يهتدى بها ، ولكن شوقى أذهب هذه الحيرة بقوله أن تعدد الالهة ينتهى الى حقيقة واحدة هى وجود الله ووحدانيته ، وصور ذلك ب (الحقيقة الزهراء) .

---

(١) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٣٦ .
(٢) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٥٦ .
(*) تنزم : زم : ربطه وشده .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٠ .
(*) الحقيقة الزهراء : وجود الله وتوحيده .

ويكرر شوقى قوله ليذهب الحيرة عن البشر حيث يردد :

اعـبـد الـلـه بـعـقـل يـا بـنـى ... وبـقـلـب مـن رحـاب الـلـه حـى (١)

ويجعل شوقى الشك فى وجود الله حريمه لأنه انحراف عما تمليه عليه الفطرة ، إذ يقول :

سل الـشـمـس مـن رفـعـهـا نـاراً ، ... ونصبها مناراً ، وضربها ديناراً ؟ (٢)

ومـن علـقـهـا فـى الـجـو سـاعـة ... يـدب عـقـربـهـا الى يـوم الـسـاعـة ؟

والقرآن الكريم هو المعين الثرى الذى يستمد شوقى منه صوره كما فعل غيره من الشعراء ، إذ أنه الحقيقة التى تبعث على التأمل والتى يجدونها فى هذا الكتاب الكريم ، وهذه الحقيقة فيما خلق الله من آيات دالة على عظمته وقدرته ، وقد أورد المصحف الشريف هذه العظمة الالهية التى يشهد لها الكون فى مواطن كثيرة ، وذكر مشاهد الحياة والموت ويوم القيامة والفناء . وقد ردد شوقى بهذا المعنى مصوراً هول القيامة إذ يقول :

مـن مـات فـى فـزع الـقـيـامـة لم يـجـد ... قـدمـا تـشـيـع أو حـفـاوة سـاعـى (٣)

ويقول :

تـعـالـى الـلـه ، لايـبـقـى سـواه ... إذا وردت بـريـتـه الـفـنـاء (٤)

وهكذا نجد العلاقة بين الله والكون من خلال معجم شوقى الشعرى ، علاقة بين خالق مالك متصرف ، وكون مخلوق خاضع لأمر الله وارادته ، وهى علاقة تشف عن رحمة وعطف من الله على عباده وتوحيد العباد للاله وخلقه ، وهى تبدو أيضاً بالترفق التكريمى بالعبادة ، والله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة لعبده المنيب اليه ، وشوقى شأنه شأن الشعراء السابقين يطلب المغفرة من ربه ويسأله أن يعفو عنه وعن غيره من الناس ، ويقبل توبته وتوبة غيره من عباد الله . يقول :

فـأسـأل الـهـى عـفـوه الـجـلـيـلا . ... لـتـائـب قـد جـاءه ذلـيـلا (٥)

(١) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٣٨ .
(٢) أسواق الذهب — ص ٤٥ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ٩٤ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ٢١ .
(٥) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ١٦٥ .

ويقول مستغفراً للخليفة :

نستغفر المولى له والله يعفو عن كثير [1]

أما الرحمة والغفران فهما من أبرز الصفات الالهية التى تنطق بها معظم نصوص شوقى الشعرية ، وهى تفيض بشتى المشاهد والمواقف المعبرة عن غفران الله للكثيرين من عباده مهما كانت ذنوبهم . يقول :

مذنبكم قد غفر الله له ما أذنبا [2]

ويقول :

مدوا الأكف سخية ، واستغفرى يا أمة قد آن أن تستغفروا [3]

ويقول فى قصيدته (رمضان ولى) والتى يهنىء فيها الخديوى بعيد الفطر ويعتذر عن شرب الخمر ، لينسى همومه وأحزانه وعالم النفاق الذى يعيش فيه . وشوقى يعلم فى ذلك أنه مذنب بدليل التماسه الأعذار وطلب المغفرة من الله ، ولعل الله يقبل توبته ويغفر له :

الله غفار الذنوب جميعها ان كان ثم من الذنوب بواقى [4]

ويطلب شوقى من ربه المغفرة للجيل الناشىء من الطلبة بعد سقوطهم بالامتحان واقدامهم على الانتحار ، ويقطع عليهم سبيل اليأس ويبسط لهم سبيل الأمل ، يقول :

غفر الله له ، ماضره لو قضى من لذة العيش الوطر ؟ [5]

والله بذاته رحمة وعدل ، وقد فضل الله دور العدل على دور القوة يقول شوقى :

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢١ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٥٩ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٤٧ .
(٤) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٧٧ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٢٥ .

والله يعلم أن في خلفائه عدلا يقيم الملك حين يميل [(١)]

ومما شاع فى معجم شوقى استخدام اسم الجلالة مفعولا به فى الصدارة من جمل هى فى معنى (اتق الله) :

الله فى الخلق من صب ومن عان تفنى القلوب ويبقى قلبك الحانى [(٢)]

ويقول :

الله فى روح صب يغشيان بها موارد الحتف لم ينقل لها قدما [(٣)]

ويقول أيضاً :

يا أهل القدود التى طالت عواليها الله فى مهج طاحت غواليها [(٤)]

وقد استخدم الشاعر اسم الجلالة مع (كان) الماضية على منوال بعض التراكيب القرآنية ولكن (كان) هنا خرجت عن الزمن الماضى الى الزمن الدائم ، يقول :

فقلت : كذلكم آنست قبلاً وكان الله بالنجوى عليما [(٥)]

ويرد اسم الجلالة عند شوقى فى معرض القسم به ، والحمد له ، يقول :

بالله جل جلاله ، بمحمد بيسوع ، بالعزى لا تتفرقوا [(٦)]

ويقول :

قسماً بمن يحيى العظا م ولا أزيدك من يمين [(٧)]

استوحى البيت السابق من قوله تعالى : « يحيى العظام وهى رميم » [(٨)] .

---

(١) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١١٦ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٤٢ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٣٧ .
(٤) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٤٥ .
(٥) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٣٢ .
(٦) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١١٣ .
(٧) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٢٠ .
(٨) قرآن كريم — سورة الفجر — آية ٢٧ .

وفى معرض (الحمد لله) يقول :

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنينا [1]

والدعاء لله يأتى عنده مقروناً بالتوسل المباشر إذ يتوجه الشاعر الى الخالق أن يؤيد بلاده مصر بقوله :

يارب قو يدها ، وشدها وافتح لها السبل ، ولاتسدها [2]

ويقول متضرعاً لله أن يكتب السلامة لركاب السفينة في قصيدة (كبار الحوادث) :

رب ان شئت فالقضاء مضيت وإذا شئت فالمضيق فضاء [3]
فاجعل البحر عصمة وابعث الرحمة فيها الرياح والأنواء

ويستعمل شوقى صيغ الدعاء فى معجمه الشعرى مقرونة بحرف (يا) فى صدارة الجملة المبدوءة بفعل ماض يفيد الدعاء ، يقول :

فيارعى الله وافداً بين أعيننا ويرحم الله ذاك الوفد ما رحما [4]

ومنه :

يا وقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى [5]

ويقول :

فى ذى الجفون صوارم الأقدار راعى البرية يا رعاك البارى [6]

وايمان شوقى بالبعث كايمانه بالموت فكلاهما حق ، ولأن الروح والبعث عقيدة دينية ، فهى ليست بحاجة الى جدل أو تدليل ، ويتجلى ايمان شوقى بالله وبأن النفوس مردها الى الله سبحانه وتعالى إذ يقول : -

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢٨٠ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٥٨ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٧ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١٥ .
(٥) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٤٤ .
(٦) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٢٥ .

سنة الله في العباد وأمره ... ناطق عن بقائه لن يردا [1]
وإلى الله ترجع النفس يوما ... صدق الله والنبيون وعدا

ولقد ردد في معظم قصائده الرثائية يقينه بالبعث وبنعيم الآخرة ، يقول وهو يرثى زعيم مصر (سعد زغلول) المتوفى سنة ١٩٢٧ م :

في نعيم الله نفس أوتيت ... أنعم الدنيا فلم تنس تقاها [2]

وفي رثاء عمر لطفى المتوفى سنة ١٩١١ م يقول :

إلى جنة خلقت للكريم ... ومن عرف الله ، أو من قدر [3]

وفي رثاء تولستوى يقول :

طوانا الذى يطوى السماوات في غد ... وينشر بعد الطى وهو قدير [4]

استوحى ذلك من قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب » [5] .

وشاعرنا أحمد شوقى كغيره من الشعراء مؤمن بربه يطمح في التوبة والغفران بل هو يتفوق على غيره من الشعراء في استخدامه لأسم الجلالة في شعره بهذه الوفرة ، ونستطيع أن نقول أن هذا الاستخدام أصبح ذا طابع خاص يتميز به معجمه الشعرى .

استعمال بعض الصيغ النادرة :

ويستعمل شوقى في معجمه الشعرى الدينى بعض الصيغ النادرة وهذا من باب العمل على اثراء الرصيد اللغوى أولا ، ثم العمل على احياء مهمل اللغة ثانياً . فمن الصيغ النادرة التى ولع بها شوقى فاستعملها في مواطن كثيرة من شعره على حساب الشائع منها ، استخدامه (الذام) مصدراً بدل (الذم) .

---

(١) ديوان شوقى ــ ج ٣ ــ ص ١٣٠ .
(٢) ديوان شوقى ــ ج ٣ ــ ص ١٧٩ .
(٣) ديوان شوقى ــ ج ٣ ــ ص ٨٣ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ٨١ .
(٥) قرآن كريم ــ سورة الأنبياء ــ آية ١٠٤ .

يقول :

يقضى عليهم فى البرية ، أولهم   ويديم حمداً ، أو يؤيد ذاما [١]

ويستخدم (الخلد) مصدراً بديلا (للخلود) :

واطلب الخلد ورمه منزلا   تجد الخلد من التاريخ بابا [٢]

ويقول :

ولا خلد حتى تملأ الدهر حكمة   على نزلاء الدهر بعدك أو علما [٣]

و (الخلد) هو مصدر يقترن بالجنة كثيراً ، فيكون شوقى قد فضل هذا المصدر واستعمله لاحتفاظه بنفس دينى .

ويستعمل شوقى (شميم) بدل المصدر (شم) يقول :

قدسية النفحات   تسكر بالمذاق وبالشميم [٤]

ويستخدم شوقى من صيغة الأفعال النادرة (صيغة افتعل) بدل صيغة المجرد (فعل) ، يقول :

لزمت باب أمير الأنبياء ، ومن   يمسك بمفتاح باب الله يغتنم [٥]

ويستخدم شوقى من صيغة الأسماء النادرة (شيمال) بديلا ل (شمال) يقول :

لقد ركب الله فى ساعديك   يمين الجدود وشيمالها [*] [٦]

وسواء أكان استعمال (شيمال) عند شوقى ضرورة شعرية أم صدى لثقافة لغوية ، فانه نادر الاستعمال حديثاً ومهمل تقريباً . فالاستعمال عنده ذا طابع قديم .

---

(١) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٤٤ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ١٨ .
(٣) ديوان شوقى — ج ٣ — ص ١٤٦ .
(٤) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٢١٨ .
(٥) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٩٠ .
(٦) ديوان شوقى — ج ١ — ص ١٨٤ .
(*) شيمال : ورد فى لسان العرب (الشيمال) لغة فى الشمال .

ويستخدم شوقى بعض الألفاظ النادرة مثل (الندى) بديل (النادى) يقول :

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى ، وللقلوب بكاء

ويقول :

يدعو خلف الستر الهة لهم ملؤوا الندى جلالة ، وتأبقوا [2]

ويستخدم كلمة (رضى) بديل (ارضاء) :

كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضى للحق أو اعلاء [3]

ويستخدم (آمناً) بديل (مؤمنا) :

آمنا بالله ايمان العجوز ان غير الله عقلا لا يجهز [4]

بعد هذا نجد أن معجم شوقى الدينى فى استخداماته للصيغ النادرة ، قوامه خصائص اللغة فى جانبها النادر المهمل .

وتعبيرات شوقى فى معجمه الدينى تبرز من خلال علاقاتها لتأدية الغرض ، ويضاف الى ذلك « أن بعض النقاد يرون أن الشعر ليس صورة ولكنه علاقة » [5] .

وحين ننقل هذا الى ديوان شوقى نلاحظ أن المعجم لديه ما هو إلا صو وعلاقات تكمل بعضها الآخر وهذا ما يعطى ديوانه ثقلا دلالياً واضحاً .

* * *

(١) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤ .
(٢) ديوان شوقى — ج ٢ — ص ٦٤ .
(٣) ديوان شوقى — ج ١ — ص ٣٤ .
(٤) ديوان شوقى — ج ٤ — ص ٣٨ .
(٥) Chatman: Literary Style, p. 38 I .

الخاتمة :

في اطار هذه النظرة الاسلامية ــ العربية نرى أن شعر أحمد شوقى الاسلامى يندرج تحت ركنين أساسين : النفس الجاهلى والمعنى الاسلامى ، وما أحدثته هذه المزاوجة التراثية من تحويل أو اضافة فى الشعر ، ومن هنا كانت البداية فى التعرف على التيار الاسلامى الواضح فى شعر شوقى فى دائرة السياسة العثمانية التى استقرت فى نظام للحكم، كان عليها أن تثبته وتدافع عنه . وأول ما يلفت النظر هو احاطة الخليفة العثمانى والخلافة بهذه القداسة . وهى فكرة تجاوزت عند شوقى المعنى الدينى الى مستوى التأثر بنظم الحكم فى حضارات أخرى امتزجت بالحضارة العربية وتفاعلت معها أخذاً وعطاء . وتترد فكرة تمجيد الخليفة ــ خليفة المسلمين ــ عند شوقى الذى التف حول البلاط العثمانى كثيراً ، وتتسع الدائرة لتشمل كل صفات الخليفة من شجاعة وكرم موروث وبلاء فى الحرب . ويترتب على هذا التمجيد تكرار الصيغة لدى الشاعر ، وهذا التكرار المتشابه ناتج عن انعكاس الرؤية عنده . وأخذت الصور الاسلامية عند الشاعر تدخل دائرة الفضيلة فالخليفة خير من ينهض بالعباد ويؤدى الشعائر والفرائض ، بل خير من يحج لبيت الله . ومما يلفت النظر أن شعر الخلافة عند شوقى كان أكثر الموضوعات حاجة الى التيار الاسلامى واستيعاباً له ، وذلك لأن التوظيف السياسى لهذا الشعر والاعتماد على الدين من أجل توجيه السياسة وتأكيد مبادئها ، وموقف شوقى هذا من الخلافة يرجع أولا وقبل كل شيء الى تمسكه وغيره من المسلمين بالخلافة كمركز للاسلام ووحدة للمسلمين بصرف النظر عن دوافع الجنس والدم . وقد نزع شوقى الى مؤازرة حركة الجامعة الاسلامية

استجابة لأهداف دينية ترمى الى وحدة الأمة واستقلالها وتؤكد لها حياة قويمة مستمدة من تعاليم الدين .

وفى اطار المزاوجة التراثية ، استطاع شوقى أن يعبر تعبيراً فنياً خرج فى أداء لغوى لا يفارق البلاغة القرآنية حينما زاوج بين مصر الفرعونية ، ومصر القرآنية ، وهذا مما يوضح مدى اهتمام شوقى بالتاريخ أولا ، ولأن حضارة مصر الفرعونية كانت حضارة ذات صبغة دينية ثانياً . والى جانب ذلك فقد زاوج بين أحداث التاريخ القديمة والحديثة ليسجل بها أحداث عصره،ويعود ذلك الى فهمه للدور الحضارى للتاريخ ، وهو دائم البحث فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية عن المثل الأعلى .

وقد انتقل البحث الى رؤية أخرى لأبعاد التأثير الاسلامى المباشر فى شعر شوقى ، وكان أهم مظاهر هذا التأثير ما اقتبسه الشاعر من القرآن الكريم ، فقد أصبحت الآيات القرآنية المصدر الأول الذى نهل منه . وقد أحس شوقى أنه فى حاجة الى تدعيم موقفه السياسى من خلال النص المقدس ، فاقتبس منه بصورة مباشرة وغير مباشرة لتحقيق هذه الوظيفة ، وكأن شوقى يريد أن يثبت بأنه ليس أقل ثقافة دينية من غيره من الشعراء خاصة أنه شاعر قصر الخديوى .

وكان القصص الدينى مظهراً آخر من مظاهر هذا التأثير الاسلامى ، اعتمد عليه شوقى بصورة واضحة ، فانتشر فى شعره يؤكد به مكانة الخليفة العثمانى من خلال تشبيهه بالأنبياء ، كما استغل قصص الأمم الغابرة وما أصابها من عذاب الله فى تخويف المعارضين للخلافة العثمانية .

وكانت الشعائر الدينية والعبادات مظهراً آخر لهذا التأثير الاسلامى عند شوقى ، وقد كان ظهورها على مستوى البيت المفرد كثيراً ، فلم تشكل صورة كاملة إلا فى مواضع قليلة ، ونجد اشاراته للحج والصوم والصلاة وغيرها من الشعائر .

وشوقى بانتمائه لمرحلة الاحياء هو جزء من مرحلة حتمية تمر بها الأمة فكان لابد أن يسير فى شغره على النظام الشعرى القديم والاقتباس من الموروث ، وأن يجدد فى شعره بمقدار محدود ، إذ أن العالم العربى بعد خروج الاستعمار التركى كان عليه أن يعيد شخصيته العربية . أما نقطة المواجهة لاستعادة الشخصية العربية فهى العودة الى التراث القديم الذى أخذ الشاعر يتمثل به وخاصة هذه القيم التى يعتز بها العربى من كرم وشجاعة . ودفاع عن النفس . وكان على الشاعر أن يتمثل اللغة العربية الفصحى بكل ما تحمل من خصائص بيانية لمواجهة هذا الموقف .

والظاهرة الملفتة للنظر هى المزاوجة الصوتية والموضوعية فى معجم شوقى الشعرى ، وهى إن دلت على شيء فانما تدل على أن شوقى درس نظام اللغة العربية فى أبرز سماته .

وهكذا نجح شوقى فى اعداد ديوان من الشعر هو فى الحقيقة قاموس حى لمفردات اللغة ، استطعنا أن نأخذ منه هذه الاسلاميات .

وبعد ، فان أكن قد وفقت فما توفيقى إلا بالله ، وان تكن الأخرى فما أبرىء نفسى ، وكل ابن آدم خطاء ، وحسبى اننى اجتهد قدر طاقتى ، والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

(أ) أعمال شوقى :

- ديوان شوقى (٤ أجزاء) ـ المكتبة التجارية الكبرى ، مصر سنة ١٩٧٠ م .
- ديوان شوقى (٤ أجزاء) ـ ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م .
- الشوقيات المجهولة ـ جزءان ـ ج ١ سنة ١٩٦١ م ، ج ٢ سنة ١٩٦٢ ـ تحقيق محمد صبرى ـ ط . دار الكتب المصرية .
- أسواق الذهب ـ م . الاستقامة ـ القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- دول العرب وعظماء الاسلام ـ م . مصر سنة ١٩٣٣ م .
- مسرحية مجنون ليلى ـ م . دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ .
- مسرحية على بك الكبير ـ شركة فن الطباعة سنة ١٩٣٢ م .
- مسرحية أميرة الأندلس ـ سنة ١٩٣٢ م .

(ب) مصادر دينية :

- القرآن الكريم .
- زبدة البخارى ـ عمر ضياء الدين ـ ط . مطبعة مصطفى البابى الحلبى ـ مصر سنة ١٣٤٩ هجرية .
- صحيح الترمذى ـ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ـ دار الفكر سنة ١٩٧٨ م .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ اعداد : محمد فؤاد عبدالباقى ـ ط . مطابع الشعب بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هجرية .
- انجيل متى ـ ط . بيروت ـ مكتبة جامعة القاهرة
- انجيل برنابا ـ مطبعة النيل المسيحية ـ مصر ـ ١٩٢٤ م ـ مكتبة جامعة القاهرة

(ج) دواوين الشعراء :

- ديوان امرىء القيس ـ شرح السندوبى ـ م . الاستقامة ـ القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

- ديوان أمية بن أبى الصلت ــ جمع وتصحيح وضبط فردوس شولتش ــ ط . ليبسك ــ سنة ١٩١١ م .
- ديوان ابن زيدون ــ تحقيق : كامل كيلانى وعبدالرحمن خليفة ــ ط . مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٢ م .
- ديوان أبو تمام ــ شرح الخطيب التبريزى ــ تحقيق : محمد عبده عزام ــ دار المعارف ــ مصر سنة ١٩٧٠ م .
- ديوان البحترى ــ تحقيق : حسن كامل الصيرفى ــ بيروت سنة ١٩٦٥ م .
- ديوان البوصيرى ــ تحقيق : محمد سيد كيلانى ــ م . مصطفى البابى الحلبى ــ مصر ١٩٥٥ م .
- ديوان حسان بن ثابت ــ شرح البرقوقى ــ سنة ١٩٢٩ م .
- ديوان الحصرى ــ (على) أبو الحسن الحصرى القيروانى ــ محمد المرزوقى والجيلانى بن الحاج يحيى ــ تونس سنة ١٩٦٣ م .
- ديوان الحماسة ــ شرح المرزوقى ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٣ م .
- ديوان زهير بن أبى سلمى ــ شرح ابن الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمرى ــ ليدن سنة ١٨٨٩ م .
- ديوان العجاج ــ مجموعة أراجيز ــ ج ٢ ــ ط . ليبسك سنة ١٩٠٣ م .
- ديوان كعب بن زهير ــ ط . دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م .
- ديوان المتنبى ــ شرح أبى البقاء العكبرى ــ تحقيق : مصطفى السقا . ابراهيم الأبيارى . عبدالحفيظ شلبى ــ ط . البابى الحلبى سنة ١٩٧١ م .
- ديوان مجنون ليلى ــ جمع ونشر جمال الحلبى ــ ط ز عيسى الحلبى ــ القاهرة ١٩٦٣ م .
- ديوان مهيار الديلمى (٤ أجزاء) ــ ط . أولى ــ دار الكتب المصرية ــ ١٩٢٥ م ــ ١٩٣١ م .

(د) مصادر أدبية وتاريخية :

ـ الآمدى : (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد ـ القاهرة سنة ١٩٤٤ .

ـ ابن الأثير : (الكامل فى التاريخ) ـ ادارة الطباعة المنيرية ـ درب الأتراك ـ مصر ١٣٥٦ هجرية .

ـ ابن المقفع : عبدالله : (كليلة ودمنة) تحقيق : عبدالوهاب عزام ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٤١ م .

ـ أبو الفرج الأصفهانى : (الأغانى) ـ ط . دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٧ م .

ـ الجرجانى : القاضى على بن عبدالعزيز : (الوساطة) تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم وعلى محمد البيجاوى . عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ـ الزوزنى : أبى عبدالله الحسين (شرح المعلقات السبع) ضبط وتعليق : محمد على حمد الله ـ المكتبة الأموية ـ دمشق ١٩٦٣ م .

ـ الصفدى : صلاح الدين خليل بن أبيك : (الوافى بالوفيات) مراجعة : هلموت ديتر ـ فيسبادن ١٩٦١ م .

ـ القرطاجنى : حازم : (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) تحقيق : محمد بن الحبيب بن خوجه ـ دار الكتب الشرقية ـ تونس ١٩٦٦ م .

ـ الميدانى : (مجمع الأمثال) تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد ـ مصر ١٩٥٥ م .

(هـ) المراجع :

ـ إبراهيم عبدالرحمن محمد ـ الشعر الجاهلى قضاياه الفنية والموضوعية ـ م . الشباب ـ المنيرة ـ القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

ـ أحمد الحوفى ـ وطنية شوقى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٨ م .

ـ أحمد أمين وزكى نجيب محمود ـ قصة الأدب فى العالم ـ لجنة التأليف والنشر ـ ١٩٤٥ م .

ـ أحمد عبيد ـ ذكرى الشاعرين ـ المكتبة العربية ـ دمشق ـ ١٣٥١ هجرية

- أحمد هيكل ـ الأدب القصصي والمسرحي في مصر ـ ط . ثالثة ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م .
- آرنولد توتينبى ـ الخلافة ـ نص المحاضرات التى ألقاها توينى خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة فى ابريل ١٩٦٤ م ـ ترجمة فؤاد ذكريا ـ الدار القومية للطباعة والنشر١٩٦٦ م .
- ألما وتلين ـ عبدالحميد ظل الله على الأرض ـ ترجمة : راسم رشدى ـ دار النيل للطباعة بمصر سنة ١٩٥٠ م .
- جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ مصر سنة ١٩٤٦ م .
- حامد شوكت ـ المسرحية فى شعر شوقى ـ دار الفكر العربى ـ م . المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٧ م .
- درينى خشبه ـ أشهر المذاهب المسرحية ـ ط . نموذجية سنة ١٩٦١ م .
- ساطع الحصرى ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ـ بيروت ـ دار العلم ـ ط . أولى ـ ١٩٥٧ م .
- سالم الرشيدى ـ محمد الفاتح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٩ م .
- شوقى ضيف ـ شوقى شاعر العصر الحديث ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٣ م .
- عبدالرحمن بدوى ـ (ترجمة) الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ـ مطبعة النهضة المصرية ـ ١٩٤٤ م .
- على النجدى ناصف ـ الدين والأخلاق فى شعر شوقى ـ ط . ثانية ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ سنة ١٩٦٤ م .
- على نصوح الطاهر ـ الروح الخالدة ـ نظرات فى عينية ابن سينا ـ الأردن ١٩٦٠ م .
- كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية (٦ أجزاء) ـ ط . دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٩ م .
- لوثرب ستودارد ـ حاضر العالم الاسلامى (جزءان) ـ ترجمة : عجاج نويهض ـ تعليق : شكيب أرسلان ـ سنة ١٩٢٥ م .
- محمد جميل بيهم ـ فلسفة التاريخ العثمانى ـ بيروت ـ سنة ١٩٢٥ م .
- محمد رشيد ـ تاريخ الأستاذ الامام ـ مصر ـ سنة ١٩٣١ م .

- محمد حسن عبدالله ـ فنون الأدب ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٧ م .
- محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ دار المعارف بمصر ـ ط . سادسة عشرة ١٩٨١ م .
- محمد غنيمي هلال ـ الأدب المقارن ـ ط . ثالثة ـ مكتبة الأنجلو ـ مصر سنة ١٩٦٣ م .
- محمد فريد ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ تحقيق : د . احسان حقي ـ ط . ثالثة ـ م . التقدم سنة ١٩١٢ م .
- محمد الهادى الطرابلسى ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ـ منشورات الجامعة التونسية ـ ط . بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٨١ م .

(و) الدوريات والمجلات

- أبولو ـ العدد الرابع من السنة الأولى ـ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م .
- عكاظ (جريدة) ـ العدد ١٢١ ـ مكتبة القلعة ـ يونية سنة ١٩٢٦ م .
- مجلة (المجلة) ـ يوليو ١٩٥٩ م .
- فصول (مجلة النقد الأدبى) ـ المجلد الثالث ـ العدد الأول ـ أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر ٨٢ ـ
- المقتطف (جريدة) ـ سنة ١٨٩٢ م .
- الهلال (كتاب) ـ فبراير / مارس ١٩٥٣ م ـ مذكرات عرابى
- الهلال (مجلة) ـ عدد خاص ـ سنة ١٩٣٩ م .

(ز) المراجع الأجنبية :

1. AL BOUY (Pierre):
   La Création mythique Chez Victor Hugo.
   Corti, Paris, 1963.

2. Symour Chatman (editor) : Literary Style :
   A Symposium, London and N.Y. 1971.

3. MODERN EGYPT : The Earl of Cromer. London, 1908.



الفهرس

تم بحمد الله

مطابع أهرام الجيزة الكبرى

